الأَدَبُ الحَدِيث

إبراهيم المصري

مجموعة أبحاث وقصص

سنة ١٩٣٢

طبع بمطبعة المجلة الجديدة بشارع
الملكة نازلى رقم ١٤٩ بالقاهرة

اهـــداء الكتاب

الى

الاستـــاذ عبد القادر حمزه

رمز تقدير واحترام

ابراهيم المصرى

كلمة

يحتوى هذا الكتاب على سلسلة من كتب وقصص لطائفه من مشاهير كتاب أوربا عنيت بتلخيصها والتعليق عليها كما أعطى القارىء المصرى عدة صور سريعة لبعض التيارات الفكرية فى الادب الغربى .

ولقد آثرت الا يجىء هذا الكتاب خلوا من عمل مستقل شخصى فزودته بقصة مصرية موضوعة حاولت جهدى أن اجمع فيها بين اللون المحلى والمرمى الانسانى ضمن اطار من الملاحظات النفسية الدقيقة

فعساى أكون قد وفقت فى ابراز جوهر الاعمال الملخصة وفى وضع القصة المصرية على ما يرضى الادب والفن

ابراهيم المصرى

فهرست الكتاب

صفحة

كتب ملخصة

٤ ارتقاء المرأة
١٣ العبقرية والحب
٢٤ نظرات فى العالم الحاضر
٣٣ مرض الكلام
٤٠ كلمات العصر الحاضر
٥٠ خيانة الكتاب

٥٦ الخريف (قصة مصرية)

قصص ملخصة

٧٢ قوى كالموت
٨٤ فاجعة البحيرة
٩٧ السمفونيا الريفية
١٠٣ أسرة بنوا
١١٤ تيريزراكان
١٣٤ أكاذيب
١٤٣ العذاب
١٥٥ بين الثلوج

ارتقاء المرأة

LA PROMOTION DE LA FEMME

تأليف الكاتب الفرنسى الكبير لوسيان روميه Lucien Romier

لوسيان روميه من أولئك الكتاب الذين تتمثل فيهم خصائص العبقرية الفرنسية أبلغ تمثيل . فهو رشيق العبارة واضح الأسلوب مقتصد فى اللفظ يجمع إلى الدقة والتناسب قوة المنطق واتساع مدى الفكر . وهو ديموقراطى المزاج حر النزعة يشترك والكاتب الايطالى الشهير (فيريرو) فى الدعوة إلى مقاطعة الأنظمة المتطرفة كالشيوعية مثلا بالمحافظة على النظام النيابى — كما تفهمه فرنسا — وتركيزه على قواعد ثابتة وتكوين طبقة من رجال الثقافة العلمية والأدبية الممتازين يتصدرون لقيادة الراى العام ويستخدمون ثقافتهم ورءوس أموالهم فى الذود عن حق الملكية . ونظام الأسرة . وحرية الفكر . وتمثيل الشعب . وسائر أغراض الديمقراطية . ثم يسعون فى الوقت نفسه لتأليف ولايات أوربا المتحدة على قاعدة التحالف الاقتصادى وهدم الحواجز الجمركية وتأسيس جبهة مشتركة تحمى الحضارة الاوربية من طغيان آسيا وأمريكا . وقد عالج لوسيان روميه معظم هذه الموضوعات فى مؤلفاته : « الامة والحضارة » و « تفسير العصر » و« من الذى سيسود : أوربا أم أمريكا ؟ » وفى شتى المقالات التى ينشرها فى ثبريات الصحف الباريسية . وهو فى كتابه « ارتقاء المرأة » الذى نلخصه اليوم يبدو لنا كمفكر عملى يجيل فى مختلف مظاهر الاخلاق النسوية الجديدة فى أوربا وأمريكا نظرة مدققة فاحصة ثم يسجل هذه المظاهر على حقيقتها فى حيدة تامة وأمانة مطلقة رغبة فى إعطاء صورة صادقة عن مبلغ تطور المرأة الأوربية منذ نهاية الحرب الكبرى الى يومنا هذا

***

وقبل أن يشرع لوسيان روميه فى تحليل شخصية المرأة الحديثة يمهد لتحليله ببحث مستفيض عن الرجل والمرأة عامة. عن موقف الجنسين من حيث علاقاتهما بالطبيعة الأبدية وأحكامها. والغريزة وتفاعلاتها وقانون التناسل وواجب حفظ النوع والسهر عليـــه. فيقول ان الرجل يخلق المرأة والمرأة تخلق الحب

لاتكاد تستفيق العاطفة الجنسية فى جسم الرجل وعقله حتى تستدق اعصابه، وينمو خياله، وتزدهر فيه بغتة ملكات الشعر. فتبدو له الطبيعة فى حلة رائعة من جمال. فينقل الطرف بين النساء ويحلم. يحلم لابامرأة محدودة بل بالمرأة ككائن أبدى. المرأة كاقوى العناصر غرابة وحياة. يحلم بها. وتطوف شخصيتها العجيبة بمسرح خياله فيضفى عليها كل ما اخذته عينه من جمال. يرى فيها شعر الوجود ويلمح من خلال نظراتها نفس ذلك السر الفاتن العميق الذى يحسه أمام الطبيعة كل يوم فيكبر من شأن المرأة ويتغنى بها ويلتمس فيها كل ماهو طيب وجميل. وهكذا يخلقها تصوره الشعرى خلقاً. أو تخدعه العاطفة الجنسية فتزينها له تحقيقاً لغاياتها الخالدة

أما المرأة فتفتن فى التجمل. وتفتن فى الدعاب. لتظفر بالرجل ويزيدها الدهاء غرابة. ويزيدها التقلب غموضاً وسحراً. فبينا هى باسمة مقبلة: اذا بها مقطبة معرضة تدافع عن نفسها جهدها. قبل أن تسلم بشىء. وتعذب الرجل مااستطاعت قبل أن تهوى بين ذراعيه. وهى انما تقاوم الرجل لتختبره وتحسن اختياره وتكفل لها ولأولادها فى المستقبل حياة سعيدة مطمئنة

هذا الاسلوب فى المقاومة هو الذى يغرى الرجل بها ويلهبه، ويخلق الحب فى نفسه ويخضعه، ويوفق فى النهاية بينه وبين المرأة فى سبيل تأسيس الاسرة وحمايتها

تلك كانت طريقة المرأة فى اجتذاب الرجل لما أن كانت الحياة فطرية بسيطة. والحضارة زراعية أولية. والمرأة جاهلة ضعيفة تعيش عالة على أهلها. وتظل ترتقب الساعة التى تحظى فيها بالزوج الذى يتعهدها ويرعاها ويقوم على شؤونها وشؤون ابنائها فى دائرة الاسرة

كانت المرأة تشعر بعبوديتها الاقتصادية فتحاول أن تستميل الرجل وتستبقيه

وتتسلط عليه بأسلحه الضعيف العاجز . فتفرط فى التدلل والتجمل . وتغلو فى اصطناع اللذة ، وتمنى الرجل ثم تنصرف عنه . تصارحه ثم تمكر به . تشعل غيرته ثم تحنو عليه . وهى تعلم علم اليقين أن من هذه المناورات ينشأ الحب العاصف الذى يخضع لها الرجل ويمكنها منه

وعليه فموقف المرأة هذا كان يسمم الاسرة ويقيمها على قاعدة المصلحة

وكثيراً ما كانت المرأة تتزوج مرغمة بدافع الحاجة والعرف فما ان تستيقظ فيها عوامل الفكر والملاحظة وتشهد حقيقة الزوج الذى اكرهتها المقادير على التقيد به وكيف أنه لم يعد يحبها . ولم يعد يحفل بارضاء عاطفتها حتى تبدو لها الاسرة كسجن مظلم ضيق فتنزع الى حياة أخرى وتتطلع الى رجل آخر . وبما انها تحرص أشد الحرص على الا تفقد زوجها واسرتها ومركزها الاجتماعى المادى الوطيد فهى تعمل على ارضاء شهواتها فى الخارج وارضاء واجبها الزوجى فى الداخل فتألف النفاق وتعتاد المواربة والغش . وتوزع قواها بين مختلف الاهواء والميول فتصبح الاسرة وقد انحلت روابطها وتضعضع بنيانها فريسة شر الفواجع التى لايكفر عنها غير الاطفال الابرياء المساكين

ومما لايقبل الريب أن الفتاة التى تعيش فى كنف والدها وإخوتها وأقربائها لامهنة لها ولا مورد تضطر للنزول عن حقها فى اختيار الزوج . فهى لاستعبادها الاقتصادى مستعبدة من ناحية العاطفة أيضاً لاتستطيع أن تقترن بالرجل الذى يختاره قلبها . وهى لعجزها الاقتصادى تقيم المال أكبر وزن فتؤثر الزوج الغنى على الفقير وتضحى فى أغلب الاحايين بالاحساس الصادق والخلق الكريم فى سبيل النعمة والرفاهية

فالفتاة الثرية التى تربت تربية منزلية والتى يغنيها ثراؤها عن العمل تستعبد لتقاليد بيئتها وتدفع الى الزواج من الرجل الثرى

والفتاة المنتمية إلى الطبقة الوسطى تتطلب هى أيضاً الزوج الثرى فان فازت به اطمأنت الى المستقبل وإلا رضيت مكرهة برجل من طبقتها . وما دام زوجها على قيد الحياة فهى آمنة فاذا ما قضى تكفل بها أبناؤها أو أهلها أو ذهبت

تبحث عن عمل لا طاقة لها عليه ولا معرفة ولا استعداد وكثيراً ما تختار أهون السبل فتحترف الدعارة .

أما بنت الشعب فقد كانت على الدوام اسعد وأشق من اخواتها حظاً ومصيراً فهى اما أن تتزوج فيسرى عليها بعض ما يسرى على فتاة الطبقة المتوسطة ، واما أن تكون قد نشأت على العمل الحر ومارسته الايام الطوال فاعتادته ولم تعد تخشى المستقبل ، وأما أن يكون العمل قد أنهكها وأيأستها منه قلة الربح فأعرضت عنه وبهرتها مظاهر الترف فضعفت واستسلمت لجرفها هي الاخرى تيار الدعارة

ذلك ما كان يقع بالامس وما يزال يقع بين الشعوب المتأخرة حتى الآن . أما اليوم فالحضارة الصناعية قد بدلت كل شيء . ظهرت الآلات فاستغلها أصحاب رءوس الاموال وأرادوا أن يضاعفوا أنتاجهم ففتحوا أبواب المصانع لاكبر عدد من العمال والميكانيكيين فتضخم الانتاج وتنوع ، وبدأت المعامل تخرج أعجب أدوات الترف وأروع وسائل المتعة والنعيم

اخترعت الطيارات والدراجات والسيارات والسينما والفونوغراف والراديو فاحس الجميع أن قد تشعبت الملذات وتعددت الحاجات والمطالب وأن الانسان كلما ازدادت قدرته على الاستمتاع نمت فكرة الحرية فى النفوس وتعشقها الرجال والنساء على السواء

ولكن الظاهرة البارزة فى الحياة الاوربية والامركية اليوم هى أن الفرد حر فيما يتعلق بملذاته وملاهيه ولكنه فى الواقع عبد للعمل ونظامه

فاصحاب المصانع ـ اوربيين كانو أم أمريكيين ـ يجتهدون فى توزيع عملهم وتنظيمه تنظيما شاملا دقيقاً بحيث يستطيعون انتاج الاصناف « بالجملة » انتاجاً وفيراً يفرض استهلاكه على اغلبيات الشعب فرضاً

هذا النظام يحدد للعامل فى المصنع عمله ، وفى الاسرة ادوات منزله ، وفى الخارج ميوله واذواقه ، ولا يمنحه غير حرية التمتع المادى المحض . أى حرية الذهاب الى السينما ، وركوب السيارة ، وسماع الراديو ، ومخالطة أى الناس شاء

فالمجتمع الاوربى والامريكى اليوم يتجه نحو « النظام التجمعى » نحو تساوى المجموع وخضوعه فى دائرة العمل . وحرية الفرد واستقلاله فى دائرة الملذات .

وبما أن العمل هو الذى يأتى بالنقود، ويسهل حرية التمتع بأفانين الحضارة الجديدة، ويشعر الفرد بجدارته واستحقاقه، ويخوله حق الاستقلال بمنازعه ومشتهياته فقد رأت المرأة أنها ستفقد سلطانها على الرجل، وتفقد ثمرة الحضارة الناشئة، وتظل فى البيت مستعبدة، إذا هى لم تخرج للعمل كالرجل، وتأخذ قسطها من نعيم الحضارة ولو أدى بها الأمر الى النزول عن شخصيتها والاذعان للنظام السائد نظام العمل الصارم التجمعى. فالمرأة العصرية تهجر بيتها لتجد فى الخارج العمل والرجل معاً . . . وهى لم تهجر البيت الا لأن الرجل ينفق فى المصانع والمكاتب والرحلات والملاهى ضعف الساعات التى كان ينفقها فيها سابقاً . . . .

وعليه فاتصال المرأة بالرجل فى كل شىء . فى العمل واللهو . فى المصنع وملعب الرياضة، فى المكتب ودور السينما، فى الجامعة والمسرح، خفف من وطأة الحب القديم، بل أزال الحب القديم القائم على الغلو فى التحمس والغيرة والشهوة والشاعرية، وأحل محله الحب المتزن العميق بشعره البسيط الصادق. وزيادة على ذلك فقد ولد ذلك الاتصال بين الرجل والمرأة ضربا من الصداقة الصريحة النزيهة لم تكن مألوفة من قبل. فأصبحت الفتاة تفهم الشاب وتفطن لألاعيبه وتحذره وتقدره اذا استحق التقدير، واصبح الشاب يحترمها ويتهيبها ولا يجد فائدة من اتخاذ الاساليب القديمة فى استمالتها واغرائها. فهى اليوم تظل عانساً اذا شاءت الاحتفاظ بحريتها، أو تختار لها الزوج الذى تريد فان خاب أملها فيه طلبت طلاقها منه وعادت تباشر عملها، وقد تتزوج وتطلق ثلاثاً أو أربع مرات كما تفعل معظم النساء الامريكيات. وهذا ما يقلق المفكرين على مصير الاسرة، فبعضهم يلعن الحضارة ويقول أنها قتلت فكرة الزواج، والبعض الآخر يحمل على المرأة ويصرح بأن حريتها هدمت الاخلاق، وأنها مخلوقة متقلبة وحشية غريزية لاتحسن استخدام الحرية الا لتفوز بأوفر قسط من الرذائل والشهوات، والحقيقة — فى عرف لوسيان روميه — ان الحرية لاتهدم الاسرة والعمل لايهدم الاخلاق. وان المرأة التى لم تعد فى حاجة لرجل يعولها تظل — بحكم وظيفتها الطبيعية — نزاعة الى الامومة والزواج

ولكن التطور العظيم الذى وقع هو أن المرأة اليوم تقف موقفين واضحين : فهى اما ان تستغل الحرية فى سبيل الرذائل والشهوات . واما ان يكسبها العمل احساسا بالاباء والعزة فتقبل على الزواج مختارة وتحاول أن تبنى الحياة الزوجية على الحب الصادق والكرامة والاخلاص المتبادل ما دامت تشعر أنها لم تضطر الى تلك الحياة اضطراراً وانها انما اختارتها بمحض رضاها ، وانها ليست عبدة للرجل ، وان فى وسعها العودة الى العمل توا إذا لم تحقق فى الاسرة ذلك التفاهم الخلقى والعاطفى الصريح

فالاسرة الامريكية والاوربية اليوم قد تكون قصيرة الاجل ولكنها أقرب إلى الصدق والاستقامة مما كانت عليه فى أى زمن مضى والمرأة الحديثة الصالحة للعمل لاتجد فائدة فى خداع زوجها والكذب عليه والانصراف لشهواتها اذ ما عليها — لو أنها كانت فاسـدة الميول — الا أن تظل فتاة عانساً حرة مطلقة القياد

وهكذا قد خدم العمل الاسرة وأنقذ المرأة من النفاق فهى اما صالحة أو طالحة ، فاضلة أو متهتكة ، نزيهة أو غادرة . بعكس المرأة القديمة التى كانت تجهد خيالها المنحط وعبقريتها النسوية المستعبدة ، كى تقرن الفضيلة بالرذيلة ، والصدق بالرياء ، والوفاء بالغش ، والعطف بالازدراء والكراهية . احتفاظا بالزوج الذى يعولها والاسرة التى بدونها لا تستطيع أن تعيش !

ومن اجزل الفوائد التى عاد بها استقلال المرأة على المجتمع أن سلطان المال على الزواج قد ضعف وأن الشاب الغنى لم يعد فى وسعه التفاخر بامكان احتلال قلب أى فتاة ، وأن الفتاة التى تمارس مهنة ما تتروى وتراجع نفسها مرات اذا ما اعتزمت الزواج وخيرت بين فتى مخلص نشـط فقير . وبين أنانى عاطل ثرى

والمشاهد فى الحياة الغربية اليوم أن الشاب والفتاة يقيس كل منهما شخصية الآخر بعين مدققة ، يميز بين قوتها وضعفها ، بين عجزها عن الكفاح ومقدرتها عليه ، بين ثباتها على الحب أو استهتارها به ، وهـذا مايثبت دعائم الزواج ولا يجعله مغامرة إحساسية ومادية كما كان

فاذا كانت حوادث الطلاق — برغم ذلك — قد تضاعفت ، فالسبب لا يرجع إلى أن الزواج القديم كان أصلح من الزواج الراهن بل إلى أن الزوجة العصرية — التى لا تستبقيها فى الاسرة المزعزعة المتداعية عواطفها الدينية أو حبها لأبنائها ورغبتها فى التضحية بنفسها من أجلهم — تجد اليوم كافة الوسائل الشرعية التى تحررها من زواج فاسد ، وكافة الموارد المادية التى تكفل لها ولأطفالها حياة شريفة حرة لم تكن لتحلم بها فى العصور الماضية ! . .

ومن جهة أخرى فاندماج المرأة الحديثة فى مختلف فروع العمل ، واتصالها بالرجل ، واشتغالها معه جنباً إلى جنب ، قد هذب العاطفة الجنسية ولطفها ، واستل منها غلظتها الوحشية الأولى ، واستوضح خفاياها ، وردها إلى جوهرها الطبيعى البسيط ، فلم تعد ثمة أسرار جنسية تثير فضول الجنسين وتؤلب الواحد منهما على الآخر ، وتحيلهما شبه حيوانين مفترسين ، بل قد سقط القناع عن وجه كل منهما فتعارفا ورائدهما العقل والملاحظة اليومية المتيقظة

فالحب اليوم لم يعد كما كان بالأمس أعمى ، تحف به الخيالات وتكتنفه الاكاذيب ، بل هو بصير معتدل ذكى ، وليس المحب الجاهل المستعبد كالمحب المتحضر المتعلم الحر

ولرب معترض يقول ولكن زوال الفوارق بين الجنسين ، واختلاطهما فى معاهد العلم وأمكنة العمل ومعرفة الرجل بطبيعة المرأة والمرأة بخلق الرجل ، قد يجرد المرأة من غموضها الفاتن ، وسحرها القديم فيخنق شعر العواطف . ويقتل الحب . وهذا كلام صحيح فى ظاهره ، ولكن الواقع ينكره

اذ ليس الجهل بطبيعة المرأة هو الذى يكسب الحب قيمته الغالية بل هو الحياء . . .

والمرأة تدرك بسلقيتها تمام الادراك أنها لو نزلت عن حيائها لاصبحت هبة جسمها للرجل لاقيمة لها . ولعافها الرجل وازدراها واستهتر بلذة لا يكلفه الحصول عليها أى مجهود

فالحياء مقترن بغريزة المرأة هو الذى يسوق الرجل إلى الحب . إلى التعبير عما فى نفسه وايثار مخلوقة على أخرى إيثاراً قد يفضى إلى الزواج

واذن فلا محل للخوف على الحب من المعرفة المتبادلة ، ولا على الزواج من الاختلاط ولا على الأسرة من الحرية ومهما صرخ المحافظون فلن يرجعوا بالمرأة الحديثة الى الوراء

أجل . قد يفقد الزواج من تأثيره على مر الايام ، وقد تتبرم المرأة به ، وقد يندر وقوعه فى مجتمع نساؤه أحرار عاملات متعلمات ، يفهمن الرجل أكثر مما يجب ويحذرنه ، ومع ذلك فالزواج رغبة فطرية باقية . سيبقى الزواج ولكن عقلية طلابه هى التى ستتبدل ، والراغب فيه سيجتهد قبل كل شىء فى ألا يخدع من شريكه وذلك بأن يتجنب هو أيضاً خديعته فيستقيم بنيان الأسرة على النزاهة والصراحة والصدق وهكذا يكون تحرير المرأة وارتقاؤها قد ارتقى بالجنسين معاً : المرأة والرجل !

العبقرية والحب

ذكريات مدام جورجيت لوبلان

Souvenirs de Mme Georgette Leblanc

بعض خصائص العبقرية

يحار العقل العادى فى ادراك سر العبقرية ونظامها . وهل تسرى عليها القوانين والمصطلحات التى وضعها علماء الاخلاق والمتشرعون ، أم هى عنصر من عناصر الطبيعة الجامحه ، وقوة تحمل فى تضاعيفها قانونها الخاص الذى يهزأ بكل عرف وقانون ؟ . .

ان من أظهر صفات المجتمعات البشرية حبها الجمود واخلادها الى الراحة والسكينة ، واعتيادها العيش فى ظل التقاليد . وتبرمها بالجهود الكبيرة التى لابد يتكلفها الناس اذا ما نزعوا الى التجديد أو أقدموا على الطفرة

لذلك هى تنفر من كل متطرف وتعطف على كل معتدل

تطمئن لاشباه المفكرين ذوى العقول المترددة والاعصاب الباردة ، وتخشى العباقرة ذوى الاذهان الوثابة ، والمخيلات الحارة المدمرة

تعترف بالفئة الاولى ، وتزهو بها ، وتمنحها المجد والمال ، وتجحد الثانية وتنكرها وتضطهدها وتفرض عليها الصمت والذل والجوع !

والسبب فى هذا هو أن لكل عبقرى صحيح مثلا أعلى . يتعصب له ، ولا يتسامح فى تطبيقه ، ويحيا لاجله ، ويكافح فى سبيله ، ويرتضى الموت عن طيبة خاطر للذود عنه !

والمجتمع يكره المثل العليا وأصحابها لشعوره بالفارق العظيم بين مقياس جهده ، ومقياس جهد العبقرى . بين ما يطالبه به العبقرى من قوى هائلة لتحقيق المثل الاعلى ، وبين ما يستطيع المجتمع القيام به . . .

على ان المجتمع مستعد لتقدير المثل العليا ، ولكن متى اقتنع بها المعتدلون على مضى الزمن ، وأثبت لخصهم المتلكىء البطىء انها صالحة ، ثم شرعوا فى تحقيقها بعد أن يكون الداعى اليها قد قضى شهيد عنادهم وغبائهم وضحية كسل الاغلبيات وجمودها — عندئذ يشاد بذكره ، ويقر بفضله ، وتنشأ باسمه المشروعات وتنصب له التماثيل ، وهكذا يصبح المجد أو يمسى — كما قال بلزاك — شمس الموتى !.

فسواء أكان العبقرى مصلحاً أم فيلسوفاً أم شاعراً أم قصصياً أم فناناً فقوام خلقه الوثبة والاستحداث والتجديد ، مع الايمان بنفسه وبصواب مايدعو اليه

وهو لايجدد فى العرض بل فى الجوهر ، ولا يستحدث فى الفروع ، بل فى الأصول . ينبذ التقاليد ظهرياً ، وينفض عن كاهله عبء القرون ، ويتقدم عصره ، ويرسم للانسانية طريق المستقبل !

وبما أنه يتقدم عصره فهو إذن يرى مالا يراه عصره . وقد تكون العلوم والفنون مزدهرة فى عهده ، ولكنه يجتازها غير محتفل ، وفى أخذة من أخذات النفس ، وبارقة من بوارق الاشراق الروحى ، تقع بصيرته على الفكرة العميقة الخصبة ، أو الاصلاح الاجتماعى الثورى ، أو الطابع الفنى الطريف ، أو الاستكشاف العلمى الخطير ، مما ينفق غيره من النبغاء العاديين اعمارهم فى سبيل الوصول اليه عبثاً . .

اذ العبقرى غريزة والهام ، والنابغة ارادة وصبر ودأب . الاول يبتكر ويخلق حراً ، لان عمل الطبيعة الممثلة فيه ان تبتكر وتخلق حرة ، أما الثانى فيمثل المجتمع ، يحترم الماضى ، ويهتدى به ، ويلم بجميع مخلفاته ، ولا يبتكر الا فى دائرته ، وفق روحه السائدة ، وأساليبه المقررة فى البحث والتفكير . .

ولا يجب أن يفهم مما تقدم أن العبقرية الفذة هبة عاطفية محضة ، وان مركزها فى الغريزة والعقل الباطن فحسب وانها قد تستغنى عن الثقافة اطلاقا ، كلا . انها على قدر ماتنهل من موارد الثقافة العامة يتسع مدى بصيرتها وتترامى آفاق تجديدها . لذلك نحن لا نعرف عبقرياً أصيلا خشى أو يخشى من الثقافة على مواهبه الخاصة ، بل المشاهد على النقيض أن العبقرى أشد الناس إصابة بالشره

العقلى ، يستوعب الثقافات ويهضمها مهما اختلفت وتعددت ، يفتق بها خصائصه ، ويشحذ غريزته وعقله ، ويقف على مخلفات العصور ليضيف اليها ما توحى به ملكاته المستقلة الخالقة !

* * *

أنانية العبقرى

ولكن كيف يعيش العبقرى ؟ كيف يفكر ويخلق ؟ بل كيف يلهم ويحب ؟ إن لكل عقل كبير مزاجه الخاص . وعاداته وطباعه ، وميوله واهواءه ، والحوادث التى مر بها ، والاحساسات التى صادفها ، غير أن الملاحظ بالرغم من هذا ان هناك ظاهرة عاطفية أساسية يشترك فيها العباقرة جميعاً ويعرفون بها ، وهى الانانية !

وأنا سأحدثك أيها القارىء عن مأساة فكرية ووجدانية احدثتها أنانية عبقرى . سأحدثك عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائى البلجيكى موريس ماترلنك وعن حياته الخصوصية واسلوبه فى التفكير والابتكار . وغرامه العظيم بالمرأة العظيمة التى استوحاهافنه وفكره مدام جورجيت لوبلان . فلقد تحابا ، وتفاهما . مدى عشرين سنة ولكنهما اختلفا فعاد الرجل الى وحدته . وعادت المرأة الى سابق حياتها ولانها الآن وقد هفت نفسها الى غرامها الكبير ترجع بذهنها الى ايامها الرائعة وتستنبش ماضيها وتقص علينا ذكرياتها فى كتاب أثار ضجة عظيمة فى الاوساط الادبية فى اوربا كلها

ونحن لم نقصد بتحليل هذا الكتاب وتلخيصه ان نسرد حكاية غرامية لذيذة بل نحاول النفاذ الى جوهر شخصية عبقرى .وان نفهم ماقيمة الحب فى نظره وهل فى وسعه ان يجمع بين حب المرأة وحب العمل الادبى ، أو ان يضحى فى سبيل المرأة ولو بجزء من العمل الادبى . وهل فى مقدوره ان يحبها لذاتها وان يحترم كيانها المستقل ، وألا يسطو على افكارها وارائها وإحساساتها ونظراتها فى الناس والحياة فيسلبها إياها ويدعيها لنفسه ويحولها الى مادته الخالقة وعمله الادبى ؟.

كما أننا سنجتهد فى بحث شخصية أمرأة ممتازة لندرك الاسباب والدوافع التى

حملتها على هوى العبقرى . وما اذا كانت أحبته حقاً ، وما اذا كان فى وسع أية أمرأة أن تحب عبقرياً ، وما إذا كان العبقرى يأبه للحب والعواطف ولو كان أديباً أرصد حياته على رسم العواطف والتغنى بالحب !

* * *

موريس ماترلنك شاعر رمزى ، وكاتب صوفى . شعره مقطوعات رقيقة عذبة ، وحكايات ساذجة بريئة يرمز فيها الى قوى القدر الخالدة كالحب والبطولة والايمان والتضحية والموت وآثارها فى سحر الحياة وتجميل معناها وتقديس غاياتها ، والسمو بالانسانية ولو على انقاض نفسها

وهو ناثر بليغ تسترعيه أدق الميول وتستهويه أخفى الاحساسات الكامنة خلف ظلمات الواقع فيقبل عليها ، ويتأمل فيها ، تأملا صوفياً عميقاً من حيث علاقتها بالأبد واتصالها بجوهر الطبيعة الذى لايتبدل

فهو لا يرسم عواطف الفرد بالنسبة الى نفسه بل عواطف الفرد والمجموع بالنسبة الى الازل ، وذلك هو مظهر العبقرية الصحيحة التى لاتستوقفها الاعراض الزائلة بل نطل على الحياة الكبرى فتندمج توآ فى قوانينها الثابتة ومادتها الأولى وأصلها الآلهى

وان درامات ماترلنك (كبلياس ومليزاند) و (البرنسيس مالين) و (اجلافين وسليزيت) ورسائله فى طباع (النساء) وفى معنى (الصمت) و (أدب الصوفية) و (الروح الفاجعة فى الحياة اليومية) وغيرها لتدل أبلغ الدلالة على أن الرجل لا يكتب متجه البصر نحو عصره بل مشرئب الفكر والخيال نحو الحياة الانسانية الكاملة

* * *

وكانت جورجيت لوبلان قد سمعت باسمه ، وطالعت مؤلفاته الأولى ، وأعجبت بها أشد اعجاب وتمكن منها أسلوب ماترلنك ، وفنه القائم على مزج الحقيقة بالحلم . والشعر بالفلسفة . فاحبته . احبته دون ان تراه ، أحبت فيه الشاعر الذى استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها . عن خلجات صباها ومطامح نفسها ،

أحبت فيه خياله الرائع . ومختلف الصور الذى أبرزها هـذا الخيال . أحبت فيه ماكان ينقصها وما أحست أنها لو استولت عليـــه لاكتملت شخصيتها غاية الاكتمال .

وكانت فتاة فى العشرين ، على جمال رائع ، مغرمة بالازياء الفنية الغريبة ، مفتونة بالعواطف الانسانية الـكبيرة ، خيالية النظرة الى الحياة ، تلتمس الشعر فى كل شىء . وتؤثر الشعر على كل شىء ، نزاعة الى الحرية ، تواقة الى المجد . شغوفا بتمثيل أدوار بطلات الحب والألم والثأر والتضحية على مسرح الواقع ، ملتهبـة الاعصاب . فوارة المزاج ، متطرفة الميول ، على شىء كبير من النبوغ فى الـكتابة والأدب مثقفة ، ذكية ، خليعة فى تحفظ ، طائشـة فى اعتـدال ، تهوى الموسيقى والتمثيل ، وتعمل على أن تصبح ذات يوم مغنية وممثلة فذة شهيرة

هذه المخلوقة العاصفة رأت فى فن ماترلنك من الهدوء ، والرصانة ، والتأمل ، والحلم مااستهواها واشعرها بان لاسلام الا هنا . ولا استقرار ولا أتزان ولا اكتمال إلا بقرب هذا الرجل العجيب !

قدمت اليه فى حفلة . فما أن أبصرها حتى أحس هو الآخر بان ماينقصه ممثل فيها . واجالت فيه طرفها الفاحص . فشاهدت رجلا مديد القامة . صاب العود ، عريض الـكتفين . مفتول الذراع . له نظرة محجبة بعيدة ، وقسمات جافة . ويدان غليظتان كايدى الفلاحين ، منـكمش ، وجل ، خجول . صموت !

راعها منه شبابه . وقارنت بين رقة فنه وقوة عضلاته فاعجبها هذا التناقض وأثار حاسة الفضول فيها وأخضعها

وتبودلت بينهما الزيارات . وذهل ماترلنك لهبوط هذه المرأة الفجائى به . هذه المرأة الولوع بكل عظيم وجميل ، المرأة التى تقصد المتاحف وتقف برسـوم أكابر المصورين ثم تفصل أثوابها على مثالها وتضرب فى شوارع باريس غير محتفلة وعليها وشائح الملائـكة التى رسمها (جوزولى) و (فرا انجليـكو) و (بورن جونس) واضرابهم

المرأة التى اذا خطرت فـكأنها أميرة من أميرات عصر النهضة أو عـذراء

فاتنة من عذارى السماء . أو المثل الحى لما يجب أن تكون عليه عروس الشعر الملهمة المبتغاة !

اطمأن اليها ماترلنك واستحكمت الصلة بينهما وبدأت حياتهما الجديدة ملحة نادرة من ملح السعادة . بل معجزة من معجزات التفاهم والسلام

كانت تحنو عليه حنو أم على ولدها . تسهر على راحته . تكلؤه بعين عنايتها تسهل له سبيل العمل ، تتعهد شؤون البيت . تخلق له الجو الذى يعبـــده ولا يستطيع بدونه أن يفكر ويكتب : جو الصمت ، الصمت الشامل العميق المحاط بالالغاز . الصمت الداوى بحمى التأمل . الصمت الذى كانت تفهم جورجيت أسراره وكنوزه وتحدث عنه الشاعر فى رسائلها وتسوقه إلى بحثه وتحليله وتمزيق الحجب عن غوامضه

وكان عقلها النابه يمطر الكاتب أغرب الأفكار . وأدق الملاحظات . وأعجب الحقائق فى غير ما كلفة أو عنت

أما هو فقد كان مشدوها بها لايعرف كيف يخاطبها . أو يتودد اليها تودد الذكر للانثى . أو يعبر لها عما تكنه نفسه فى عبارات ملتهبة كمزاجها كان يقف بها وقفة المتفرج المأخوذ يستمرىء احاديثها ويعب فى فيضها . يروى به قلبه وعقله . وهو مغرق فى صمته . راسخ فى هدوئه منطو على نفسه . يخشى الكلام لئلا تتبدد افكاره . ويخشى اظهار الحب لئلا ينمو الحب ويصبح شغله الشاغل فينصرف اليه ويهمل واجب الفن والادب والانتاج ! . . غير أنه فى رسائله اليها كان يفرج عن نفسه ويستفيض فيقول :

« بى خوف من رؤيتك ثانيا . على أنى لا اتمنى غير هذا

« انى اخاف على حبنا أن يموت من جماله نفسه . كل شىء يقع لنا جديد وغير منتظر . لم نتخيله لا فى الحلم ولا فى الحياة . »

وكانت تقول هى فى رسائلها :

« انى ارغب فى سعادتك قبل كل شىء . أرغب فيها ولو تعارضت مع سعادتى . مذ عرفتك اثرتك على نفسى . لانى لا احب الا الخير الذى استطيع أن أفعله ولقد ادركت ان فى وسعك فعل الخير أكثر منى ! . . .

«انى احبك كما يحب الله ياموريس . أحبك كامرأة حقيقية فيها الكفاية من الألوهية كى تحب الها ! » وأيضا :

« ان حبنا ليس كحب الآخرين . ليس زهرة صغيرة غرستها شهوتان . زهرة تنبعث من الارض وتتجه نحو الشمس ثم تنحنى وتموت . انه نفسه أرض وسماء وطبيعة ! »

ولما أن كان يبلغ بالشاعر الاعجاب مبلغه كان يكتب للمرأة التى لم يكن يرى فيها غير رمز الوحى والكمال هذه العبارات :

« لم أر حتى الآن فى أية رسالة من رسائلك جملة غير حية . جملة لم تحي فيك وهذا لا يتأتى الا للارواح ذوات النصوع التام ، للمخلوقات ذوات الحقيقة العميقة والنور النقى . وهذا فى عرفى أعظم مميزاتك بل هو السبب الذى يخيل الى أنى أحبك من أجله فى جنون

« يبدو لى أنك من أشد الكائنات حياة

« أنت مخلوقة من حياة ونور

« كل ما تمسينه بيديك يصبح نوراً

« ليس فى وسعى أبداً أن أردد فى قوة كافية كل ماعلمتنى اياه ! »

كان ماترلنك يكتب هذه الكلمات ولكنه لم يكن ليفوه بمثلها ... كان يبدى من الحب فى رسائله أضعاف مايبديه فى حديثه ومظهره ... كان من السهل عليه ان يحلق فى سماء الشعر ويتمثل جورجيت ملكا كريماً ويناجيها ويقدسها ويتسامى بنفسه اليها ، فاذا ماهبط إلى الارض وشاهد المرأة أمامه مخلوقة من لحم ودم ، انعقد لسانه ، وفارقته شاعريته ، واستولى عليه الصمت ، وعامل جورجيت كما يعامل أى انسان ! .. لم يخاطبها يوماً بنفس العبارات الملتهبة التى كان يضمنها رسائله اليها وهو قابع فى زاوية مكتبه يفكر ويتأمل . كان أحب اليه أن يؤلف من غرامه قصيدة شعرية شائقة على أن يحيا هذا الغرام . كان أحب اليه أن يذكر حبها وهو بعيد عنها مخافة أن تستأثر به . وتتسلط عليه وتحرمه الاستمتاع بجمال غير جمالها . وكأنما كانت خطاباته اليها نفثات يرسلها إلى كائن فى عالم الخيال لا الى

امرأة ذات جسم وروح . كان ماترلنك محمياً فى حصن صمته ، سابحاً فى ضباب فكره منصرفاً إلى عمله . يحذر فتنة عشيقته ويقاومها ، يفرغ من الكتابة فلا يهرع الى المرأة يلتمس فى أحضانها القوة والسلوى بل يطوف بارجاء البيت ، أو يلهو فى الحديقة كطفل يقطف الثمار ويروي الازهار ويقوم اعوجاج الشجيرات ، أو يتمطى ويأخذ فى القيام بعدة تمارين رياضية ، أو يصلح أدوات المنزل كنجار

وحتى فى تلك الساعات العذبة . فى تلك الساعات الفريدة لما ان كان يخرج وجورجيت إلى النزهة كان يحتفظ بصمته أيضاً . فيعلق على الأشياء والأشخاص بابتسامة أو كلمة . يرى المنظر الجميل فيمنحه نظرة عابرة ثم يفر منه توا فتستوقفه المرأة وتتشبث به وتود أن تتذوق هـذا الجمال طويلا برفقته ولكنه يتأفف ويقول لها : « يجب ألا نستنفد الجمال أبداً . . ! » ثم يمضى فى سبيله غير محتفل

كان مقتنعاً بالجمال الذى سوف يخلقه هو . كان يتجنب الافراط فى مشاهدة الطبيعة لئلا تشوش عليه خياله أو تشعره بعجزه عن تصويرها أو عن اضافة جمال فنه الى جمالها . . .

وهكذا اصطدمت جورجيت بشخصية العبقرى الخفية وأدركت بسليقتها أن الفضائل التى أحبته من أجلها هى التى قد تهدد فى النهاية هذا الحب وتقتله

أحست به على حقيقته . رجل متبرم متجهم مستوحش نفور يتذرع بالصمت لالينمى فى نفسه احساسه وفكره فحسب ، بل ليقصى عنه فضول الآخرين . ليقيم سداً منيعاً بينه وبين عواطف الآخرين ليطرد عنه أفراح الناس واتراحهم فلا تعكر عليه مجرى العمل الأدبى العظيم

العمل الأدبى ! أجل ذلك هودينه وغرامه وواجبه ! انه يسيل فى قصصه حباً ويعز عليه أن يلقى جورجيت بعبارة حب قوى واحدة !

انه يدخر الحب والعطف والرقة والحنو وسائر الانفعالات للعمل الأدبى العمل الأدبى الذى هو فى نظره كل شىء

ولو أنه شعر فى بدء العلاقة بأن حبه لجورجيت هو الحب العميق الصحيح ، الحب الذى لن يخمده العمل أو يفنيه النظام . والذى لا بد مقترن بالمظاهرات

العاطفية وما يعقبها من فوضى العمل والانتاج ، إذن لما تردد لحظة فى اقصاء هذه المرأة عنه وخنق العاطفة فى صدره ، والالتجاء إما الى الدعارة واما الى التصوف كى يستعيد هدوءه ويستطرد العمل الأدبى فى طمأنينة وصفاء

كلا .. انه لم يحب حباً انسانيا صادقاً . لم يحس لا بالقلق ، ولا بالحيرة ولا بضرورة وجود حبه الى جانبه . ولا بألم الفراق ، ولا بعذاب الغيرة ، ولا بنعيم الشهوة وجحيمها

لقد كان يحتقر كل هذا ويمقته ، يحاربه فى نفسه وفى سواه ، ويجتهد فى ان يطهر خليلته منه . وبما انها كانت قد تورطت فى علاقتها به ، وكانت تود ان تمنحه السعاده اللازمة للعمن ، وتتوق لازدهار خصائصه الخالقة على يديها ، وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثيروحيها ، فقد أطاعته طاعة عمياء ، وكبحت جماح عواطفها لما يريد ، والتزمت الصمت مثله ، واعتادت العيش وفق هواه ، بلا حب انسانى صحيح ، ساكنه هادئة عاقلة ، آلة مسخرة لخدمة العبقرى !

وكانت سعيدة بذلك لاتشكو ولا تتململ ، لاتفكر فى حاجاتها الخاصة قدر ماتفكر فى حاجة الشاعر اليها ، تنصح الخادمة بتخفيض صوتها والتمهل فى سيرها تصرف الدخلاء والمستطلعين ، تمشى على اطراف قدميها ، تفتح الابواب وتغلقها فى رفق مخافة ان يفزع العبقرى فيكف عن العمل فيذهب جهد اليوم هباء !...

ولكى تشبع إحساسها الفنى ولا تحمل الكاتب عبء الانفاق عليها ، التحقت بالمسرح الغنائى وجعلت تمثل فى الاوبرات الكبيرة وظفرت بالشهرة والمال هى أيضاً . غير انها قدست نفسها فى النهاية لخدمة الشاعر . فكتبت البحوث عنه ، وطافت بمختلف العواصم تلقى المحاضرات عن أعماله ، ثم تخلت عن المسرح الغنائى وانصرفت الى تمثيل روايات ماترلنك — من مؤلفة ومترجمة — كـ (مونافانا) و (مريم المجدلية) و (مكبث) وغيرها

وقد يتساءل القارىء ماسر اخلاص هذه المرأة للكاتب فيخيل اليه انه الحب العظيم يحفزها للبجد والتضحية ، نعم ولا . ان جورجيت كانت تحب موريس

ولا تحبه ، تحب الصورة الشعرية التى صاغها منه خيالها ، تحب أسلوبه وفلسفته ، تحب جو الادب العالى وما فيه من نزعات شاذة ، وتصورات خارقة وتأملات سامية ، وألوان جمال طريفة تخلقها نزوات الغرائز والميول والأحلام

هذا ماكانت تحبه فيه . وهذا ماأخلصت له من أجله ، وما أنكرت ذاتها لاحيائه فى عمله ، ولكنها كانت امرأة ، وكانت فى حاجة إلى حب آخر ، حب تقترن فيه مطالب الروح بمطالب الجسد ، وكانت مستعدة لمبادلة ماترلنك هذا الحب لو أنه نزل بعض الشيء عن عبادته للأدب ، ونظر اليها نظرة هوى بشرى صحيح ، ولكنه أعرض عن احساسها النامى ، وأحبها كطيف من أطياف الجمال والفن ، واستخدمها كاداة وحى فقط ، فارتدت عواطفها إلى اطواء نفسها وظلت تتجمع هناك وتتربص ثم انطلقت فبددت خيالها ودمرت حلمها الجميل تدميراً !

وكان العبقرى فى هذه الأثناء يستغل حسنها وصباها وذكاءها . يستنبط الهاماته من وجودها الفنى الرائع،يستبيح أفكارها وأدبها ، ترسل اليه الخطابات فيستملح منها بعض الخواطر العميقة فلا يتردد فى الاستيلاء عليها ، ومزجها بمادته، واخراجها فى كتبه كأنها من بنات فكره الخاص .

ان (الحكمة والقدر) و (كنز المتضعين) و (اجلافين وسيليزيت) كل هذه المؤلفات فيها من آراء جورجيت وخواطرها ما انتفع به الكاتب وعرف كيف ينسبه لنفسه ويطبعه بطابعه ، ومع كل هذا فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذى كانت تشتهيه ، لم يشفق عليها ، لم يرحمها ، لم يعترف لها بجميل

وما ان تقدم فى السن ولاحت فى جو كهولته فتاة فى السابعة عشره — كانت قد مثلت دوراً صغيراً فى إحدى رواياته — حتى فتن بسحر شبابها ، وبدا له كأن فى وسعه تجديد عقله واحساسه على ضوئها ، فرحب بمقدمها ، وأنزلها من داره منزلة الصديق المنقذ ، وجمع بينها وبين الأخرى فى بيت واحد ثمانية أعوام ، ثم جعل يستمع لوشاياتها ، ويغض الطرف عن دسائسها ، حتى انتهى به الأمر الى الاذعان لها والتزوج منها والانفصال عن جورجيت لوبلان !

. وبعد ان كانت جورجيت كل شيء فى حياته أصبحت لاشيء . بعد ان كانت المعبودة الملهمة أصبحت المرأة المنبوذة التافهة . المرأة التى هدم القضاء هيكل حبها وشردها وسلط عليها أشباح الفقر والخيبة والشيخوخة تطاردها وتسمم آخر ما بقى من أيامها !

وهكذا قدر على مخلوقة ضعيفة ملتهبة الخيال ، حادة المزاج ؛ ساذجة القلب والعقل ، أن تقع بين مخالب عبقرى اعتصر حياتها . وامتص كل ما فيها من شعور متوثب . وفكر وقاد . ثم بجتها نفسه فالقى بها فى عرض الطريق دون ما رحمة أو تبكيت ضمير !

ولكن من السبب فى هذا ؟ وهل الذنب فيما أصابها ذنب ماترلنك ؟ وهل لنا أن نتهمه بالشر المتأصل والجحود الفطرى والقسوة المتعمدة ؟ . . وهل لنا أن نحكم عليه؟

كلا . أنها العبقرية تعيش لنفسها فقط لالصاحبها ولاللاخرين ! وما العبقرى إلا نصف إله لايستطيع ان يخلق الا اذا سلب ! يأخذ من الطبيعة كل ماتصل اليه يداه ليرده اليها أصفى جمالا وأمتع لذة وأوفر غنى !

وبما أنه يعمل للخير العام ، ويحترق ، ويضحى بذاته فى سبيل الانسانية فهو يستحل تضحية غيره فى سبيل الانسانيه أيضاً . لذلك هو يهزأ بأقدس الروابط وأنبل الاحساسات متى شعر أنه قد استنفد عصارتها وفاز بنصيبه منها وأنها قد تصبح ذات يوم عقبة كوءوداً فى طريق ذهنه الطامح إلى مواصلة التجدد ومواصلة الانتاج !

فهو يحب الانسانية ، ولكن كفكرة ، كمجموع ، وكثيراً ماينفر منها ويكرهها اذا ما تمثلت فى فرد مهما كان محبا ومهما كان محبوبا ، اذ الفرد يقيد العبقرى ، و د محيطه الفكرى ، ويغله بالفروض الاجتماعية ، ويشوه بنقصه مثله الاعلى ، ويستأثر بذهنه ويصرفه عن العمل

فالفرد اذن أنانى . والعبقرى يعرف ذلك فيقابله أنانية بأنانية ! . .

ولكن أنانية العبقرى — بالنسبة الى الغرض العظيم الذى تسعى اليه — قاسية فظيعة وحشية . فهى التى أشعلت المأساة بين ماترلنك وعشيقته ، وهى التى قبضت على المرأة المسكينة بأيد من فولاذ وأخضعتها ثم شرعت فى تعذيبها واستغلالها مدى عشرين سنة كاملة !

نظرات فى العالم الحاضر

Regards sur le monde actuel

تأليف بول فاليرى عضو الاكاديمية الفرنسية

بول فاليرى شاعر قبل كل شيء لايستلهم الطبيعة بغريزته فحسب . بل بعقله المتوقد أيضاً

فالعواطف البشرية تبدو له مضطربة مشوشة سابحة فى جو من الظلمات . فيقبل عليها مستعينا بفنه يبدد به ظلامها ويقر فى جوانبها النظام . والفن فى عرفه مجهود عقلى يشرف على الاحساس ويسوده ، ويكبح الأعصاب ويهديها ، ويوزع الاضواء والظلال ويضبط النسبة بين الخيال والواقع ، ويحفظ التوازن بين ظلمة الغريزة ونور العقل

وليس معنى هذا أن تزاحم العواطف واختلاطها وتضاربها وفوضاها لامحل لها فى شعره بل هى قائمة تعصف بالقصيد كما تعصف بالحياة . ولكن من خلال حدود مرسومة ، وخطوط دقيقة ، وأوضاع متناسبة متسقة تشعرك بان هذه الطبيعة الجامحة قد تراخت وخضعت للفنان الذى أحس قواها الغامضة بفطرته النيرة واستطاع ان يروضها بعقله الجبار

ومن هنا كان بول فاليرى شاعراً وفيلسوفا ورياضيا يسمو بشعره فى بعض الأحايين الى أوج يخيل اليك وأنت محلق فيه انك تستمع الى شاعر جمع فى نفسه اضطراب القرن العشرين وصفاء الروح الاغريقية واتزانها !

* *

وشاء هذا الرجل أن يهبط من سمائه الى أرضنا وان يهتم بمشكلات العصر الحديث ، بالتاريخ والاجتماع والسياسة ومصير أوربا وحضارتها ، فوضع كتابه الاخير المسمى « نظرات فى العالم الحاضر »

ولم يشأ أن يكتب فى هذه الموضوعات بحثا مستفيضا يلم فيه بالدقائق والتفاصيل ويعرضها فى أسلوب مضجر ثقيل كأساليب معظم العلماء والباحثين ، بل آثر الخطرات الصغيرة التى تسجل الفكرة العارضة والاحساس الطارىء ، وما أحدثاه من هزة عميقة بعيدة التأثير . وكأنى بالشاعر لم يستطع ، حتى فى حديثه عن مشاكل المجتمع ، ألا أن يكون شاعراً . فجاءت خواطره أشبه بمقطوعات شعرية فيها من اللمعة والموسيقى ودقة الفكر مايفتن الفنان والعالم معاً

ولقد كدت ألخص هذه الخواطر فى دراسة عادية ، ولكنى راجعت نفسى ورأيت ان الدراسة تستلزم شيئاً من المنطق والتسلسل والحبك والانسجام ، فخشيت أن أخون الرجل وأزيف على القراء طابعه ففضلت أن اتبع طريقته وانقل صفوة خواطره فى أسلوب الخواطر نفسه

نحو سياسة أوربية جديدة

يكاد لم يبق فى العالم ركن لم يكتشفه رحالة ولم تقع عليه عين الانسان المحتضر

لقد استطاع هذا الانسان أن يقيس أجزاء الدنيا ، ويهتدى الى قوانين حركتها ، وينبش كنوزها ويستغلها أتم وأوفى استغلال . .

فهو بذلك قد ضاعف علمه ونشر قوته وسلطانه . وأحس بعظمته تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم

ولقد كان العالم منقسما فيما مضى الى كتل يناوىء بعضا بعضا . وكانت السياسة قائمة على الامعان فى فصل هذه الكتل . وتأليب بعضها على البعض الآخر . أما اليوم فقد ترابطت المصالح والاقطار ، وأصبحت السياسة القديمة مضطرة بحكم هذا الانقلاب الى تبديل أساليبها ، والنظر الى العلاقات الدولية كأشياء معقدة متشابكة ، والى العالم كوحدة كبيرة . بل كجسم حى لايلبث أن يصيب الداء عضواً منه حتى يحس بالألم الجسم كله

والفضل فى هذا الانقلاب يرجع الى العلم والصناعة بوجه عام والى أوربا بوجه خاص . فقد أسست أوربا عظمتها على اكتشاف القوانين والطرائق التى سمحت للانسان بمعرفه أسرار الأرض وامتلاكها

ولكن الظاهرة الجديدة التى لاحت فى الافق الآن هى أن العلم الحديث الذى مابرحت أوربا تسهر عليه وتنظمه وتضيف اليه كل مستحدث طريف تتمخض عنه عبقريات أبنائها ، هو بطبيعته كالسائل المتمدد ، بل هو قوة تحمل فى تضاعيفها خصائص الذيوع والانتشار ، قوة لاتخاطب الاحساسات المتمايزة ، والأمزجة المتباينة ، والوراثات العاطفية والدينية المختلفة — كما يفعل الفن الذى قد يعسر تقديره وفهمه على بعض الشعوب المتأخرة — بل العلم قوة تخاطب العقل وحده. وقوانين العقل منطقية تطبيقية رياضية محضة من السهل ان يتفق عليها الكل ويعتنقها الجميع نظراً لفوائدها العملية السريعة الظاهرة

فاوربا قد أوجدت العلم الحديث ، ولكن هذا العلم قد شاع واستولت عليه قارات أخرى تمتاز بوفرة عدد سكانها ، وغليان دم الشباب فيها ، ونزعتها المباغتة الى التحرر والنهوض ، واستعدادها لاستخدام أسرار العلم فى سبيل الانتقاض على أوربا وهدم عظمتها وسلطانها

وأبلغ مثال على ذلك ما نشاهده اليوم من سيطرة أمريكا الاقتصادية على أوربا. ويقظة الشعوب الاسيوية كاليابان أو الروسيا على دوى المعامل والآلات ، وكفاح البعض منها كالهند والصين مثلا لتثبيت دعائم استقلالها الاقتصادى والفوز باستقلالها السياسى ، ووثبة معظم أمم الشرق الأدنى وأخذها باسباب الحضارة الاوربية وسعيها المطرد الى التغلب على مستعمريها ، والظفر بحقها فى الحياة والحرية

فواجب أوربا والحالة هذه — اذا ما رغبت فى البقاء — أن تجتهد فى احداث انقلاب فى خططها السياسية يتلاءم والانقلاب الذى أحدثه العلم فى العلاقات بين مختلف الأمم

عبث التاريخ

مما لا يقبل الريب أن العقول المصرفة إلى التفكير فى الغد إنما ترى الحاضر على ضوء الماضى وتهتدى بحوادث التاريخ لمعالجة شؤون المستقبل

وهذا هو الخطر

إذ ليس هناك أى فارق بين التاريخ يكتبه مؤرخ كتاسيت أوميشيليه أوفنان كشكسبير أو بلزاك .

التاريخ نقل وسرد وفن . وبقدر ما يكون المؤرخ رشيق العبارة ، فاتن الاسلوب ، بقدر ما يؤثر فينا ، ويقنعنا بحقيقة الوقائع التى يرسمها

على أن فى حوادث التاريخ معجزات يقف عندها المؤرخ حائراً لا يعرف لها سببا ولا تعليلا وهذا ما يرغم القارىء على الاشتراك فى التاريخ بنفسه وتفسيره وفق هواه . وتقرير ماهو حقيقى منه وما هو خيالى . . .

والمدهش أن يكون التاريخ فنا متعلقاً بفكر المؤرخ وعاطفته ومزاجه وأسلوبه ، وبشخصية القارىء واحساسه وميوله ، ثم نتخذ منه أداة للحكم على الحاضر ، ونسترشد بسير حوادثه وتطوراتها وتفاعلاتها لتنظيم المستقبل

والواقع أنه لم تعد ثمة علاقة وثيقة بين الماضى والحاضر

وهب أن فلسفة التاريخ القديمة كانت صحيحة فهى قائمة على نظرية أن العالم كتل متفرقة مختلفة المصالح لا تنفك تتنابذو تتناحر فى حين أنه اليوم وحدة اقتصادية إن لم تطبق عليها فلسفة غير تلك اصابها الانحلال والموت لا محاله .

والمشاهد فى أوربا أن عواطف ساستها واطماعهم انما تنشأ من مطالعات التاريخ ، وذكريات وقائعه ، والرغبة فى تطبيق قوانينها العتيقة على دنيا جديدة لا تمت اليها بأية صلة

والسياسى الاوربى اذا ما عرض له حادث خطير لا يفكر فى أن هذا الحادث فريد فى نوعه وانه يرتبط بعدة حوادث لم يعرف التاريخ لها شبيها . وانها تتطلب حلا مبتكراً جديداً . لا يفكر فى هذا ، بل يرجع بذاكرته الى ماوعته من محفوظات التاريخ يستهديها الفكرة والعمل ، هاربا من الابتكار والخلق ، متجنبا مقابلة الحادث الجديد بحل جديد من نوعه يبتدعه ابتداعا ويوفق بينه وبين مطالب الساعة

وهكذا يحتل التاريخ ذهن السياسى ويستعبده . وهكذا تردد الانسانية اليوم ما فعلته بالامس بل هكذا يتقدم العالم ويتجدد ويظل مع ذلك محكوما بروح التاريخ الغابر وفلسفته البالية . . .

ويسوق بول فاليرى عدة أمثلة للدلالة على صحة نظريته فيقول :

ولو أن شارل الاول لم يعدم لكان فى الامكان أن يعفى عن لويس السادس عشر . ولو أن بونابرت لم يفكر طويلا فى تحويل نظام الحكم الرومانى من جمهورية الى امبراطورية تستند الى السلطة العسكرية ، لما فكر فى تنصيب نفسه امبراطوراً

لو أن روح التاريخ القديم وأساليبه لم تكن مستولية على بسمارك فى مؤتمر برلين لما اقتصر على التفكير فى مصلحة بلاده ضمن حدود أوربا فقط . ولما دفع بالدول الاوربية الى الاهتمام بالمستعمرات والتنازع عليها ليبقيها متنافرة متخاصمة دون أن يفطن الى أن المانيا سوف تطمح ذات يوم الى الحصول على نفس تلك المستعمرات التى زينت للاخرين امتلاكها فتجتمع الدول كلها عليها كما وقع فى الحرب الكبرى

فبسمارك قد فكر فى المستقبل ، ولكنه لم يفكر فى امكان وجود مستقبل جديد آخر غير ذلك الذى استوحاه خياله من روح التاريخ وحوادثه

ومما لاشك فيه أن التاريخ أشد فتكا بالأمم من الأوبئة . فالقادة يفسرونه وفق أهوائهم والشعوب تحلم فى ظلته بالعظائم غير المتناهية ، وتنتشى بالمفاخر الحربية الرائعة ، وتذكر الخصومات الوراثية الفاجعة ، وتنمى فى نفوس الابناء والاحفاد غرائز البطش والاضطهاد كما هى الحال فى ايطاليا اليوم .

الفكر الأوربى

فى الفكر الاوربى تناقض عجيب . فبينا هو علم لا يشوبه الغرض ، وضمير حر صارم نزيه وعقل باحث ناقد مدقق ، اذا به يستحيل فى اذهان الساسة الى اصنام فارغة وغرائز هائلة وسلسلة مطامع وفواجع لا نهاية لها

ساسة أوربا وخيانتهم

مما يلاحظ فى تاريخ أوربا انه لم تستطع دولة من دولها أن تنشر سيادتها وتحتفظ بممتلكاتها أكثر من خمسين سنة

لقد فشل ساستها العظام جميعا . بل ان أذكاهم وأمهرهم وأسعدهم قد جلب

على أمته الخراب والدمار

وهذا شارل الخامس ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون ، ومترنيخ ، وبسمارك ، لم تعمر جهود معظمهم أكثر من أربعين أو خمسين سنة

بينما كانت العقول الاوربية الممتازة تسعى جهد استطاعتها لتكوين رأس مال اوربا الثقافى . كان لا ينفك ساستها يعملون على خيانتها بمنح الشعوب التى فكروا فى اخضاعها مختلف الادوات والطرائق التى تقوم عليها عظمة اوربا ....

فكفاح اولئك الساسة من اجل نشر حضارتهم وارسالهم الاخصائيين ومعهم الآلات الى بلاد غريبة وفتحهم المدارس هناك وتنظيمهم الجيوش والاساطيل كل ذلك لم يكن ليتفق والسيادة الفعلية على العالم التى كان ينزع اليها مثقفو اوربا ....

وعليه فقد أصبحنا اليوم واذا بالقوى الاوربية قد تسربت الى امم وقارات أوفر من أوربا عدداً ودونها ثقافة

وان من يفكر فى ان مساحة القارة الاسيوية هى اربعة اضعاف مساحة اوربا وان امريكا لاتقل عن آسيا اتساعا وان سكان الصين لايقل عددهم عن سكان اوربا وان تعداد اليابانيين يربى على الالمان وان اولئك جميعا يتوجهون بقلوبهم وعقولهم نحو الاخذ بأسباب الحضارة الاوربية لابد يشعر بالخطر الهائل على مصير اوربا .

فيوم ان تكتشف فى آسيا المناجم وتغص مدنها بالآلات والمصانع يوم ان تخرج تلك القارة من الفولاذ والحرير والاقمشة والورق والمنتجات الكيميائية كميات وفيرة تبيعها بأبخس الأثمان نظرا لملايين الايدى العاملة فيها واعتدال مطالبها وانتشار الوسائل الصحية الحديثة بينها ، فى ذلك اليوم قد يشعر ساسة أوربا أن سيادتهم القديمة ، لا أثر لها ، وان الغلبة للعدد وتفوقه وانهم قد باعوا حضارتهم من حيث ارادوا لها الفوز والحياة ...

الشرق والغرب

ان الفارق بين الاوربى الحديث والشرقى القديم ان الاول يحيا فى الساعة التى هو كائن فيها والثانى يعيش فى الابد

الاول يضيق فسحات العالم ليفهمه أو ليعتقد أن فى وسعه أن يفهمه ، والثانى يتناول الطبيعة كلها فى تأمل شامل قوامه الدين والشعر والفلسفة

الاول ينشد السرعة والدقة والغرابة والطرافة ، والثانى يرى هذه الأشياء محيرة مقلقة باطلة

الاول يخلق فيهدم ثم يعود فيخلق فيهدم ، لايعرف الاستقرار على فكرة أو عقيدة ، وكأنما اللعب بالأفكار والنظم واستبدال الواحد منها بآخر ، هو فى عرفه قانون التطور . أما الثانى فمحافظ شديد التمسك بماضيه ، يقف بالغرب متفرجا باسما ساخراً يتأمل هذه التطورات المتداركة كما يتأمل شاعر صوفى فقاقيع الماء . . .

الاول يعمل لهذا العالم . والثانى ينشد الخلود فى عوالم أخرى

الاول يعبد القوة ويقدس المادة ، والثانى يمجد الأمثلة الروحية العليا

ولقد ابتدع الصينيون البوصلة والبارود والطباعة ولكن أوربا هى التى استولت على هذه الكنوز وعرفت كيف تستخدمها وتغير بها وجه العالم

وهذا يدل ابلغ الدلالة على تخاذل الفرد الشرقى القديم واهماله الأخذ بأسباب الحياة الواقعة والمضى فى اصلاحها وتبديلها ، ترفعاً منه وضنا بروحانيته عن النزول الى مستوى الحقائق العملية اليومية وفروضها

تلك كانت نزعة الشرق فيما مضى ، أما اليوم فقد تبدل الأمر ونبتت فى رأس كل شرقى مثقف ناشىء فكرة الجهاد العملى والثبات فى وجه أوربا والاقتداء بها مااستطاع الى ذلك سبيلا

وهكذا اختلط الشرق بالغرب وتوحدت روح الحضارة فى العالم الى أن تحين الساعة التى يكمل فيها نضوج الشرق فينهض ويكافح ويتغلب وعندئذ قد يبقى على الحضارة الصناعية كما هى فى شكلها الحالى أو قد يطبعها بطابع جديد ليس فى مقدورنا الآن تحديد خصائصه والتنبؤ به

* * *

تعليق

هذه أهم الآراء التى يقوم عليها كتاب الشاعر والمفكر بول فاليرى . فما الذى

نستطيع أن نفهمه نحن الشرقيين منها ؟ وأى درس تلقيه علينا ؟ وما الذى يرمى اليه كاتبها واية المخاطر البعيدة يحاول أن يوجه اليها نظر أبناء جلدته ؟

فهل هو باحث نزيه حر يسجل الاغراض الاجتماعية والسياسية فحسب . أم هو من محبي السلام . أم هو من تلك الطائفة المعروفة التى ترسل اللفظ المعسول والكلم المنمق تستتر وراءه — فى مهارة وخبث وذكاء — شر مايخامر النفسية الاوربية من نزعات السيادة والاستعمار ؟ . .

الواقع أن الرجل لم يكاشفنا برأيه صراحة ، ولم يرسم الطريق الواضحة التى يطلب الى أوربا أن تسلكها

لقد هدم سياستها العتيقة ، وهدم التاريخ الذى تستمد هذه السياسة من منطق حوادثه أصولها . ولكنه لم يرشد الى شيء . ولم يبشر بالخطه المثلى ، ولم يضع للغرب أى برنامج سياسى جديد

فهل معنى هذا أن ليس للرجل هدف يسدد نحوه سهام أغراضه ، وليس له منزع خاص نستدل عليه من مجموع أفكاره ويتراءى لنا من خلال خواطره اللامعة الصقيلة التى يضفى عليها حلة شعرية رائعة ؟ . .

يلوح لى ان بول فاليرى بالرغم من دعوته الى تجديد السياسة الاوربية وتعديل اتجاهاتها بما يتفق وروح العصر . لايزال فى أعماق نفسه أوربيا صميما . أى ان مصير الانسانية لايهمه وانما مصير أوربا وحدها هو الذى يشيع فى نفسه الغضب والقلق والتمرد

هو أوربى بدافع عن أوربا ويلفت نظر أبنائها ، الى مايتهدد مستقبلها ، ويحاول أن يصلح من سياستها التقليدية لمصلحتها هى لا لمصلحة الانسانية

ولكن من الذى أثار فى نفسه هــــذا الاحساس . وضد من ينادى الرجل بالاصلاح ؟ أجيب فى غير شك أو تردد : ضد الشرق والشرقيين

أنه يخشى على أوربا غزوة الشرق المسلح بنفس سلاحها

أنه ينظر الى آسيا كعدو لدود ينمو ويتضخم ويتحضر ويتحفز شيئاً فشيئاً

وليست هى آسيا وحدها التى يخافها بل هو يخاف مختلف أمم الشرق العربى التى تنزع نزعتها

وعليه فهو يهيب بشعوب أوربا أن استيقظوا ، وانعموا النظر فيما يحيط بكم ، واشرفوا على المستقبل البعيد ، وانبذوا المنازعات القديمة ظهريا ، وكونوا جبهة متحدة ضد الشرق ونهضته . .

وفى الواقع بماذا نفسر جميع تلك المحاولات التى يقوم بها بعض ساسة أوربا الآن لتهيئة الاذهان لقبول فكرة اتحاد الدول الأوربية الا بانها جهود ترمى الى مقاومة نفوذ امريكا من ناحية وتحطيم أجنحة الشرق من ناحية أخرى ؟

ان كل اتحاد تحققه أوربا انما يدفع الشرق ثمنه وهذا مايجب أن نفهمه . . .

وأنا مع عظم حبى لبول فاليرى كشاعر وفنان ، ومع تقديرى لكتابه الاخير ، لاأستطيع أن أتمالك احساسى بالنفور حين اسمعه يقول أن ساسة أوربا قد باعوا حضارتهم للشرقيين وانهم لم يؤدوا الرساله الاوربية حقها من الوفاء ، كأنما الحضارة يجب أن تكون وقفا على جنس دون جنس وقارة دون قارة وفكر دون فكر !...

أليس هذا هو الاستعمار بعينه ؟ . . .

فاين هذا من كلام أمثال رومان رولان وولز وابنشتين وتاغور . أولئك الذين ينادون بادماج العالم فى حضارة واحدة والعمل على ابتكار أنظمة حكومية انسانية تكفل الراحة والرقى والسلام للجميع ؟ . . .

أن حياة أوربا ومستقبلها ليس فى أن تتحد فحسب . بل فى أن تتحد لتستخدم علومها وحضارتها وثقافتها لايجاد تلك الأنظمة أو ذلك النظام الانسانى الجديد الخليق بحضارة انسانية واحدة

أما الاثرة الاجتماعية والتعصب العنصرى والتحالف لمجرد المصلحة وضد الآخرين ، فلن يكون من شأنه الا أن يضاعف فى الكتلة الاخرى احساسها بالحياة، ويحفزها للتحالف والتآزر هى أيضا . وعندها قد تنعكس الآية . وقد يكون الفوز من نصيب الشرق الناهض العامل الطموح كما يتنبأ بذلك بول فاليرى نفسه !

مرض الـــكلام

Le langage et la Verbomanie

تأليف العلامة أوسيب لوربيه

جعلت أنقل بصرى بين مختلف الـكتب المتراصة على رفوف مكتبتى يحنو بعضها على بعض كأن كلا منها يسر الى الآخر شـكايات طويلة ما لها من نهاية . . .

ولفت نظرى هذا الـكتاب . وكان متأ كل الظهر، ضئيل الحجم مغبر الاسم . مندسا بين رفاقه يحاول أن يشق له فى جوف المكتبة مسكناً خفياً يتوارى فيه . ولـكنى أسرعت فانتزعته ونفضت عنه الغبـار المتراكم وفتحته ثم قلبت منه بضع صفحات فأخذت وانحيت على نفسى باللائمة كيف أهملت مطالعته حتى اليوم . ثم استقر رأيى على تلخيصه

وكان سر إعجابى بهـذا الـكتاب أن موضوعه شائق طريف وأن العلة التى يتناولها مؤلفه بالدرس والتحليـــل انما هى علة الفكر الشرقى فى مظاهره التى نشهدها اليوم

أما مؤلفه ــ أوسيب لوربيه ــ فقد كان أستاذا بجامعة بروكسل . وهو من أولئك المفـكرين الذين يبتدعون النظريات ويجددون فى دراسة الادب وفى الدعوة الى الاصـلاح الاجتماعى ومن أشهر أعماله كتابه عن القصصى الروسى ليون تولستوى وعن المؤلف المسرحى هنريك ابسن وعن التطورات الاخيرة لنظام الحـكم الجديد فى الروسيا

والـكتاب الذى نحن بصدده يدور حول فـكرة رئيسية على جانب عظيم من الخطورة ، وهى أن الـكلام اذا كان ظاهرة طبيعية سليمة متى قصد به التعبير عن

الفكر ، فهو ظاهرة مرضية متى أرسل جزافا ولم يقصد به المتكلم التعبير عن أفكار دقيقة ذات معنى معين

فقد يتحدث اليك بعض الناس وقد يسرف فى الحديث ويسترسل فى الثرثرة فاذا ما حاولت الوقوف بالضبط على ما يقصد اختلطت عليك المعانى وضاعت فى غمرة الالفاظ وتبين لك أن الحديث كان لغواً باطلا وان محدثك لم يقل فى الواقع شيئا

هذه الظاهرة نلمحها فى كثيرين ولكنها متى تمكنت من صاحبها . وأفلتت من رقابته استحالت الى مرض يهدد الفكر والمجتمع معاً

وبقدر ما يكون المصاب بها من الأشخاص الممتازين بقدر ما يلحق الضرر بالفكر والمجتمع

وفى وسعنا أن نتصور العلماء والأدباء والاساتذة والمحامين والخطباء المولعين باللفظ وسحره ، والجمل ورنينها ، ودوى الكلم المنمق يخلب السامع أو القارىء ويباعد بينه وبين الحقيقة ويطغى على جوهر الفكرة المنشود

والملاحظ فى المريض بهذا الداء أن الافراط فى الكلام يسكره . وأنه يلتذ بابتكار وقائع غريبة وخلق تلفيقات مدهشة . وكلما كان حظه من العقل والتثقيف وافرا استخدم عقله وثقافته ليقنع الناس أن حديثه الاجوف يحمل أروع المعانى وأخصب الافكار ، واستطاع أن يؤثر فيهم وينشر عدواه بينهم

فاذا كان من الكتاب ساقته نشوة الثرثرة والمط والتكرار والكلف بالمحسنات اللفظية الى اختراع أفكار واحساسات وعواطف لا رابطة بينها ولا حقيقة حية تستند اليها ولا غاية محددة ترمى الى استيضاحها

واذا كان من المحامين حاول ان يظفر من القضاة بالتهويش مالا يستطيع أن يظفر به بالمنطق المحكم والاستنتاج الدقيق والدفاع الواضح البليغ

واذا كان من العلماء أفقده هذا المرض فضيلة النظر الى الاشياء نظرة مجردة وتحديد علاقاتها الصحيحة واصدار الاحكام النزيهة عليها

واذا كان من الخطباء حمل الشعب على أجنحة الالفاظ الداوية وغرر به

ودفعه للقيام بأعمال قد يدلون هو أول النادمين عليها ساعة أن يخلو الى نفسه ويحاسبها على ما جنت شفتاه

ويقول أوسيب لوربيه أن من أعراض هذا الداء اعتداد المريض بنفسه وزهوه وتفاخره واستباحته حرمات الافكار المجربة والفضائل المقدسة واستعداده العجيب للكذب

غير انه لا يكذب عن عمد كذبا عقليا منظما يرمى الى غرض معين . بل يكذب اعتباطا وبلا مبالاة

يكذب لأنه لابد أن يتكلم ومتى تكلم فهو لا يلاحظ العلاقة بين حديثه وفكره وبين أقواله وأعماله

وهو لا يحفل بهذه الملاحظة لان البحث عن الحقائق لا يهمه . فاذا ما عرض له شأن من الشؤون نظر اليه من خلال سحب الالفاظ المتراكمة وحاول بواسطة الكلم الجميل المنمق أن يخلع عليه مظهر الحقيقة ، وان يصب فيه من روح الاساليب الخطابية ما قد يظنه الناس حرارة وجدانية صادقة ، وحماسة فكرية نبيلة ، وحياة مصطخبة متدفقة

وهذا ما يفسر لنا تلك الحالات النفسانية الغريبة الشائعة بين بعض الزعماء السياسيين وقادة الجماهير أولئك الذين يعملون ويبشرون وينادون بالمبادىء العظيمة والامثلة العليا ويخطبون ، بينا حياتهم اليومية وتصرفاتهم الشخصية تعارض الغاية التى ترمى اليها تعاليمهم معارضة صارخة لايشعرون بها لفرط خضوعهم لسلطان الكلام وامتثالهم لسحره وتوهمهم انالكلام هو العمل وان النظريات هي الحقائق

ومما لايقبل الريب أن مرض الافراط فى الكلام وعدم تحرى الدقة والاتزان فى التعبير عن الفكر يفقد الكلمات معانيها الصحيحة ويشجع الكثيرين على الاستخفاف بالقيم العظيمة أو هدمها فى غير احتفال . فتتساوى فى نظرهم أقدار الناس أو تعكس فيصبح النابغة عبقريا والعبقرى نابغاً والشرير طيباً والطيب شريراً . وهكذا يمتلىء جو الحياة بالآراء الزائفة ويتفشى الكذب ويتكون رأى عام سطحى يعنى بالعرض دون الجوهر ويستريح الى الحقائق التقريبية المضللة المبهمة . .

ومن أعراض هذا الداء أيضاً شدة ميل صاحبه الى النميمة . فالثرثار عندما لايجد مادة بريئة لثرثرته يلفق الأحاديث عن الغير وينسب اليهم من التهم ماهم منها براء فاذا مالحقهم أى أذى بسببه فقد يتألم ولكنه مع ذلك يمضى فى رذيلته دون ان يحسب للعواقب أى حساب

وكما أننا نلمح آثار هذا المرض بين الرجال كذلك نراه بين النساء . بل قد تكون النساء أكثر استعداداً لقبوله اذ المرأة بطبيعتها ثرثارة لاسيما اذا كانت دميمة . أما المرأة العيية فنادرة الوجود

ويزعم أوسيب لورييه أنه قد طاف ببعض البيمارستانات ولاحظ ان المرأة المجنونة أسرع فى الافضاء بدخائل نفسها من الرجل المجنون . وأنها ماتنفك تتحين الفرص لتستميل اليها بعض رفيقاتها وتأخذ فى أن تقص عليهن مختلف الاقاصيص

ويضيف المؤلف الى هذا ان تاريخ الاجرام حافل بالأدوار الخطيرة التى لعبتها المرأة

فالرجل هو الذى يقترف الجريمة ولكن المرأة هى التى توحى بها . هى التى تشعل فى الرجل جذوة الاقدام . وتصب فى عروقه دم القوة . وتزين له ارتكاب الشر بحديثها المتواصل واصراراتها المتداركة وألفاظهـــا المختارة المعسولة المنهمرة كالسيل

ونحن اذا ماعدنا الى شكسبير وراجعنا قصة « مكبث » أدركنا كيف ان الغريزة النسوية تقوم على شهوة الجنس وشهوة المظهر وشهوة الكلام وكيف ان « اللادى مكبث » توسلت الى أغراضها بالكلام وظلت تتكلم وتفتن فى كلامها حتى دفعت بزوجها الرعديد الى اقتراف الجريمة . .

وقد تختلف المرأة عن الرجل فى ان أفراطها فى الثرثرة كثيرا ماتصحبه فكرة تهيأ فى الذهن قبل ان ينطلق اللسان بمدحها، وابراز خفى محاسنها ، والاعراب عن الفوائد الجمة التى تنشأ عن تحقيقها

ومع ذلك فالمرأة لفرط ولعها بالكلام لاتحب أن تتعجل تحقيق تلك الفكرة وتظل تعتقد أن الزمن كفيل باخراجها يوما من ظلمة الخيال الى نور الواقع . ولكن المرأة اذاما يئست فى النهاية من امكان تحقيق فكرتها فالكلام يعزيها عنها والاسراف فى الكلام يلقى فى روعها ان الفكرة قريبة التحقيق بل أنها قد حققت بالفعل

وهذه هى الحالة المرضية التى قد تنمو فى نفس المرأة نمواً خطيرا اذا لم يكن لها من عقلها المثقف ، واحساسها المهذب ، وضميرها الحى ، ماتستطيع ان تضبط به التوازن بين العقل والاعصاب وبين الفكرة والحقيقة

* * *

ويعود بنا المؤلف الى تلك الطبقة من القادة ورجال الفكر الذين هم بحكم وظيفتهم أكثراستهدافا لهذا المرض من سواهم وأقدرعلىنشره من غيرهم . فيتخير منهم الخطيب الزائف والكاتب الزائف ويرسم لكل منهما صورة حية واضحة الاضواء والقسمات

فالخطيب الزائف يبنى فنه الخطابى على الفصاحة مصحوبة بقوة الحركة والاشارة . وليس المهم فى نظره ان يجتذب اليه مستمعيه بتقسيم موضوعه وتحديد نقطه والتعمق فى شرحه وتحليله والاستعانة بالعواطف والعبارات الحماسيةلاثبات وتوكيد النتائج الواضحة التى انتهى اليها بحثه . بل المهم عنده ان ينتقى الالفاظاً الرنانة ويشفعها بالتلويحات العريضة والصوت الجهورى . ليحدث فى الجماهير تأثير عاصفاً مربكا مباشراً يفقدها الاحساس بالحقائق واستطاعة ادراكها والرغبة فى الوصول اليها

هذا الخطيب الزائف هو الذى لاتكاد تقرأ خطابه صبيحة يوم القائه حتى تبهت له وتعجب لكمية السخف المودعة فيه وتدرك ان التغرير بالشعب من أيسر الأمور وان هذا الخطيب ليس فى الحقيقة غير مسخ ومهرج كان أجدر به ان يصول ويجول فى ملعب لاأن يعتلى منبرا ويخطب فى مسائل تمس حياة شعب

أما الكاتب الزائف فهو الذى يؤثر اللفظ على المعنى ويضحى بالمعنى فى سبيل اللفظ

هو الذى يختار أفخم الكلمات وأدهش التعابير وأندر المجازات ويعتبرها غاية لا وسيلة

هو الذى يسرف فى الالفاظ وينفقها جزافا ويراكم الجمل بعضها فوق البعض الآخر ولايتورع عن استخدام المترادفات ويكرر ماقال ويتكلم كثيراً ليعبر عن القليل

هو الذى تضيع فكرته فى اعصار لفظه وتتضاءل معانيه فى ضجيج ثرثرته

هو الذى لا دقة فى أسلوبه ولا تمايز فى ألوانه ولا بروز ولا اتساق

هو الكاتب الذى لا يقدس الكلمات ولا يعتقد بأن لكل منها كيانا خاصاً يؤدى صورة خاصة أو عاطفة خاصة ، ولا يؤمن بأن هذا الكيان يجب أن يحترم ويصان من التبذل لى تحدث الكلمه فى نفس القارىء تأثيرها الحى العميق

وأمثال هذا الكاتب كثير بين الصحفيين فقد تكون الفكرة بسيطة تافهة فيطلب الى الصحفى أن يملأ بها ثلاثة أعمدة أو أربعة فيضطر عندئذ الى المط والتكرار والتهويش . وفى هذا مافيه من الخطر على الفكر قد تستطيع الصحافة تلافيه بالاستعانة بعدد وافر من الأدباء يكتبون المقالات القصيرة بأجر متوسط كما هى الحال فى الصحافة الفرنسية الحديثة مثلا

ولكننا اذا التمسنا بعض العذر للصحفى المسكين فلا يسعنا الا ان نحكم الحكم الصارم على الاديب الذى يعالج خلق الأعمال الادبية الفنية وقد تمكن من عقله مرض الكلام

ومما لاريب فيه ان الكاتب الزائف الذى يبتكر عملا أدبياً تسوده الرغبة فى العنايه باللفظ لايخلق غير عالم فكرى أو نفسانى زائف يسهل فيه التلاعب بالمبادىء والآراء والعواطف والميول وتنعدم فيه الامانة والصدق فى التعبير والتصوير

ولكن القارىء العادى كثيراً مايخيل اليه ان هذا العمل قوى وأن الأسلوب يتدفق تدفقاً ينم عن قريحة وقادة وملكات خصبة خالقة . بينا هذه القوة ليست فى الحقيقة غير حمى الالفاظ تساور الكاتب ساعة يكتب وتحمله على امواجها المتلاطمة وتتقاذفه وتكتسحه

* * *

ويقول اوسيب لوربيه ان قيمة الكلمات ومعناها أشياء لاتحفل بها الجماهير المتأخرة كثيراً . إذ منطق تلك الجماهير هو منطق الاحساس لامنطق العقل . والاحساس ميال بطبيعته الى الألفاظ الداوية التى تهتاجه وتلهبه

ومن خصائص الجماهير المتأخرة انها ميالة الى الجمل القصيرة التى تحبس الاحساس العنيف فى حيز ضيق وتؤدى الفكرة الطائشة البسيطة كاملة كتلك الجملة الرائعة

التى أجراها شكسبير فى قصة « يوليوس قيصر » على لسان الشعب عندما أقبل بروتس عقب مقتل قيصر فقد هتفت الجماهير تحية له وتقديراً قائلة :

« ليعش بروتس . فلنناد به قيصراً ! »

وهكذا تتسرع الجماهير المتأخرة فى المكافأة والتقدير وحل المشاكل الكبرى دون تبصر وحسبما تمليه عليها احكام العاطفة ونزوات الساعة

لهذا يجب تثقيف الشعب وصقل ملكاته الناقدة وتعويده المنطق الصحيح كى يسهل عليه ادراك العلاقة بين الكلمات ومعانيها المباشرة وغيرالمباشرة فلا تؤثر فيه جعجعة الكلاميين ولا يستسلم لنشوة مرض الكلام

* * *

هذه مجمل الخواطر التى احتواها كتاب العلامة أوسيب لوريه ، وهى كما ترى تنطبق علينا كل الانطباق وكأنها قد كتبت من اجلنا

فنحن نتكلم كثيراً ونعمل قليلا

نعلل انفسنا بالكلام بينا الحياة تطالبنا بالعمل . نغرق فى الشحناء والجدل اللفظى فيخيل الينا اننا نعمل

ولفرط ما اسرفنا فى الكلام كادت تبتذل أقدس كلماتنا « كالحرية » و « الحق » و « الوطنيه »

ولفرط ما استرحنا الى حرب الكلام كدنا نتوهم أنفسنا جنوداً اشداء بواسل قاموا بواجبهم على خير وجه

انى سرحت البصر الفيت مرضى الكلام تغص بهم البلاد وتكاد عدواهم تصيب أرسخ الناس عقلا وأثبتهم جناناً ، وابعدهم عن الخمول والوهم

وانى لاعتقد أن داءهم قد أصبح وباء أفتك من السرطان والسل،وان لاسبيل الى مطاردته الا بأن يقبع كل منا فى زوايته ويخلو الى عقله ويستجم فى عزلته ويفكر ثم يضع لنفسه برنامجاً عملياً ويسرع فى تنفيذه فقرة فقرة

ان من يعمل لا يتكلم . والعمل القوى الذى انضجه الفكر الهادىء الرصين هو وحده الذى يشفى من مرض الكلام

كلمات العصر الحاضر

Aphorismes du temps present

للدكتور جوستاف لوبون

اذاعت الصحف نبأ وفاة الدكتور جوستاف لوبون وجوستاف لوبون من المفكرين الفرنسيين الذين أصابوا قسطاً وافراً من الشهرة فى مصر . فقدعنى به كتابنا ، ونقلوا الى العربية معظم مؤلفاته ، ومن واجبنا اليوم أن نفيه حقه من البحث وأن تنظر فى أعماله نظرة شاملة تحدد مركزه وترسل ضوءاً ساطعاً على أفكاره وتعاليمه

ورغبة فى الوقوف على حقيقة شخصية الرجل آثرنا أن نلخص كتابه « كلمات العصر الحاضر » ففيه خلاصة فكره ومجموعة الآراء المبعثرة فى مختلف تواليفه

* * *

ان أول مايلفت الانظار فى كلماته تقسيمه الانسان الى عقل وخلق ، وقوله : « نحن لانهتدى فى سلوكنا اليومى بأحكام العقل بل بسلطان الخلق »

والخلق فى عرفه يتركب من المزاج وخصائص العنصرومؤثرات الاسرة والبيئة والميل الخاص أى من قوى وراثية عاطفية بحتة تكسب الفرد شخصيات متعددة ، تضطجع فيه وتكمن فى طبيعته وتتحكم فى نفسه على الرغم منه ، فاذاماتبدل خلقه فجأة تحت تأثير ظرف من الظروف ، فذلك أن احدى تلك الشخصيات العديدة الغامضة قد استفاقت فيه بغتة وتفوقت على سائر الشخصيات

وعليه فقد ينتحل الفرد لاعماله اليومية أسباباً ومبررات عقلية ، ولكن هذه الاسباب ، انما ترجع فى الغالب الى تلك القوى العاطفية المسيطرة عليه

والواقع — فى رأى جوستاف لوبون — أن الفرد لاينفك فى حياته العامة

يترجح بين عقله وعاطفته ، بين ماتمليه عليه ارادته العاقلة وما تفرضـــه ارادته الباطنية الخفية الممثلة فى تفاعلات الوراثة والغريزة والعاطفة ، وهذا ما يفسرلنا مجموعة المتناقضات التى تبدو فى سلوكه اليومى

فالعاطفة وما يصدر عنها من شهوات وآلام وحب ورحمة وتضحيات وعقائد دينية أو اجتماعية هى التى تحل فى الافراد محل العقل ، وهى التى لو انتفت لتعطلت الحركة الانسانية واصابها الشلل

واليك بعض كلماته فى هذا الموضوع :

« ان المعرفة العلمية هى الباعث الأكبر لتقدم الحضارة المادى ، ولـكن العقائد العاطفية هى التى توجه الأفـكار والاحساسات وتنظم بالتالى سلوك الأفراد »

« ان المعرفة تحدد الحقائق ولـكن العقيدة تمثل الرغبات ، ولهذا يؤثر الانسان العقيدة على المعرفة »

« من الصعب أن نصادف رجلا مستعداً للتضحية بنفسه فى سبيل حقيقة عقلية. ولـكن من السهل أن تجد ألوفا يجودون بأرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدة »

فالفـكرة المجردة التى لاتستند الى قاعدة عاطفية هى فى رأى جوستاف لوبون فكرة معدومة التأثير على الافراد والجماعات ، وما دامت لم تتصل بحياتهم الوجدانية فلا يمكن أن تنتشر وتنمو وتعيش

والتاريخ فى زعمه سلسلة حوادث وقعت خارج منطقة العقل وعلى نقيض مايأمر به العقل . . حوادث تتحكم فيها العواطف والميول والنزوات

فاذا شئت أن تخلق التاريخ فخاطب عواطف الجماهير . وليـكن نفوذك عليها مستمداً من احترامها لك وتهيبها اياك . واعجابها بك ودهشتها منك ، فهذه العوامل تسلس لك قيادها وتشعرك بأن لاقيمة للدعوة التى تروج لها بغير نفوذ أدبى وروحى

وليس للجماهير — عند لوبون — من منطق سوى منطق العاطفة . فهى أشد ماتـكون استعداداً للقيام بأعمال البطولة والحماسة والعنف ، ولـكنها بعيدة كل البعد عن محاولة الاسترشاد بملـكات العقل الناقد البصير . وهى تطالب قبل كل شىء بالأمل ولا تستطيع أن تحيا بغير الأمل . وهى شديدة الرغبة فى الايمان

تستخفها الوعود الكبيرة والعلالات الخارقة ، وتذهب بلبها الجمل العاطفية الرنانة تصب فى قوالب مقتضبة عنيفة ، ومن خصائصها أنها تعبد القوة وتكره الرحمة وتبغض الضعف والضعفاء . أما قدرتها على ارتكاب الشر فلا حد لها

هذا هو رأى جوستاف لوبون فى الجماعات ومنه ندرك مذهبه فى التربية

ان قيمة الانسان فى نظره لاتقاس — كما يظن معظم أساتذة المدارس والجامعات — بنسبة علمه بل بنسبة مستواه الخلقى والعاطفى . اذ العلم لاشىء بدون تهذيب . والتهذيب هو الذى يكون الخلق وانه لمن الميسور — فى بضع سنين — أن نعلم رجلا همجيا ولكن تهذيب هذا الرجل وتكوين خلقه قد يقتضى عدة أجيال

واذن فلا يمكن أن يحل العلم محل الخلق ، ونحن اذا وزعنا العلم اعتباطا أفسدنا المواهب الطبيعية وأتلفنا الملكات المبتكرة الخالقة

والواجب أن نتوسل بالعلم لنبرز الفارق الأساسى بين فرد وآخر من مجموعة أفراد تلقوا تعليما واحداً ، أى يجب أن تكون غاية العلم اظهار الكفايات لاقتلها بواسطة أنظمة تعليمية تساوى بين الافراد والجماعات وتجعل من المدارس والجامعات أشباه مصانع أو ثكنات

ولكى نظهر الكفاءة الشخصية يجب أن نميز فى العلم بين فرد وآخر ، ونشجع صاحب الكفاية على استثمار مواهبه بأن نعمل مااستطعنا لتكوين خلقه . والسبيل الى تكوين الخلق هو معرفة الطريقة التى تمكننا من ادماج ملكات الفرد العقلية النامية فى ملكاته العاطفية الخفية . ومعرفة الفن الذى نخضع به عواطفه لاحكام عقله بحيث يستطيع أن يتسلط على مزاجه وغرائزه واهوائه ووراثته ويوجهها وجهة عقلية نافعة

وقيمة العقل أو التعليم هنا هى فى قدرته على كبح قوى العاطفة التى حبتنا بها الطبيعة وتنظيمها والانتفاع بها . ولن يكون ذلك الا بتدريب الصبيان على الملاحظة والاستقراء والتسامى بالعواطف والأفكار . أما حشد العلوم وتراكمها فى الاذهان فلا فائدة منه البته ، اذ العلوم تبنى أكثر مما تفسر ، وتحصى الظواهر أكثر مما

تعللها ، وتخلق من الأسرار أكثر مما تستوضح ، واعتماد الاستاذ عليها وحدها يوهم التلميذ أن العلوم الـ . يتلقاها حقائق مقطوع بصحتها فيضعف خلقه وتختنق فيه ملكات البحث والملاحظه

والفكرة التى يرمى اليها لوبون هى ألا تكون غاية التربية ملء الرءوس بشتى المعلومات بل ابراز الشخصيه ، وانماء مختلف العناصر التى تتألف منها : كالقدرة على التفكير والملاحظة والحكم والاعتماد على النفس والنشاط وضبط الأعصاب ، اذ هذه القوى العاطفية العقلية مندمجة هى التى تؤثر فى مجرى الحياة اليومى ، وهى التى يتفوق بها فرد على آخر ويسوده ويحكمه

فكأن مذهب لوبون فى التربية هو التوفيق بين العلم والخلق ، بين قوى العقل والعاطفه لكبح جماح العاطفة وطرد نزواتها ، وتغليب العقل عليها ، والعناية بمصلحة العقل وحدها

وهو انما يقيم التربية على ضرورة تغليب العقل ليهاجم حكم الجماهير القائم فى زعمه على تغليب العاطفه المتهورة كما سنرى

* * *

وينتقل بنا الى الحديث عن علاقة أنظمة الحكم بالجماهير ـ وهو الجانب الخطير من تفكيره ـ فيقول ما دامت الجماهير سريعة الانفعال ، لا تعرف الرحمة ولا التسامح ، أبعد ما تكون عن العقل الهادىء الرصين ، ذات غضبات طارئة هائلة ، وتقلبات فجائية غريبة ، وامتثال للزعامة أعمى ، فمن مصلحة المجتمع أن يكبحها ما استطاع وأن يفرض عليها الخضوع لقوانينه ولو اضطر فى بعض الاحايين الى اضطهادها اقراراً للسكينة وحفظا للنظام . . .

على أن هذه القوانين التى على الشعب أن يحترمها . ويذعن لها يجب أن تكون مستمدة من مجموع أخلاقه وعاداته ومزاجه وصفوة النزعات التقليدية السائدة فيه والا كانت مثار اضطراب وفوضى .

ولا ينبغى أن يرتكز القانون على ارادة المشرع وعقله ونزعته الحزبية بل

على حاجة الشعب الماسة اليه . اذ لا فائدة من وضع المشرعين قوانين - بالغة ما مابلغت من الرقى - لا تدعمها رغبات الجماعة وعواطفها

ولكن من ذا الذى يجب أن يضع القوانين فى رأى جوستاف لوبون ؟

أهو الفرد صاحب السلطة الاتوقراطية المطلقة أم الجماعة نفسها ممثلة فى البرلمانات ؟

من البدهى أن من لايؤمن بالجماعة لايؤمن بالنظام النيابى . وعليه فجوستاف لوبون يحمل على البرلمانات حملة هائلة ويطعن الدمقراطية فى الصميم ويقول أن الهيئات النيابية مؤلفة فى العادة من أفراد غير متجانسين تجمعهم المصادفة وتعصف بهم النزعات والمنافع الخاصة ويسعى كل منهم لاقرار وجهة نظره فى شكل قانون يظنه نافعاً ولا يهتم بما اذا كان يتفق وميول الشعب واستعداده العقلى ودرجة الرقى التى وصل اليها . . .

يلوح لنا أن هذا هو جوهر فلسفة جوستاف لوبون الاجتماعية . فهو يسىء الظن بالطبيعة البشرية . ويرى فيها محض غرائز حيوانية وميول طائشة ويغلب العواطف فى الفرد والمجموع على العقل وينكر استطاعة المجموع التحرر من ربقة هذه العواطف ليتمكن من هدم كل نظام يقوم على حكم الجماعة وتتمثل فيه كما يزعم تلك العواطف التى ينفر منها والتى أرصد جهوده فى معظم تواليفه على محاربتها

لهذا فهو يدعو الى حكم طبقة الاعيان من حفظة الثقافة والتقاليد والثروات ولا ينفك يردد ان البرلمانات تمكن لسلطان العدد فتخنق الفكر السليم . وتعجز عن استبداله بقوة صالحة أخرى بينا طبقة الخاصة الممولين المثقفين هى التى — بتراثها القديم واعتيادها الحكم وامتلاكها موارد الثروة — تخلق الحضارات وتعرف كيف تحد من غرائز الشعب وتلطفها وتصقلها وتسيرها فى منهاج قويم

ومن كلماته : « ان الخاصة تبنى ولكن العامة تهدم » و « الشعب ينبوع قوى عظيمة ان لم تهذبها الخاصة وتنتفع بها استحالت الى عناصر بؤس وفوضى »

وعليه فمتى نشب الصراع بين الشعب والخاصة وكانت الغلبة للعدد فذلك هو النذير باضمحلال الحضارة وفنائها . . .

ويذهب جوستاف لوبون الى أبعد من هذا فينتصر للفرد على المجموع ويقول ان عقلية الافراد متى اجتمعوا كانت أضعف بكثير من عقلية الفرد المنعزل . وهى فكرة بسيطة فى ظاهرها ولكنها متى طبقت على أنظمة الحكم حملت فى تضاعيفها خلاصة الروح الارستقراطية ولباب أنظمة القرون الوسطى . . . .

أما نزعة المساواة الحديثة فيرى لوبون أن الطبيعة لا تعرفها وأن العالم لم يحقق مختلف ضروب التقدم البشرى الا خروجا على هذه المساواة . وما الظمأ الى المساواة فى نظره الا الدليل القاطع على كره الجماهير للشخصيات الممتازة ورغبتها فى أن يحكمها من هم على مثالها كفاءة ومقدرة

وبعد ان يمعن لوبون فى مهاجمة الديمقراطية ينهال بمعوله على الاشتراكية يحاول أيضا هدمها

والاشتراكية فى زعمه (حالة عقلية) وليست عقيدة وسر ضعفها كامن فى أنها تعد الناس بسعادة أرضية محضة . سعادة قائمة على استعباد الجماعات وفرض المساواة عليها فرضا وهكذا يخنق الاستقلال الشخصى ويفقد الفرد حب المجازفة وتتقلص روح المزاحمة وتعود الاشتراكية بالافراد الى عصور المساواة الأولى أى الى عهد بدائى ساذج منحط من عهود التطور البشرى

ومن كلماته فى هذا الموضوع ما معناه : « أن استعاضتنا عن مسئولية الفرد وعقله بمسئولية الجماعة وعقلها هبوط بالانسان الى أسفل درجات سلم القيم البشرية »

ولا يكاد جوستاف لوبون يفرغ من حملته على الاشتراكية حتى يرسم لك صورة هائلة مما يسميه الشروط الواقعية القاسية للنفس الانسانية فيقول : « أن الكفاح هو قانون الطبيعة العام ، وان الطبيعة لا ترحم الضعفاء . وان هذه القسوة الاصيلة هى التى أنشأت الحضارات . فمن واجب الشعوب والحالة هذه ألا تركن الى مبادىء السلم ودعاة السلام . اذ كل شعب مسالم مصيره الى التفكك والانحلال

ويلخص تعاليمه فى أمثال هذه الكلمات :

« لا مجتمع بدون سلطة قوية ذات نفوذ ثقافى ومالى كما أن لا نهر بدون شواطىء »

« مهمة العالم أن يحارب الاوهام ومهمة السياسى أن يستغلها »

« ان قمع الاضطرابات بقوة وسرعة أنجع من قمعها بضعف واستمرار »

« ليس فى وسع أى شعب ان ينقل انظمته الى شعب آخر الا اذا كان فى استطاعته ان ينقل اليه روحه »

« ان الحضارة تنتفع بالعلم ولكنها لاتقوم على العلم »

« ان روح الشعب الوراثية هى التى تتحكم فى تطوره . أما الانقلابات السياسية فلا تبدل هذه الروح ان هى غيرت من أشكالها »

* * *

تعليق

هذه صفوة آراء جوستاف لوبون ، نصادفها فى معظم دراساته مهما تنوعت الالفاظ التى يعبر بها عنها

وما يجب ان نفهمه فى مصر اليوم هو أن الرجل مفكر رجعى وأن السبب فى رجعيته تأثره بتعاليم بعض المفكرين الفرنسيين ذوى النزعات الارستقراطية والاتوقراطية

فعقليته فى مجموعها هى عقلية ما قبل الحرب وآراؤه هى الآراء التى كانت سائدة فى فرنسا قبل الحرب والتى اعتنقها وروج لها ذلك النفر من أدباء الفرنسيين اثارة لهمم مواطنيهم ورغبة فى مقابلة الروح الوطنية العسكرية الالمانية بروح فرنسية مثلها

فلوبون كان مفكراً نفعيا . ينظر الى مصلحة بلاده فى زمن خاص ولا يحفل بخدمة الفكر لنفسه . كان مفكرا ينشد فى الفكر المنفعة لا الحقيقة بدليل أنه تجاهل أو جهل القوى الخفية التى كانت تعمل عملها البطىء فى نفسيات الامم ولم يفطن الى خطورة البواعث والحوافز الاقتصادية التى دفعت بأوربا الى الحرب وساقت شعوبها بالرغم منها الى التفكير فى ضرورة أشرافها التام على انظمة الحكم

وعليه فلم تكد تنتهى الحرب حتى شاهد الرجل بعينيه كيف تطورت العقلية الاوربية تطورا هدم آراءه واتجه اتجاها لم يكن يخطر قط له ببال

لقد حاول الانتقاص من حكم الجماعة بينما النظام فى اوربا وغير اوربا اليوم يتجه الى توطيد حكم الجماعة فهاهى المانيا قد استحالت الى جمهورية تتمثل فى

برلمانها أوفر وأشد العناصر الاشتراكيه تطرفاوهاهى اسبانيا ايضاً الى مثل هذا وهاهو حزب العمال فى انجلترا قد تمكن من الاضطلاع باعباء الحكم ، بل هاهى الميول الانسانية تحتل قلوب وعقول كبار مفكرى الغرب

وكل هذه الظواهر انما تدل على يقظة الجماعات ، واحساسها العميق بحقها فى تصريف شؤونها ، وعدم تسامحها فى ان يعبث رجال السياسة والمال بمصيرها ، وشعورها بأن الحرب الكبرى كانت نتيجة مطامع كبار أصحاب رءوس الاموال واستبداد بضع أفراد بمقاليد الحكم ، وما اوربا اليوم سوى ميدان فسيح تصطدم فيه ارادة الجماعات الحية الطامحة الى استكمال حقوقها واعادة تنظيم اوربا على أسس جديدة ، بارادة معظم رجال الحكومات واقطاب المال المستمسكين بتقاليد السياسة القديمة العاملين على البطش بالجماعات واخضاعها . ولكن فوز الجماعات فى النهاية امر محقق تدل عليه منذ الآن مختلف التقلبات التى تلوح فى الافق الأوربى

والواقع ان الضعف فى تفكير جوستاف لوبون يرجع الى استخفافه بالعوامل الاقتصادية فى الحياة العالمية واهماله بحثها والنظر فيما قد يترتب عليها من تبدل رئيسى فى أنظمة الحكم

وقد يكون انهيار الملكيات القديمة فى اوربا واضطراب الانظمة النيابيـــة المستجدة فى بعض دولها وقيام شتى الديكتاتوريات من آثار الفوضى التى عقبت الحرب ومن أدلة تزعزع مبدأ السلطة ـــ سلطة الخاصة ـــ التى دعا اليها لوبون بالامس وما زال يدعو اليها المؤرخ الايطالى جوجليلمو فريرو حتى اليوم

ولكن لماذا نفرض أن مبدأ السلطة ـــ كما كان يفهم فيما مضى ـــ هو الذى لابد من توفره فى الحاضر والمستقبل كى ينتعش العالم وتعود اوربا الى سابق مجدها ؟

ألا يمكن أن تكون هناك سلطة جديدة اكثر ملاءمة للجماعات وتطورها الجديد وأجدر بتحقيق ميول الحاضر والمستقبل من سلطة الخاصة ورجال المال واصحاب الثقافة العتيقة الداعين الى تثبيت فوارق الطبقات العاملين على استعباد

الشعوب الصغيرة وتأليب الدول الكبيرة بعضها على بعض ولو هلك سواد الشعب

ان العامل الاقتصادى هو الذى يتحكم فى مستقبل الحضارة شاء جوستاف لوبون أولم يشأ ، والعامل الاقتصادى هو الذى سوف يخلق السلطة الجديدة التى لابد منها لانشاء حضارة جديدة ذات آداب وفنون جديدة

فلماذا ننظر دائما الى الماضى عند مانقدم على حل مشاكل المستقبل

إن العالم يسير نحو حضارة صناعية فردة لابد للكتلة العاملة التى انتجتها وابرزتها أن تفوز بقسطها الوافر من نعيمها وان تشترك فى ادارة نظامها العادل المبتكر المنشود . . .

وليس من شك فى ان الأزمة المالية الى نعانيها الآن هى نتيجة رقينا الصناعى واعتمادنا على الآلات فالآلة تقوم اليوم بما كان يقوم به بالامس عشرة من العمال أو أكثر . ولقد نشأ عن هذا التطور أن زادت مقدرتنا على الانتاج على نسبة مانستهلكه . فتكدست البضائع وشلت الاسواق وأصبح لابد من اغلاق أبواب المصانع ، ووقف حركة العمل وتشريد العمال والاستهداف لشر مايمكن أن ينجم عن هذا الاضطراب

فما الذى يمنعنا استناداً على مانشاهده الآن وعلى طبيعة حضارتنا الآلية من من ان نؤمل فى اتجاه المجتمع يوما نحو تنظيم العمل تنظيما منصفاً جديداً بحيث تتعادل قوى الانتاج والاستهلاك فلا يشتغل العامل أكثر من اربع ساعات فيها الكفاية لتزويدنا بمانحتاج اليه ومنحنا من أوقات الفراغ مانستطيع أن ننفقه فى تهذيب عقولنا وغرائزنا وانماء خصائصنا الروحية التى يكاد يقضى عليها اليوم افراطنا فى العمل والانتاج على غير جدوى ؟ . . .

هذا هو التطور المنطق المنتظر الذى لابد ان يقوم على اكتاف الجماعات والذى لم يعره جوستاف لوبون اى اهتمام

أما كلامه عن النظم النيابية وقوله ان الجماعات غير صالحة للحكم وانها لا تنفك تنقاد للعواطف فنزعة خبيثة ترمى فى الواقع الى قتل فكرة الحضارة . . . .

اذ ليس معنى الحضارة أن يتفوق الفرد على نفسه والمجموع فحسب ، بل أن يتفوق المجموع أيضا برمته على نفسه اى على نزعات الاسراف والشطط والتقلب والتعصب وكل مايسميه لوبون عواطف طائشة

ولكى يتفوق المجموع على نفسه ويحقق غاية الحضارة المثلى لابد له من التطلع الى النظم النيابية الصحيحة وامتلاكها والتشبث بها وممارستها مهما أخطأ فى مبدأ الامر حتى يعتادها ويتكون فيه على مر الزمن احساسه بالحرية والتسامح والكرامة والمسئولية الحقه أى بالفضائل التى تخلق للجماعات الحاكمة تلك القوة العاقلة الناضجة المتزنة التى يأبى جوستاف لوبون الا ان يجعلها وقفاً على الخاصه

والمهم فى كل هذا اننا يجب الانفزع لغلطات شعب حديث العهد بالحكم النيابى فنعمل على حرمانه منه اذ الخطأ هنا طريق الصواب والسقوط سبيل النهوض. ومجرد الاضطلاع بالمسئولية يولد الشعور بالشخصية . ومعرفة استخدام الحرية فن محال ان نحذقه فى غير دائرة الحرية

وقدما كان روسو يقول ان الحرية هى التى تعلم الحرية !

خيانة الكتاب

La trahison des clercs

لجوليان بندا

صدر فى فرنسا منذ بضعة أشهر كتاب أثار عاصفه من النقد انتصر له فريق من أكابر المفكرين وحمل عليه بعضهم حملات أكسبت مؤلفه (جوليان بندا) شهرة واسعة

وجوليان بندا كاتب اجتماعى باحث من أعمق كتاب الفرنسيين نظراً وأشدهم تأثيراً وأبعدهم مرمى وصدى

بدأ حياته الادبية بنشر قصة غرامية لم تصادف نجاحا كبيراً . فأردفها بكتاب سماه (بلفجور) وهاجم فيه مذهب (الرومانتسم) أى تحكم العواطف فى الاعمال الأدبية تحكما يشوه الواقع ويخرج بالأدب من دائرة الحقيقه الى فسحات الخيال المشوش المريض

واستطرد العمل فأخرج مؤلفاً آخر دعاه (البرجسونزم أو فلسفة الحركة) وتناول فيه بالبحث والتحليل نظريات الفيلسوف هنرى برجسون وجعل ينقدها نقداً هادئاً متزناً مراً ، ويدلل عن أن فلسفة برجسون القائمة على العاطفة وعلى استطاعة فهم الأشياء والاحساس بها عن طريق الغريزة أو الاشراق الروحى أو الاستشعار الوجدانى هى فلسفة مضطربة أقرب إلى الدين منها إلى الفلسفة . ا انها ترد الحقائق إلى حكم العاطفة ونزعاتها المتقلبة دون العقل وأقيسته الواضحة ومنطقه الصارم الصريح

ولكن هذه الكتب على مافيها من دقه التحرى وروعة الأسلوب ومتانته ونصوعه لم تثر حولها تلك الضجة التى أثارها المؤلف الذى نريد التحدث عنه هنا والذى أسماه جوليان بندا (خيانة الكتاب)

دهش الأدباء لجرأة هذا المفكر وما اشتمل عليه مؤلفه من حملة هادئة على الكتاب جميعا

وهذه خلاصة ماجاء فيه :

يقول جوليان بندا أن الفكر العالمى أصبح فريسة النزعات الاجتماعية والسياسية ، وأن المفكرين الاحرار لم يعد لهم وجود ، وأن العصر الحديث لايطالب المفكر باستقلال الرأى وحرية البحث قدر مايطالبه بخدمة فئة محدودة وآراء متفق عليها . ونظريات مصطلحة مغرضة

فكتاب اليوم فى نظر جوليان بندا نزلوا عن استقلالهم وفرطوا فى شخصياتهم وخانوا عهد الفكر الحر الذى كان يجب أن يرصدوا جهد عقولهم للذود عنه

فالبعض منهم ينضوى تحت لواء حزب معين يعتنق مبادئه ويبشر بتعاليمه ويمعن فى الدفاع عنه ولو كان تطبيق تلك المبادىء والتعاليم يهدم الحقيقة البسيطة الظاهرة ، والبعض الآخر ينتصر لأمته ويتعصب لوطنه . ولا يقبل فى حق بلاده أى نقد يريد أن يسمو بعنصره فوق العناصر . وبثقافة أمته فوق الثقافات . وبحقوقها الخاصة فوق سائر الحقوق . يتملق شعور الجماهير ويلهب فيها غرائز التفوق والطامع والحرب والاستعمار غير متورع عن استخدام قدرته الأدبية وانشائه الرائع وفكره الوقاد لبث روح الحقد والاستبداد والتدمير

فالنزعات والميول السياسية كانت فيما مضى وقفا على رجال السياسة والحكم أما اليوم فقد انصرفت اليها أذهان الكتاب أنفسهم فأصبح لكل أديب رأى سياسى . ولكل مفكر حزب خاص . ولكل شاعر أو قصاص شعبة ينتمى اليها ويفخر بترويج الدعوة لها

فهناك كاتب محافظ وآخر جمهورى أو راديكالى . وغيره اشتراكى أو شيوعى . أما الكاتب الذى ينصب نفسه فوق الجميع محلقا بعقله الفاحص فوق الجميع . متناولا كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية بالنقد الحر البرىء . محتفظا باستقلاله ، مشرفا على معركة الحياة فى حيدة تامة . داعيا لسيادة الفكر المطلقة . فذلك رجل يندر أن تجده بين كتاب هذا العصر النفعى

ويشير جوليان بندا الي ظاهرة أخرى خليقة بالبحث والاهتمام . وهى أن الأحزاب تنصر على الدوام من ينصرها سواء أكان نابغة أم عبقرياً أم من ذوى العقول العادية التافهة . فما تكاد تخرج المطابع كتاباً جديداً حتى ينقسم النقاد فى الحكم له أو عليه انقساما طائشا مغرضا فالناقد الاشتراكى يكيل المديح لقصة الروائى الاشتراكى. والناقد المحافظ يستقبل كتاب الأديب المحافظ بأروع مظاهر التهليل والناقد الشيوعي يصخب ويحمل على الاربعة معا. وهكذا تنتشر فوضى التقدير الأدبى ويلتبس الأمر على الجمهور فلا تكون النتيجة غير انصراف كل الى حزبه والاشادة العمياء بما يخرجه رجال هذا الحزب من مختلف الابحاث والقصص ودواوين الشعر والرسائل والمقالات

ويرى جوليان بندا أن مصلحة الأمة أو مصلحة الحزب هى التى تملى على الكتاب آراءهم . أما مصلحة الفكر وحده فآخر ما يعنون به

ويضرب الامثلة الوافرة على ذلك فيقول . ان أدباء ألمانيا أصدروا فى بدء الحرب منشورا يحرضون فيه الشعب الألمانى على القتال ويصورون له الحرب كعمل انسانى ممتاز عظيم وكضرورة من ضرورات نشر الثقافة الجرمانية التى يجب أن تسود العالم بقوة الحديد والنار

وكذلك فعل الشاعر كبلنج والروائى شسترتون فى انجلترا

أما فى فرنسا فعواطف الحقد والكراهية من نحو العنصر الجرمانى والتبشير بسياسة الغزو والاستعمار والنعرة الجنسية السخيفة المزعجة قد وجدت فى أمثال (موريس باريس) و (شارل موراس) و (ليون دوديه)و(بول بورجيه) واضرابهم كتابا أشعلوا جذوتها فى صدور الفرنسيين وما زال معظمهم يروج لها ويعد شعبه لحرب جديدة طاحنة

ولا يقصر جوليان بندا هجومه على هذا الفريق بل يحمل على الكتاب الاشتراكيين والشيوعيين أيضا فينسب لهم نفس التعصب لمبادئهم التى استحالت فى نفوسهم عقائد دينية لا تقبل الجدل

فيندد بانسياقهم لرؤساء أحزابهم وعبوديتهم لشتى القرارات التى تصدرها تلك الأحزاب

فلو أفرط الحزب في تطبيق مبادئه افرطوا فى تبرير مسالكه . ولو ارتأى انتهاك حرمة الحرية ناصروه ونقموا على الحرية . ولو توسط واعتدل توسطوا مثله واعتدلوا فهم أبواق لأحزابهم وهم فى عرف جوليان بندا (دعاة) وليسوا كتاباً . . .

ولنا أن نتساءل ما تلك المهمة التي يريد بندا القاءها على عاتق الكاتب ؟
وما هى شخصية الكاتب فى نظره ؟

ولماذا يسمى أولئك الأدباء دعاة فقط ؟ ولماذايتهم كبارهم بالخيانة ؟

ان الكاتب فى رأى بنداهوالرجل المستقل . السابح فى اجواء الحقائق المطلقة الباحث فى اطراد وثبات ونزاهة واخلاص عن المثل العليا

هو خادم الحق والعدالة والجمال والحرية . هو الذى لا يضحى بنفسه من أجل افراد بل من أجل الانسانية . هو الذى يعمل لسيادة الفكر اذ الفكر يجب أن يسمن على شؤون البشر وأن يظل بمعزل عن الميول الحزبية . المشوشة المتخبطة القاسية . يكبح من جماحها . ويكسر من شرتها ، ويردها الى السبيل السوى . سبيل المحبة والرحمة والانصاف والحقيقة

وله أن يكون وطنى النزعة أو اشتراكى العاطفة . ولكن متى تبين له أن أمته نفسها عاتية ظالمة فباسم الحق والحرية يجب أن يثور على أمته ويفضح الظلم

ومتى تبين له أن الاشتراكيين يسيئون فهم مذهبهم ويسرفون فى تطبيقه اسرافا يتعارض ومطالب الحق والرحمة والعدل . فباسم الحق والرحمة و العدل يجب أن يقاومهم

تلك هى سيادة المفكر وسيادة الفكر .

وقد يعرض هذا الموقف صاحبه للاخطار . ولكن الكاتب الصحيح هو الدائم التاهب لاحتمال شتى ضروب العسف والذل والاضطهادعن طيبة خاطر وتقبل الموت بثغر باسم فى سبيل حرية الفكر والضمير

ان فولتير وقد شعر بالظلم المحدق (بكالاس) خرج على بيئته ودافع عن المتهم أحر دفاع . وأميل زولا . وقد أيقن ببراءة الضابط دريفوس لم يتوان لحظة

واحدة فى الخروج على أمته واتهامها بالتعصب والجور والانتصاف للضابط المظلوم فى تلك الرسالة الرائعة (أنى أتهم) .

وليون تولستوى — بطل الاشتراكية الروحى — ثار على الأنظمة والتقاليد جميعاً ونصب نفسه المدافع الجرىء الجبار عن حق الانسانية فى السعادة . وحق طبقات الشعب المستعبدة فى الحرية والمساواة

ورومان رولان ـ بطل السلم ـ لم يشأ ان يلوث يديه بدم أخيه الانسان ففر من خدمة الجيش . ونزح الى الأراضى السويسريه . وظل هناك يشن حربا قلبية هائلة على الحكومات المتمولة المستعمرة التى أشعلت نار الحرب الأخيرة فى أوربا

أولئك الكتاب وأمثالهم دافعوا عن حرية الفكر وحرية الانسان واستهدفوا للسجن والنفى والتشريد والموت . فادوا الأمانة أهلها وأوفوا بما للحضارة عليهم من فروض ولم يخونو العهد بل كانوا كتابا عظاما مخلصين !

تلك هى صفوة الآراء التى اشتمل عليها مؤلف جوليان بندا النفيس (خيانة الكتاب) وهى كما ترى دعوة حارة الى سيادة الفكر وحريته بل الى الحرية ذاتها من حيث هى قاعدة الحضارة والتطور

ولا ينبغى ان يفهم أدباؤنا مما تقدم ان انتماء الكاتب الى أى حزب هو خيانة للفكر . كلا

فمتى كان الحزب يبشر بفكرة الحرية فالانضواء تحت لوائه واجب والعمل فى سبيله نعم العمل ونعم الجزاء !! .

قصـــــــــة

مصرية

الخريف . . . .

قصـــة مصرية موضوعة

– ١ –

فتحت النافذة بيد مرتعشة فدخل منها الهواء كرجل . فاغمضت احسان عينيها نصف اغماضة واستنشقت طويلا وترنحت وانطلق من صدرها المكتنز العريض شبه أنين . .

ثم انحنت على الحافة وطوت ذراعيها المليئتين ورفعت رأسها وحدقت فى الفضاء

وكانت السماء صافية الزرقة . ترصعها النجوم المتألقه ، والشارع هادئاً والصمت عميقا ، والهواء يهز الآونة بعد الاخرى أشجار الحديقة البعيدة فيسمع لاغصانها حفيف مقلق رهيب

واستغرقت احسان فى تأملاتها وانقضت فترة طويلة . .

وبرز الزنجى من منعطف الطريق عارى القدمين مرتديا بدلته الصفراء الكامدة حاملا عصاه الطويلة يضرب فى الأرض كجندى مشرد معتوه

ولوح بعصاه بغتة واعملها فى المصباح فانطفأ وعم جزءاً كبيراً من الشارع ظلام

فوجمت احسان وزفرت . ولكنها استأنست بالظلمة المحيطة بها واطمأنت وعادت تطلق لافكارها العنان...

صوبت أنظارها إلى الشجرة الكثيفة المغبرة المتمايلة عن بعـــد ولاح لها عندئذ طيف عزيز . طيف جارها الجديد ، أمين افندى ، الرجل الشاحب الصموت الخمرى اللون ، الرجلى الملامح ، المتأنق المترفع المتحفظ ، ثم تقدم اليها على مهل ، واستوى فى بهرة خيالها واستقر هناك . فارتعشت وطربت لوجوده معها وسط

هذا الظـــلام وابتسمت له ولم تستطع حبس دموعها فانهمرت على خـــديها غزيرة متداركة

وذكرت كيف التقت به على الدرج مرار عدة . وكيف كانت تتحرك وتتلفت إذ تراه ، والصوت الناعم الرخيم الذى كانت تنادى به خادمتها على مسمع منه ، وضحكاتها الطويلة المشجعة والجهد البالغ الذى طالمـا تـكلفته لتودع نظراتها اليه كل ماتـكنه طبيعتها من دلال واغراء

ولـكنه لم يـكن ليحفل بها بل كان يغض من بصره ويفسح لها الطريق وينحنى فى احترام قائلا بلهجة جافة مؤدبة :

ـــ نهارك سعيد ياهانم

وكانت لاتلبث أن تهبط إلى أقصى الدرج حتى تتلفت متطلعة اليه وترمقه بنظرة مداعبة محرضة فتراه يشيعها بابتسامة ماكرة خفيفة ملؤها التهكم والاستخفاف فيتصاعد الدم إلى وجهها ويتزايد خفقان قلبها وتمضى فى سبيلها مسرعة لاتلوى على شىء

وبالرغم من ذلك فقد كانت تحبه ، وتـكبر منه فى نفسها هـــذا الاعراض وتتشبث به ، وتؤمل فى اجتذابه يوما ونيل رضاه

على أن مثل هذا الحادث كان يقع لها مع معظم الرجال . فهى منذ سنتين أو تزيد أى منذ بلغت الخامسة والاربعين من عمرها . لم تذكر أن ضحكة من ضحكاتها استطاعت أن تخلب لب فتى . أو أن لفتة من لفتاتها صادت أى شاب ، أو أن دعوة من دعوات عينيها استجاب لها أى رجل ...

كان الجميع يتبعونها نفس النظرة العابرة . ونفس الابتسامة الخفيفة الفظيعة بكل مافيها من معانى السخرية والازدراء

وعبثا تبذلت فى أحاديثها ، وتهتكت فى زيها ، وتملقت الشبان من أقاربها وأقارب صديقاتها ، بل عبثا حاولت العثور بينهم ولو على فتى شائع الوجه ، وضيع النفس ، مسلوب الـكرامة . يعيرها اهتمامه ويفهم ماترمى اليه ، ويبادلها الحب كذبا ويخدعها وتسخو عليه بالمـال الذى يريد ...

كلا . لم يكن أحد منهم ليرثى لحالها , أو يرضى بضياع جزء من وقته الثمين فى سبيلها ، أو يعتقد لحظة أنها كانت جميلة وصبية وفاتنة . وان نظرة واحدة من نظراتها كانت تسوق الرجال خلفها كالكلاب ...

أين ذهب الماضى ؟ .. وهل كان له فى يوم من الأيام وجود ؟ ...

لشد ما كان يهتاج اليأس أعصابها لما أن كانت تشعر وتدرك بسليقتها أن ماضيها المجيد لن يشفع لها ، وأنه مات واندثر وانها بدنوها من الشيخوخة انما تولد من جديد وتستيقظ بغتة على حياة غريبة شريرة لاعهد لها بها

وكان يروعها من هذه الحياة أنها نقيض الأخرى وأن الناس قد اجمعوا على أن العقل فيها واجب . والحكمة زينة ، والوقار جمال ، والاستسلام لقضاء الله نعمة ، والزهد خير فضائل الجسد والروح

حياة هى فى الحقيقة موت يجب أن ترضى به صاغرة ولو أنها ماتزال تتحرك وتتنفس وتعيش !

ولكن كيف تقاوم . بل كيف تستسلم وتخضع وهى المخلوقة الطلقة المرحة الوثابة التى لم يرزق أبواها غيرها فارسلاها على سجيتها فنشأت محبوبة مدللة . آمرة ناهية . تتطلع الى الترف والغنى ، وتنزع الى الجمال والسلطان ، ولا تغفر لامرأة أنها أوفر منها مالا . أو أبهى مظهراً . أو أعذب حديثاً ، أو أتم حسنا ، أو أوقع فتنة

هكذا عاشت وهكذا يجب أن تعيش . ومحال أن ترضى بالحياة الجديدة التى تلوح لها من خلال تلك الفضائل الخبيثة العابسة كقوة غاشمة لئيمة تريد أن تغدر بها وتدفعها الى التمهيد لفنائها بنفسها !

الفناء ... نعم ... ألم يبدأ شعورها العميق به منذ أيام ... لقد دخلت صالونها فجأة فلمحت لاول مرة بعض صديقاتها يتهامسن ويتغامزن ، ويبتسمن نفس تلك الابتسامة الساخرة ، وسمعت احداهن تعرض بشيخوختها ثم تشيح بوجهها وتخفى اضطرابها فى ضحكة حادة نفذت الى صدر إحسان كطعنة سكين !

وهاهى ... ها هى (خيرية هانم) صديقتها الوفية تصر على مناداتها حتى أمام الاغراب بـ « يا أم محمود » ، ولا تنفك تسألها عن ابنها وكم بلغ من العمر

ولماذا هو متبرم نفور لا يكاد يبدو أمام النساء أبداً؟ . . .

بل ان هذه الكنية — أم محمود — قد شاعت على ألسنة صويحباتها جميعا ، وذكر ابنها والاستفسار عن صحته وتقدير سنه أصبحت أشياء عادية لامفر لاحسان من سماعها انى ذهبت وحيثما اتجهت ..

ولقد سمعتها بالامس . . بالامس القريب أيضا . . سمعتها فى جملة لاذعة صريحة . . وممن ؟ . . منه هو . . من جارها . . من أمين أفندى . . من الرجل الذى تعبده وتعلل النفس بامكان الفوز به ، وتحرص على الظهور امامه بمظهر الصبا وتخشى أن هى تهاونت فى ذلك أن يزداد أعراضه عنها فتفقده ! . .

تفقده ؟ . . كلا . . كلا . . هذا لن يكون ! .

جالت هذه الخواطر فى ذهن احسان كومضات برق خاطف

وانبعثت فجأة من زاوية قصية فى الحجرة غمغمة عقبها زفير فغطيط فتقلصت شفتا احسان واستدارت وانصتت قليلا ثم تحولت وهزت أ كتافها وبصقت فى الشارع . . .

وهبت نسمات لطيفة جففت دمع عينيها فتنهدت تنهدة طويلة وتحسست بيدها علبة السجاير الموضوعة على المنضدة المحاذية للنافذة فتناولتها وأخذت منها سيجارة وأشعلتها وبدأت تشتف منها بنهم وترسل ذوائب دخانها المعقدة فى الفضاء

وامتنع الغطيط بغتة ، وتقلب جسم ضخم قلق فاهتزت أعمدة السرير وانطلق من جوف الحجرة صوت أبح هزيل يقول فى لهجة متوسلة خائفة :

— إحسان . . انت جنبى والا لأ ؟ . . . ليه . . .ليه فتحت الشباك ؟ والنبى تقفلى . . اقفلى أحسن آخد برد . .

فرمت احسان بسيجارتها ، وأغلقت النافذة فى عنف ، ومشت الى سريره متباطئة متثاقلة ، فاستلقت عليه وعقدت أصابعها خلف رأسها ومضت تنبش بعينيها الظلام

ومرت برهة طويلة

وعاد الغطيط يدوى اشبه بخوار ثور فهدأت دقات قلب إحسان وتحفزت

وأمالت قدميها بحذر واستندت الى ذراعها ثم انسلت من الفراش واستوت واقفة ترقب حركات زوجها وتزن وقع غطيطه لتستوثق من انه لن يفيق

وبعد لحظة سارت بخطى وئيدة وقلبها يخفق ويداها ترتعشان مادة ذراعيها تشق بهما الظلمة كما يشق السابح الماء. ولكن ردفها الثقيل العريض اصطدم بمصراع الباب فصر صريراً مزعجا فتمهلت وتنفست ثم استطردت السير على أطراف قدميها مندهشة من نفسها مبهوتة لا تعلم على وجه التحقيق ما الذى أقامها ثانية ولأى سبب تسعى وعلام كل هذا الاحتراس وأى شىء ألم بها الليلة ؟ ...

ولكنها مع ذلك خرجت من الحجرة واجتازت دهليزا قصيرا وبلغت احد الابواب ففتحته فى رفق ودخلت. ثم رفعت يدها وتلمست مكان الزر فادارته فسطع النور فجأة وملأ أرجاء الغرفة. فاجفلت احسان وتراجعت خطوة ووقفت...

وكان فى الغرفة ثلاثة أسرة. احدها صغير ممددة عليه فتاة، وآخر كبير يرقد فيه صبيان، وثالث ضيق طويل كمحفات الجرحى أو أسرة المستشفيات يضم جثمان شاب رائع الحسن عالى الجبهة. اسود الشعر، دقيق الحاجبين، تلقى اهدابه الطويلة على وجنتيه المتوردتين ظلا متراقصا بديعا

وكانت الغرفة مكسوة حيطانها بالورق الاحمر عليه رسم زهرات كبيرة سوداء اوراقها ذهبية الاطراف لامعة

وكانت فى احدى الزوايا صينية مستديرة من نحاس اصفر ـ نقشت عليها رسوم مصرية قديمة ـ تقوم على قاعدة خشبية قصيره وتحمل اطباقا بعضها قذر حط عليه الذباب فيه فضلات طعام وفتات خبز وقشور فاكهة

فقطبت احسان حاجبيها وتقدمت توا نحو السرير الضيق الطويل وحدقت فى الشاب الراقد ثم انحنت تتفرس فيه . . .

وراعها منه وضوح قسماته، وانتظام أنفاسه. وظل أهدابه، وابتسامة الحلم الحائرة على شفتيه والجمال الهادىء الواثق المنسكب عليه. فضمت شفتيها وتولتها رعدة...

وعلى حين فجأة حانت منها التفاتة فأبصرت قدمى الشاب ممشوقتين ناصعتين لم

تجدا لهما فى السرير المستطيل متسعاً فتدلتا خارجه فهزت احسان رأسها وأنعمت النظر فى القدمين العاريتين وصرت اسنانها وانبعثت من فمها المجعد زفرة ...

واستدارت كأنما تحركها قوة خفية ومشت بقدم ثابتة فاطفأت الأنوار ثم عادت الى فراشها واستلقت عليه وحاولت أن تنام ...

وبرغم أنها أدركت الآن سر ذلك البـــاعث الذى حفزها لترك سريرها والذهاب الى حجرة أولادها متسللة كاللص الحذر ، وبرغم الراحة الغريبة التى أحست بها فقد ظلت حائرة مذهولة تغالب الارق عبثا ولم تستطع اغماض عينيها إلا بعد ان نفذت الى الغرفة أولى أشعات الشمس !

— ٢ —

استفاق الزوج نحو الساعة السابعة ونادى بصوته البائس الوجل :

ـــ احسان . . .

فلم يجبه أحد . فمد عنقه المحتقن الغليظ فأبصر زوجه مستغرقة فى سباتها فتثاوءه وتململ وفرك عينيه المنتفختين فتلوثت أصابعه بالمادة الصديدية اللزجة فمد شفتيه اشمئزازاً ومسحها بكم جلابيته ثم انحنى وجعل يبحث تحت السرير عن جواربه وهو ينفخ نفخات الضجر وعدم الاصطبار

وتناول المنشفة وذهب يغسل وجهه ثم قفل راجعا على أطراف قدميه فتمشط وتطيب وبحركة آلية حطت يده المعروقة الغليظة على مقعـــد صغير وأخذت النظارة وثبتتها على أنفه

ومضى يرتدى فى بطء ملابسه مبتسما لنفسه فى المرآة ، متحسسا ذقنه الحليقة بيده ، راضيا عنها ، مفكراً فى مرءوسيه فى الديوان . وفى عظيم احترامهم له . وفى لذة العبث بهم . بل فى لذة الرعب الذى سوف يبدو على وجوههم ويعقد ألسنتهم لما ان يدق الجرس ويستقدم واحدا منهم ويحاول التهويش عليه ناسباً اليه مالم يفعل أو مبالغا فى تقدير نتائج هفوة بسيطة بدرت منه . . .

وابتسم لنفسه فى المرآة ثانيا وأمال طربوشه وأحكم وضعه ثم حمل منشته البيضاء وخرج يتهادى الى فناء الدار .

وجاءته الخادم بأطباق الفول المدمس والبيض والمربة والقشدة فأكل بشهية

وشرب ثم تراخى فى مقعده لحظة وتجشأ ومسح يديه بالفوطة واستوى واقفا وقال بلهجة متزنة جليلة :

— على بركة الله .

وانصرف الى الديوان

* * *

استيقظت احسان نحو الساعة العاشرة مصدوعة الرأس . ملبدة الذهن ، منهوكة القوى . فأسرعت من فورها الى الحمام وأرسلت الدوش على بدنها الخامل تجلد بالماء البارد أعصابها ، وتستفز دماءها وتنضر بشرتها الرخوة الباهتة . ولم تكد تخرج وتتناول طعام الافطار حتى كانت قد استعادت نشاطها تماما فجلست الى منضدة التواليت وبدأت جهادها المقدس اليومى . . .

وكان أولادها فى الحجرة النائية يضجون ويمرحون ، وصيحاتهم المتعالية الحادة تختلط بقهقهتهم البريئة الرنانة وتخنق الصرخات المذعورة المؤنبة التى كانت ترسلها فى الآونة بعد الآخرى « دادا » النزام ، بلهجتها الزنجية المضحكة .

وغمست احسان أصابعها فى حق صغير — وكان عليها ان تقوم بهذا الجزء من مهمتها ليلة أمس ولكنها أهملت . . . — وأمرت الدهان الأبيض الناعم على جلد خدبها الخشن وتوخت مواضع التجاعيد فجعلت تدلكها وتسويها وترققها ثم عمدت الى شعرها الاشقر بفعل الأوكسيجينيه فضمخته بالعطر وصففته وكسته بشبكة خاصة ليتسق ويتساوى

وانطلقت بغتة صيحة مزعجة عقبها بكاء طويل فاهتاجت إحسان وتطلعت الى الباب قائلة :

— برضك بتضرب مصطفى يامحمد . . . والنبى حاجى أموتك . . .

فسمع صوت منتحب رقيق يقول :

— دا محمود اللى ضربنى . . .

فلمع بصر احسان وارتجفت وصرخت :

— محمود ؟ . . . الله . . . الله ياسى محمود كان بتشطر على الواد الصغير . . . يا أبو طويله . . . ياوحش . . . دا مصطفى برقبتك . . . سامع . . . برقبتكم كلكم

وساد الصمت !

واستأنفت احسان عملها وهى تزفر ...

وأمعنت فى دلك خديها حتى جف الدهان ثم كحلت عينيها وخططت حاجبيها وطلت وجنتيها وشفتيها بالحمرة وتفرست فى تقاطيع وجهها فى المرآة . وخامرها بغتة إحساس مبهم بالحيرة ...

شعرت شعوراً غامضاً ، طالما عكر عليها اصباحها ، أنها كانت فيما مضى أمهر فى تطلية وجهها منها الآن . كانت تدرك بسليقتها مقدار ماتحتاج اليه وجناتها وعيونها من أصباغ ، وتحسن وضعها والتوفيق بينها بحيث يبدو جمالها كأنما هو طبيعى أصيل . اما اليوم فقد اضطرب بصرها واختلطت عليها الظلال والالوان ولم تعد تدرى أيجب أن تخطط حاجبيها أيضاً أم ترقق منهما ، وتكسو خديها بطبقة حمراء اخرى أم أن فيما وضعته الكفاية ...

واستولى عليها شعور عميق بالكمد والحسرة . وصعدت نفساً مستطيلا واطرقت هنيهة . وفيما هى تفكر تحركت أصابعها ببطء ومن تلقاء نفسها تصاعدت كأصابع عمياء تتلمس أدوات الزينة ثم امتدت إلى حق الحمرة الصغير وجعلت تراكم على خديها الطلاء ...

ورنت أحسان بطرفها الى المرآة فبهتت .. بهتت .. إذ خيل اليها أن محياها أصبح غضا متالقاً جميلا كأنما قد دب فى أصابعها سحر ساحر استطاع أن يرد عنها كيد القضاء فافترت شفتاها عن ابتسامة هانئة ثم أمالت رأسها وصعرت خديها وذكرت وهى تهزأ من نفسها ومن خوفها أن ماوقع لها الآن هو عين ماوقع بالأمس وأنها ماتزال جميلة ، وأن ماأتتابها الساعة من حيرة وحسرة كان محض خيالات وأوهام ...

وولد فيها هذا الاحساس على غير عادة شعوراً قويا بالكبرياء والسلطان ، وايمانا مطلقاً بجمالها ، ورغبة جنونية فى التمتع بهذا الجمال وحمايته من كل خطر وإذ ذاك لاح لها مرة اخرى طيف امين افندى مقترنا بطيفها وهو يخترق الحجرات ويتسلل تحت جنح الظلام كلص ، فاتقدت عيناها واستسر جبينها ونهضت لفورها ومشت الى حجرة ابنها محمود ...

— ٣ —

وكان محمود مستلقيا على كنبة معتمدا رأسه بيده يطالع فى كتاب وخصلات شعره الاسود الناعم الغزير تتدلى على جبهته العاليه الناصعة وتشوش على عينيه الرماديتين القاتمتين البديعتين فيردها الى الخلف بحركة عصبية رشيقة فيطفر معصمه العارى من كم بيجامته الفضفاض ابيض املس ساطعاً كشعاع من نور

وكان جسمه المتسق النحيف ممددا فى رخاوة حالمة كغصن لين حى . تلفه بيجامته الرقيقة البنية اللون ، ويبرز منها وينعكس عليها هنا وهناك . بياض وجهه ويديه وقدميه كاضواء ساحرة موزعة على هذا البدن الغض

وكان منهمكا فى المطالعة واصابعه فى فمه يقرض اظافره باسنانه واهدابه الطويلة ترف اللحظة بعد الاخرى وعيناه البديعتان لاتفارقان صفحة الكتاب .

ودخلت أحسان الغرفة ولكنها وقفت وقد انعقد لسانها !

لم يشعر بها ولبثت هى فى مكانها شاخصة اليه تهز رأسها هزا متواصلا خفيفا وتعض على شفتها الغليظة السفلى . . .

وحانت منه التفاتة فابصرها فمرت على وجهه سحابة . ثم اعتدل فى جلسته ودفع الكتاب بمرفقه والقى حواليه نظرات محيرة شاردة ولم يتكلم . فتقدمت اليه على مهل وقالت بصوت حاولت جهدها خنق الرعدة الى تتمشى فيه :

ـ مين قال لك تضرب مصطفى ؟ . . .

فلم يرفع اليها طرفه وقال وهو يقرض اظافره :

ـ اعمل ايه . . .بيلعب ويزعق ويضرب اخوه كان . . . وأنا . . . عايز اقرأ . .

فتضامت أجفانها واسرعت انفاسها ودنت منه خطوة وقالت :

ـ وكان بتقول انك ضربته ؟ . .

فلوح محمود بذراعيه وقال :

ـ دانا أول ماالمسنه راح معيط . . . دا واد كداب ومدلع وقليل الادب . .

فصاحت وهى تتراجع :

ـ ايه ؟ . . . ايه ؟ . . . ايه ؟ . . .

فردد محمود وهو يشيح بوجهه .

ـــ أيوه ... كداب ومدلع و . . .

فقاطعته احسان وضحكت نصف ضحكة ساخرة صفراء اهتز لها صدرها اهتزازاً شهويا مخجلا وقالت :

ـــ النبى ؟ . . .

فوجم محمود وصمت . ولكنها اقتربت منه ووضعت يديها فى خاصرتيها وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار ثم انفجر بغته غضبها الهائل المكظم فانفتحت عيناها وحملقتا فى ابنها وقدح منهما الشرر وانطلقت تصرخ وقد برزت تقاطيع وجهها القاسى دميمة شريرة مخيفة تقبض عليها وتعصرها الغضون :

ـــ هو انت أبوه لما تضربو ؟ ياخى كسر ايدك وكل ايد تتمد عليه . . . دا برقبتك ... وإلا عاملى هنا ريس ياسى محمود ... ياخى جاك نيله ... جاك نيله . . . امال لوكنت بحبحت فى الشهادة كنت عملت ايه ؟ .. كنت تدبح بسيفك ؟ . . مش كده ياخايب ؟ . اتكلم . اتكلم . . خرست ليه ؟ ..

وكانت، ممسكة بذراعه تهزه هزاً عنيفاوهو مستسلم لها ، ورأسه المطرق الذليل يتطوح وفق حركتها ، وشعره اللامع يتناثر ، ووجهه الصبوح يقطر دما وعينه الخامدة المظللة لاتجسر على رفع بصرها مخافة ان تلتقى بعيون منيرة ومصطفى « وداد النزام » والخادمه والطباخ الذين اقبلوا جميعا على صراخ احسان واصطفوا خلفها يشهدون الحادث وكلهم صامت مضطرب وجل !

وتلفتت احسان ورمقتهم بنظرة صارمة شامخة وقالت :

ـــ فيه ايه ؟ . . . ياللا . . كل واحد لشغله . .

وانصرف الطباخ وتبعته الخادمة وهى تنظر الى محمود خلسة وتكاد تتعثر بالمقاعد وتسقط . . .

وأشارت دادا النزام إلى الاولاد بالخروج وتقدمتهم وهى تمص شفتيها مصا متواصلا اظهار لشفقتها وحزنها .

وتخلف مصطفى ودار على نفسه وصفر ثم اقترب من اخيه وأمر سبابته على انفه كعادته فى اغاظة البكم وقهقهه مسروراً بفوزه ومضى يعدو خلف النزام

وظن محمود أن احسان ستلحق بهم ولـكنها ظلت مكانها تجيل الطرف فى أنحاء الغرفة وتلوى اصابعها وتلهث كمن يبحث بفارغ الصبر لاعصابه المهتاجة عن غذاء

وفجأة وقع بصرها على أشياء تلمع ملقاة فى زواية بعيدة فما أن رأتها حتى اومضت عيناها فاستدارت وأسرعت اليها ومدت ساقها البدينة ودفعت باعقاب السجاير إلى وسط الحجرة وانحنت تلتقطها ثم استوت وقد تدفق الدم الى وجهها وكرت على ولدها صائحة صياحا اجح مزعجا :

ـ كان . . بترمى السجاير على الارض ... الارض الممسوحة الصبح . . . الارض اللى انضف من وشك يا . . ياوسخ ... ياقليل الترتيب ...

وانطلقت تجوب أنحاء الغرفة كمعتوهة وأبصارها المحددة المنقبة تأخذ الاشياء اخذا فى لمحات سريعة تستحث ثوران أعصابها ، وتشيع فى صوتها الغلظة والحشرجة ،وتصب فى عباراتها من هجر القول وفحشه ما كانت تحصل له لذة تفوق لذة الغضب والتشفى

ورأت قيصا مدلى على حافة السرير بقرب الحائط فاختطفته . وصديريا ملقى على الـكنبة خلف محمود فاختطفته ايضا وجوارب مطروحة بجوار المـكتب فالتقطتها وجاءت تلوح بها جميعا امام الشاب وهى ترعد وتردد :

ـ ياقليل الترتيب ... هى دى أودة مكتب . . دى مزبلة ..هنا ...الحاجات دى محلها هنـا . ..

ومضت تعلق الصديرى والقميص على المشجب ، وتضع الجوارب فى درج الخزانة ، وتحكم التعليق والوضع، وتطوف بالغرفة متنقلة من السرير الى المشجب فالخزانة فالمـكتب ترتب الاشياء وتنظمها وهى تزفر ، وقد غص وجهها بالعرق وتساقطت نقطه المالحة فى عينيه فدمعتا ، وسال الـكحل واختلط بالحمرة على خديها فبات منظرها مزريا غريبا يبعث فى النفس الخوف والضحك والاشمئزاز

وكان الاولاد قد عادوا فاجتمعوا خلف الباب ولم يجسرو على الدخول فاطلت رؤوسهم المزنحة من فوق بعضها البعض وفى مقدمتها رأس مصطفى المستدبر الصغير

بشعره المموج الباهى الذى تسميه إحسان شعر اولاد الملوك . . . .

ولم يفارق بصر محمود الارض طوال فترة ثوران والدته .

وكان يلمح اقدامها فقط . . . اقدامها الكبيرة الثقيلة المتنفخة بعض الشيء ذات العروق الناتئة والجلد الرخو ، تقفز وتتراكض كاقدام صبية نشطة وتولد فى نفسه ضربا من الذهول يمازجه الاعجاب والرعب

ولم تكن هذه اول مرة احتمل فيها محمود من صرامة والدته وغطرستها وضيق ذهنها وولعها الجنونى بالنظافة والنظام ماضيق عليه فى البيت افق حياته واغراه بالعزلة والتأمل والصمت

فقد كان معتادا كل هذا وكان قد بدأ يشعر به ويدهش له ويتقيه منذ ثلاث أو اربع سنوات . .

اجل منذ ثلاث أو اربع سنوات وهذه المرأة — التى كانت مثال الحب والعطف والحنان ، والتى كانت تعبده عبادتها لمصطفى الان — لاتنفك تحوم حواليه وتبث العيون عليه ، وتطارده ، وتحاسبه على ابسط هفواته ، وتعد عليه مسراته وتتحين الفرص لتأنيبه ولومه كأن لاشاغل لها فى الحياة الاه ولا هم إلا ان تعكر عليه صفو عيشه . .

اجل كانت تسرف الى ولده فى الشكوى منه ، وتبالغ فى وصف اخطائه وتوغر صدر زوجها المطواع الضعيف حقدا عليه ، ولما ان رسب فى امتحان البكالوريا جعلت تشهر بغبائه وتندد بكسله وترشقه بالنكات اللاذعة وتعيره

كانت تأبى الخروج بصحبته الى المخازن او الملاهى كأن فى سيره او جلوسه بقربها اكبر عار لها . . .

بل لقد حرمت عليه أخيرا الظهور فى صالونها امام صديقاتها الهوانم . وكان مجرد اجتيازه الردهة يوم « المقابلة » الماضى ووقوع بصر احدى الزائرات عليه كافيا لنعته من والدته بابشع النعوت ورميه بالوقاحة والسفالة وانحطاط الخلق . .

ولقد حدث منذ شهر ، ذات مساء وباب الصالون مغلق والنسوة فى الداخل يمزحن ويتضاحكن ان خطر لمحمود ان يدنو من الباب وينصت برهه الى مايقلن . ولشد مادهش إذ سمع احسان تمتدحه . وتشدو بحبها له وتغرق فى أطناب سجاياه

وترسم منه صورة كاملة للاخلاق الفاضلة وتقسم اغلاظ الايمان انه لم يبلغ الثامنةعشر بل انه مايزال صغيرا ، وان جسمه اكبر من سنه ، وانه لم يناهز بعد ربيعه الخامس عشر . . .

حار الفتى فى تعليل هذا التناقض والكذب ولكن شعوره بالاضطهاد كان قد احاله سوداوى المزاج ، متبلد العقل . كثيف الذهن ، متجهما مستوحشا نفورا لايتكلف عناء التفكير الطويل فيما يحيط به ولا مشقة الاهتمام الجدى بدروسه بل ينطوى على نفسه ويلوذ بصمته ويحتمى فى عزلته ولايلتمس السعادة فى غيرجلسة هادئة يقضيها مع ابن عمه كمال او رواية غرامية يطالعها او حديث موجز قلق يتبادله — فى غفلة عن والدته — مع الخادمة الفلاحة « ام سطوحى » التى حملته بين ذراعيها ، وارضعته من ثدييها — ذات الضحكة الناضرة الحيية والصوت المرتعش الذليل ، والعيون الخفرة السود التى لا تكاد تتطلع اليه حتى يرتجف ويراها ترتد كليلة كأنما هى قد حدقت فى الشمس ! . . .

تلك كانت حياته التى الفها ولم يعد يتبرم بما فيها من استبداد ونبذ ومهانة وازدراء . وتلك كانت والدته التى لم يعد يدرى هل هى فى الحقيقة والدته وهل هو حقا ولدها أم انه ـ كما يصور له خياله المضطرب الساذج ـ شريد أولقيط أو ابن سفاح أو ابن مطلقة زانية عهد به والده الى هذه المرأة القاسية تربيه وتقتص منه للجرم الفاضح الذى استولده؟!

قد يكون هذا ؟ . . لم لا . . لقد طالما عصفت برأسه هذه الفكرة وبرحت به وأقضت مضجعه وتردته فى الطرقات حيران مهموما بائسا ، يرتاد بيوت الدعارة ليلا بمفرده ولا يستريح الا الى معاشرة بعض البغايا الطاعنات فى السن اللواتى يخيل اليه انهن هادئات رقيقات لطيفات على شىء من ذلك الحنان العميق العذب الذى عبثا حاول بمعسول الكلم ، وحلو النظرات ، والتفانى فى الطاعة والخضوع ، احياءه فى قلب احسان

وها هى نفس الفكرة تحتل خياله الآن وتنتشر فى رأسه وتنمو . . الآن لا سيما الان . . اذ هو لم ير قط احسان بالصورة التى يراها عليها الآن . .

اجل كانت تضطهده ولكن تحت ستار المكر والخديعة ـ باصابات متباعدة

ووخزات خفية . وضروب من اللؤم ماهرة وافانين من الحيل تستنبطها لفورها وتحسن حبكها ولا تنفذها الى مشربة بالحيطة ، مفعمة بالتحقير وعدم الاحتفال

تلك كانت طريقتها فى التنـــكيل به واخضاعه وانزاله على حكمها فى كل ما تريد ولـكنه لم يشهد منها أبدا هذا الشر الصريح المخبول ، وهذه القسوة الفظة المنـكرة . ان فى صرخاتها لبغضا ظاهرا فظيعا لم يعهده فيها من قبل وان فى حركاتها ولفتاتها لارادة واضحة فى الحاق أشـد صنوف الأذى به ، بل ان فى عينيها المحمومتين لبارقة عزم جديد مخيف . . . ترى ؟ ما الذى يجول بخاطرها وماذا تريد منه ؟ . . . كلا . . . ليست هى احسان كما أنها ليست والدته . لقد تنـكر كل شىء فيها . انها لوحش . وحش هائل كريه فى صورة امرأة طالما ضمته الى صدرها وهو طفل واسمعته خفقان قلبها ، وطالما روى حواسه من عطرها الفياح ومن أريج بدنها المخنق المسكر الحار . . . .

ورفع بصره الحالم اليها والتوت زاوية فمه النائىء القرمزى فى ابتسامة مسكينة متوسلة ممزقة ، وارتعشت أهدابه الطويلة فالقت على خديه ظلالها القاتمة الساحرة وبسط كفيه ، واشرأب بعنقه ، وحاول جهده أن يتكلم ولـكن الألفاظ اختنقت فى حلقه فغمغم غمغمة لامعنى لها .

وكان اذ ذاك رائع الجمال ، روعة فاجعة اليمة لم يسبق لاحسان ان أحست بها فشخصت اليه وارتجفت ، وخيل اليها ان جسمها كله ينحل ويتهاوى ، وان روحها تهفو اليه ، وانها تدنو بوجهها منه وتسبل عينيها فى نشوة غريبة وتفتح شفتيها لتقبله . . .

وشعر منها بهذا العطف الفجائى فنهض ولـكنه ماأن استوى على قدميه واتجه نحوها وأبصرته رجلا . . . رجلا كاملا جميلا مديد الجسم عريض الاكتاف ، مفتول العضل ممشوق القد . أعلى قامة منها ومن والده حتى زايلتها النشوة ولمعت عيناها ودفعته عنها بغلظة وعنف وصاحت :

— إبعد ! . .

فحدق فيها مبهوتا ، وفغر فاه كالأبله وتراخت ذراعاه وسقطتا

وفى تلك الساعة . فى تلك الساعة فقط ، استطاع ان يقرأ فى عينيها كل ماتكنه

له من حقد وبغض . وكأن هذه الصيحة وتلك الدفعة قد هزته من خموله، وأيقظته من سباته وبددت السحب المتكاثفة حوله فاحس بضياء وهاج يغمر عقله ولمس الحقيقة عارية وفطن الى كل شيء وأدرك مايجب عليه فعله وما تريد احسان منه ولا تجسر على مصارحته ولا مصارحة نفسها به فتقهقر بضع خطوات ثم أطرق واختلج وبكى

واكتفت احسان بما رأت وهزت كتفيها وخرجت مسرعة

* * *

وفى المساء أعد محمود حقيبته ولم يودع (أم سطوحى) وانسل من باب الحديقة الخلفى دون ان يشعر به أحد

ومضت سنة طويلة وهم لايعلمون الى أين ذهب

قصـــــــــص

ملخصة

قوى كالموت !

Fort Comme la Mort

لجى دى موباسان

جى دى موباسان من أشهر القصاصين الفرنسيين وهو معروف لدى القراء فى مصر وقد ترجم له الكثير من القصص الصغيرة الشائقة . وهو من زعماء المذهب الواقعى (الريالسم) . وفنه تصوير دقيق حى للغرائز والشهوات والاخلاق البارزة الشائعة التى تميز بيئة عن أخرى وعنصراً عن سواه . ولكن هذه الظواهر لم تكن تكن وحدها مادة فنه فقد ارتفع موباسان فى قصصه الكبيرة الى ذروة الفن التحليلى النفسانى وتناول بالدرس والوصف أزمات الوجدان المضطربة المعقدة . وهذا الجانب من فنه يكاد يكون مجهولا فى مصر وهو الذى يبرز بروز ناصعا فى القصة التى نلخصها اليوم والتى كتبها موباسان كما ينظم شاعر موهوب قصيدة من الشعر الخالص

فنان كبير القلب سامى الوجدان . لطيف العشر ، ولوع بالعواطف الملتهبة الصادقة ، والأحلام العذبة الرائعة يبحث عن الجمال وتنقضى حياته فى عبادته وتنصرف جهوده الى ابرازه للناس فى ملح فنية هى غاية مايطمح اليه من عزاء . مديد القامة فى رجولة مكتملة ساحرة . تسبح فى عينيه الفاترتين خيالات مبهمة فتستسر أجفانه كأنما قد أخذته سنة الكرى . ينظر اليك فتنفذ نظرته الى صميم قلبك وتحملك الى عالم مجهول فيه من المفاتن مايقصر عقلك العادى عن تصوره

هو كهل وخط الشيب رأسه ولكن روحه الساذجة روح طفل تطل على الحياة فى فضول دائم التجدد

ذلك هو المصور النابغة أوليفييه برتان الذى طبقت شهرته باريس وأقبلت عليه العقائل النبيلات يتبارين في أيهن تظفر بصورة لها من صنع يده

وكان خاوى النفس الامن حب فنه وحب الجمال . لم يعكر مجرى صفاءه احساس دافق عميق . ولم يعرف فؤاده حتى الساعة ذلك التعلق بعاطفة فذة واحدة يستلهمها القوى المعنوية ويهرع اليها ساعة الانتاج كمعظم الفنانين

وعاش بين رفاقه المصورين والنسوة الجميلات من الخليعات أو أنصافهن اللواتى كن يعرضن أمامه أجسامهن نماذج للتصوير مقابل بضعة فرنكات فانطوى على نفسه وأودع شعوره الفياض جوهر قلبه ومضى فى سبيله يعمل بجد واجتهاد حتى فاز بالمجد الذى طالما تعلل به أيام الأمل والصبا

وكاد وجدانه يستقر ويرضى بهذا اللون من الحياة يلمع أمام عينيه متشابهاً مكمداً مضجراً لولا أنه دعى ذات يوم الى قصر الكونت دى جيلروا وعهد اليه بتصوير الكونتس قرينته احدى فاتنات باريس

وكانت أمرأة على جانب عظيم من الجمال . رقيقة الاحساس . رضية الخلق طيبة سمحة ، فى عينيها الهادئتين حزن كمين وفى حديثها الخلاب ضرب من اليأس المتواكل وعدم الاحتفال

كانت ثرية مرفهة ، موفورة العزة ، أبية شامخة . يحف بها المعجبون ، وتتناثر عليها آيات الثناء من كل صوب . ألا أن أوليفييه شعر لأول وهلة بما يجول فى نفسها من لواعج خفية . وما يضطرم فيها من عواطف لاتجد لها أى منصرف فترتد ، وقد ازداد اضطرامها وسطع بريقها من خلال العيون الحزينة الوسنانة الهادئة

رسم لها المصور صورة بديعة أقر الجميع أنها خير عمل فنى تتمثل فيه شخصية الكونتس بأجلى مظاهرها . وجعل يتردد على القصر وتوثقت بينه وبين المرأة عرى الصداقة وأحس على دهش منه أن هناك قوة خارقة تدفعه لمشاهدة الكونتس والجلوس اليها والاستمتاع بحديثها والتملى من سحر عينيها . وشعر بأنه يزداد بالقرب منها قوة على قوة وان حاسته الفنية تستدق وتنعم ، ونظرته الى الحياة تتهذب وتسمو وتنفذ الى الأعماق

فاستعذب الجو الجديد الذى حبته به المقادير كنعمة غير منتظرة وأشربه وجدانه وراح يقف عليه كل ماوسعته أحلامه من سعادة وهناء

كان يخيل اليه أنه لم يعش حتى هذه الساعة وأن ماصادفه فى طريقه من جمال لم يكن غير وهم بددته هذه الحقيقة الفاتنة

وكيف لا تذهب بلبه فتنة هذه المرأة وهو الذى قضى شبابه يبحث عن المرأة الكاملة ، المرأة التي تجمع فى اطواء روحهافضائل الأنوثة من ملاحةوطيبة ورقة ، وفضائل الرجولة من استقامة ونزاهة وصراحة واخلاص . وها هو الآن وقد أصاب الهدف وعثر على الضالة المبتغاة يلقى عصاالترحال ويقنع ويحاول بكل ماأوتى من جاذبية الفن والرجولة والصدق ان يلهب فى كيان تلك المرأة العاطفة العظيمة التى ظلت تعذبه السنين الطوال

وكان زوج الكونتس رجلا ارستقراطياً جامد الحس ، بارد المزاج . يهتم بالشؤون السياسية وحدها ولا يعير زوجه التفاتاً . وهو على جموده وغطرسته وعبادته التقاليد وذهنه الضيق المحدود يضيف الى ذلك أنانية بشعة تنفر منه قلب امرأته الولوع بتبادل الفكر والاحساس

كانت هناك هوة سحيقة بين الزوجة والزوج ترغم كلا منهما على العيش بمعزل عن الآخر وتنمى فى فؤاد الكونتس تلك العواطف الدفينة التى تتغذى الأنوثة منها وتقوم عليها ولا تزدهر الا بها

وعبثاً حاولت الزوجة أن تجد فرجة تشرف منها على نفس قرينها . فالزواج فى نظره كان محض شركة يفرضها المجتمع وتأمر بها التقاليـــد . أما الاتصال النفسانى والاندماج الفكرى والتلاؤم الخلقى فآخر ما كان يمكن أن يخطر على بال الكونت وآخر ماأصبحت الكونتس ترجوه من حيـاة البيت ونظام الاسرة

على أنها لم تكن لتبدى لزوجها أى كره أو اعراض ولم تكن لتتبرم به أو ترفض تأدية ماعليها من واجبـــات اذ المجتمع القائم على ستر الفضائح وخنقها فى المهد والتظاهر بالتفاهم والوفاق كان يحرم عليها أن تنتقض وتثور وتحطم أغلالها وتنطلق

وكانت لها ابنة تدعى آنيت تحبها الحب كله . وتخشى أن هى تمردت وتركت

البيت أن تنتزع منها فلذتها الوحيدة وأن يرمقها الناس بعين الاشمئزاز والسخط

وهكذا احتملت جفاء زوجها . وانصرافه عنها وبدت فى الحفلات وكأنها المرأة المتمتعة الراضية التى لاتقع أبصارها على شىء إلا وتفوز به على الفور

ولكن أوليفيه لم يخدع بهذا المظهر واستطاع بصره الدقيق أن يكتنه سره تلك الروح الحائرة وان يمسح عنها الزيوف ويخرج بها من حظيرة الاوضاع الاجتماعية الملفقة إلى فسحات الحرية والنعيم

* * *

طارحها الهوى ذات يوم فثار ثائرها واستنكرت منه هذه الجرأة وكادت تغلق فى وجهه أبواب قصرها ولكن الفنان كان رحب الصدر جم الاحساس عذب العبارة مدلها حيران تبدو على وجهه أمارات الضنى ويرتسم على تقاطيعه ذلك الاسى العميق الذى كانت تحسه المرأة أيضاً فى نفسها

رأته جاثيا عند قدميها يتوسل ويستجدى ويلثم أطراف ثوبها ويدعوها لانقاذه من الوهدة التى لابد إن صدفت عنه أن يتردى فيها

واغرورقت عيناه بالدموع وجعل يفيض عليها بما حشدته الايام فى قلبه من كنوز الاحساس ويلوح لها بالحياة المرحة الطليقة التى تبسم لهما آفاقها عن بعد ويصور لها ذلك العالم الجديد عالم النسيان والشعر الذى لا يقاس بكل مافى قصرها من مباهج الترف ومناعم التحضر الباطلة

وكان بارعا فى تصويره صادقا فى نبرات صوته ساحراً فى لون وجهه الشاحب الحزين

فأشفقت عليه ووقع من نفسها ألمه وعز عليها أن ترسل اليها المقادير الرحيمة كل هذا الحب ثم تعرض عنه وتدعه لغيرها من النساء

وجاشت فيها العوامل المستكنة التى حال المجتمع بينها وبين النماء . فتصاعدت بغتة من حنايا ضلوعها وغمرتها فلم تستطع المقاومة ولم تر فيها أى جدوى فأقبلت على المصور واحتضنته بكلتا ذراعيها وقبلته قبلة طويلة تائهة . فخيل الى الفنان عندئذ أن الطبيعة بأسرها قد عنت له . وان الحلم والحقيقة . الفن والحياة . المرأة

والمجد . كل هذه الروائع أصبحت له . ممثلة أبلغ تمثيل وأتمه فى عينى هذه المخلوقة الفاتنة التى لم يكن ليتصور منذ بضعة أشهر فقط أن فى وسعه — وهو الرجل الشريد البسيط — أن يرفع اليها بصره لحظة واحدة !

* * *

وكان حباً أشبه بالفرار منه بالحب . فرار من الواجبات الاجتماعية المرهقة. فرار من الكذب والمداهنة والرياء . محض صفاء روحى فى قلبين نزيهين طاهرين يفزع كل منهما الى الآخر ، ويستكمل الواحد منهما نقصه الطبيعى فى الآخر . فاوليفييه كان يستهبط وحى الفن من جمال حبيبته الكامل . ويستمد منها تلك الرقة الأنثوية الغريبة التى تضفى على رسومه حلة أنيقة جديدة . والكونتس دى جيلروا كانت تحس فى عشيقها ذلك التوق إلى الفناء فى العاطفة والطموح الى ابتداع مثل أعلى فى الحياة . والاندماج فى شخص الحبيب اندماجا تاما طالما بحثت عنه فى الرجال الذين يحتاطون بها فعادت بالخيبة المرة .

وكانت تزوره فى منزله وتقضى اللحظات الطويلة فى حجرة التصوير تتفحص مولدات خياله وتبدى له عليها أدق الملاحظات وتنصحه بتجويد عمله ومراجعته وصقله مرات حتى يبلغ الاتقان حداً لازيادة بعده لمستزيد

وكانت سعيدة كل السعادة بهذا الرجل الشديد الاخلاص الذى يجمع مفاتن العالم جمعاً فى وجه واحد هو وجهها ، وطيف مختار هو طيفها

ومكنته من نفسها عن طيبة خاطر واصطفاها دون النساء جميعاً ملاذاً لاحساسه والهاماً حياً شعر على التوالى بان حاجته اليه أصبحت كحاجته الى الهواء والنور والغذاء

وتطور حبه واستحال عبادة حارة . عبادة الجمال المطلق ممثلا فى أمرأة ممتازة لم يجد لها بين من عرف من الغوانى أى شبيه

وكان أوليفييه كمعظم الفنانين أو جلهم مجنونا بعبادة الجمال . لذلك أحب

الكونتس ، أحب فيها مادة وجوده ومادة فنه . أى الغرض الذى من أجله كافح وفى سبيل الوصول اليه وامتلاكه يعيش !

على أنها مع سعادتها القصوى كانت تتألم أشد الألم لاضطرارها الى التمويه على زوجها ، واخفاء عواطفها ، والظهور بمظهر الزوجة الفاضلة ، وخديعة الأصدقاء والصديقات وخيانه حبيبها المعبود نفسه نزولا على مايأمر به الواجب الزوجى . . .

ولكنها كانت تحب . والمجتمع لايرحم . ومصير ابنتها ومستقبلها يتطلب منها الخضوع والرضا بالخديعة والذل

وأدرك منها ذلك أوليفييه فلم يحاول استثارتها على واجبات الأسرة والمجتمع وقنع منها بسويعات لذة عابرة تمنحه إياها كما يمنح القضاء الرحيم الانسان بعض الهبات آنا بعد آن . ولم يكن فى وسع المصور أن يحيا بعيداً عمن يحب . كانت رؤيتها وحدها كافية لتزويده بالطلاقة والمرح والنشاط وطرد شبح الكهولة القاسى الذى كان يتقدم اليه على مهل يحاول أن يستلب منه الجوهرة التى صاغها من دم قلبه وعزيز أحلامه وقوة الأمل المودعة فيه كغريزة عاتية لاقبل له بمقاومتها

ومرت الأعوام وتلتها أعوام أخر والمرأة تزداد ولعاً والفنان يزداد تعلقاً وعلاقتهما تتوثق والضجر أبعد مايكون عنهما والخلاف لاسبيل له الى قلبيهما والحب يعبد لهما الطريق منسطة رحبة كنهر صاف ماله انتهاء

وسما بهما الهوى الى أوج المودة الهادئة والصداقة الحلوة العا ئة وتبادل الآراء والعواطف فى نشوة قريرة ساحرة

أصبح الحب راحة كبيرة . وداعة حالمة . تطهر وسكون . أشبه بالاتصال الروحى بين الصوفى وربه

ولكن الأيام كانت تعمل فى الخفاء عملها . والسنون المتعاقبة المقبلة فى اتئاد كانت تحاول السطو عليها وتدمير البناء الرائع الذى شاده الحلم الجميل !

لمحت الكونتس فى مفرقها أول الشعرات البيض واختبلت إذ أبصرت فجأة أول التجاعيد تكمن وتتمدد فى زوايا فمها وعينيها

وكذلك أحس أوليفييه بالشيخوخة الهابطة تدوء عليه وتسكر ملامحه وتشمل في رأسه الشيب وتكاد تقوض جسمه الرشيق تقويضا ولكن حبه الحياة كان ما يزال يدوى فى فؤاده ، وعبادته الجمال ما برحت مستولية عليه لما كانت أيام صباه ، وهل يستطيع فنان صادق أن يودع الشباب على هذه الصورة ، أو أن يتخلف ولو هنيهة عن تقديم ذاته للجمال قربانا أو أن يسمح للشيخوخة أن تستذله وتغلق دونه أبواب النعيم ؟

هذا العارض كان قوام شخصية أوليفييه وهو الذى دفعه الى حب الكونتس وهو الذى يحلق عليه الآن كلعنة ملازمة تحفر أمامه الهوة المظلمة السحيقة شيئاً فشيئا ! . .

* * *

وكان أوليفييه قد عرف آنيت — ابنة الكونتس — فتاة صغيرة طائشة لاهية . وحنا عليها حنو الوالد على ولده ، وكانت الأم قد أرسلت بها الى احدى المدارس وطلبت الحاقها بالفرقة الداخلية فظلت الفتاة هناك ثلاثة أعوام لم يرها فى أثنائها أوليفييه

وفى ذات يوم وقد أخبر بأنها سوف تترك المدرسة وتعود الى البيت فتح الباب بغتة ودخلت فتاة آية فى الحسن . بسامة الثغر وضاحة الجبين . طلقة المحيا . مشرقة مرحة لعوباً عليها من نضارة الصبا ما يسترعى البصر ويأخذ بمجامع القلوب

أقبلت على المصور وحيته أحسن تحية وجعلت تغدو وتروح . تقفز وتتحدث خفيفة النفس ، مرنة الحركات . بريئة ساذجة يتدفق فيها دم متحمس فوار وتخلق حولها جواً من الثقة والاعتداد والطرب

حدق اليها أوليفييه وإذا هى صورة لأمها أيام كانت شابة صورة عجيبة ومذهلة . الفم القرمزى الصغير هو فم الوالدة . والصدر العريض صدرها والجبين الناصع جبينها والصوت صوتها . والعيون الوسنانة الحالمة هى تلك العيون ولكن لم تعكرها بعد الاختبارات المرة ولا الجريمة . ولا القنوط ولا الشجن . أحس الفنان أن حياة عشيقته وحياته . شبابها وشبابه . يتجددان أو قد تجددا وانتعشتا

فى هذه المخلوقة المقبلة على الدنيا بقدم راسخة وعزم ثابت وضحكة رنانة لاتحفل بالكآبة والتفكير ولا تقيم وزنا لأى شىء

دب فيه الذعر وسرت فى جسمه رعدة وطفق يتابعها النظار ويذكر بالرغم منه ساعات حبه الأولى . وينقل الطرف من الفتاة الى أمها وهو لفرط الشبه بينهما يكاد يخلط بين ماضيه وحاضره ولا يدرى أيهما الحقيقة وأيهما المحبوب وأيهما أدعى الى العبادة وأجدر بها

راجع نفسه وانكمش وجعل ينحى على قلبه باللائمة ويفكر فى خليلته وفيما منحته من لذائذ ومسرات . وفى هدوئها الحالى المتواضع الكسير

هدوءها ! . . ياللخيبة ! انه لاشبه بالركود الآسن منه بالهدوء المكتمل الجذاب . . أين ذلك الهدوء من هذه الحياة الجياشة المصطخبة التى تجرف فى غير مبالاة كل مايعترضها وتصوب أبصارها بعيدا . هناك حيث المستقبل الزاهر يسطع عليه الشباب ويحميه !

وشاع الاضطراب فى نفس أوليفيه وتنازعته عوامل الحيرة والقلق والخوف وحاول ان يفر من هذا البيت . أن يختفى ولو بضعة أيام . أن يخلو الى فؤاده الجاحد ويحاسبه حسابا عسيرا

ولكن عبثا حاول . فرسم الفتاة كان لا يبرح مخيلته . وضحكاتها لا تفتأ ترن فى أذنيه . وامتلاء جسدها الغض يلوح أمامه فيقض مضجعه ويبتلى ظلمة لياليه بالخيالات المحرمة المنكرة

لم يجده النضال نفعاً . عاد الى منزل عشيقته . واسترسل فى خلطة الفتاة . وألف الخروج معها والتحدث اليها . ومشاهدة الملاهى بالقرب منها . ومرافقتها فى المنتزهات والمفاخرة والزهو بها وهى مستندة الى ذراعه والابصار ترمقها باعجاب

وانصرف عن الوالدة الى ابنتها يكذب على الأولى ويصطنع البساطة والبراءة والأبوة ليظفر بنزهة أو جلسة أو سمر تافه مع الثانية

تورط فى احساسه وفقد ملكة الحكم على أعماله وعادلا يابه للمواعيد التى تضربها له الأم ولا لحزنها الطارىء . ولا ليأسها وحسرتها . وشعرت الكونتس

بالخطر يهدد حبها ويهدد ابنتها على السواء . وكبر عليها ان تشيخ فلا تجد فيمن أحبته ملجأ ونصيرا . فكانت اذ تلفها الوحدة تبكي وتتلوى حنقاً وكمداً . تبكي صباها الضائع ونكبة هواها وجنون عشيقها ثم تعاودها القوى فتهب من غفلتها وقد اعتزمت ان تفرق بين ابنتها وحبيبها مهما كلفها الأمر من عذاب . على أنها كانت لشدة عطفها عليه وتقديرها صدق عواطفه ، لاتبغضه بل ترأف به وترثى لحاله وتتمنى ان تنقذه مما يعانيه من حيرة وألم

أما هو فقد بدأ يحب الفتاة حباً عاصفاً غلاباً مبرحا دون أن يصارح نفسه جهرة بهواه . ودون أن يتورع عن مقابلة الام . ودون أن يشير فى حضرتها الى ما قد يميط عن دخيلة قلبه اللثام . ولكنها كانت تفهم كل شىء وتصفح عن كل شىء وتظن أنها لو تمكنت من ابعاد ابنتها أو أبعاد أوليفييه فقد يصفو لها الجو ويعقب العاصفة سكون رائق أفتن وأحلى من السكون القديم . . .

أقامت الحفلات وعرفت ابنتها الى بعض الفتيان النبلاء واختارت لها من بينهم زوجا هو المركيز دى فرندال . فتى فى مقتبل العمر لايمتاز عن اقرانه بشىء ثريا عاطلا يقضى معظم أوقاته فى الاندية والصالونات . ولم يكد أوليفيه يدرك هذا حتى التهب فى صدره غرامه الجديد وشعر بالغيرة الفاتكة تنهش قلبه وبالكره يتمدد فى كيانه كلما وقعت عيناه على المركيز

أبغض هذا الفتى بكل مافيه من عجز الشيخوخة وقسوتها . أراد أن يمنع هذا الزواج فجعل يحط من شأن المركيز فى نظر الوالدة . ويستنكر كيف ترضى بمثله بعلا لابنتها

واستولى عليه ضرب من الشلل الذهنى الفظيع . فكف عن التصوير . ولاذ بالتأمل والحلم

وهال الكونتس مارأته منه . أبصرته يشحب على مر الأيام . وينفر من الجميع ، ويغلظ فى القول وتعتريه بعض اللحظات شبه غيبوبة فيظل هنيهة مسبل الاجفان مطأطأ الرأس تنقبض عضلات وجهه وتكاد عيناه تجهشان بالبكاء

ولكنه كان يطمح فى قرارة نفسه الى تخليد الجمال الذى يعيش من أجله والذى يشهده كل يوم متجددا حياً فى شخص آنيت والذى فى سبيله خان المرأة التى أخلصت له أعظم اخلاص . أراد ان يفوز من الصبية ولو بعمل فنى ينقع به غلته. فدعاها إلى بيته وثبت على القاعدة لوحته واعتزم أن يخلق من الفتاة صورة يودع فيها مأساة حبه ويسميها (الحلم) . . .

أقبلت الصبية مصحوبة بامها وشرع الفنان فى الرسم منهوك الأعصاب خائر القوى مضطرب اليد . يتلفت حذراً لئلا تلحظ الفتاة ماهو عليه . وكاد يضل سبيله ويراكم الألوان فى غير حذق ويفتضح . بل كاد يصرخ ألما ويبكى فأسرعت الام وأشارت على ابنتها بالخروج لحظة ثم تقدمت الى حبيبها وجذبته اليها وحدقت فيه وكاشفته بالحقيقة كلها

قالت له انه يحب ابنتها . وأن عليه أن يعود الى رشده ، ولا ينسى الماضى . ويشفق على حياته و مستقبل الصبية ويبتعد او يرحل أو يحتجب مبقات ماتم زواجها

فتهاوى الرجل وتداعت البقية الباقية من عزيمته واعترف لعشيقته بأنه يحب ابنتها لأنه يحبها هى وأن مقياس حبه لها هو هذا الغرام المحرم الذى يشعر به نحو فتاتها . واستحلفها بكل عزيز لديها ألا تحكم عليه حكما صارما وألا تحول بينه وبين رؤية آنيت . وأن تمنع زواجها بضعة أشهر أيضاً بل بضعة أسابيع ربما يقضى الله أمراً كان مفعولا . . . ولكن المرأة أصرت على نصحها وعادت تلتمس اليه ألا يتهور وأن يناشد عقله الحكمة والرزانة وألا يؤمل فى ارجاء الزواج مخافة أن يستفحل الخطب وتدرك الفتاة الحقيقة وتلغط بالحادث المخجل السنة الناس . . .

وكانت الكونتس فى كل ماقالته تصدر عباراتها عن نفس أبية شماء لاتعرف الكراهية أو الاشمئزاز بل تواجه الواقع فى غير تبرم أو سخط ، وتفهم حق الفهم تقلبات الطبيعة ونزعات الفطرة وأحكام القلب البشرى . وانصرفت وفتاتها

بعد ان وعدها المصور خيراً ، ولكن آنيت لم تلبث أن غادرت البيت حتى عاد شيطانها يجثم على صدر أوليفييه ويصليه مر العذاب . تفاقم شعوره بالوحدة واتسع الفراغ فى فؤاده ، واستعرض حياته فالفاها خاوية من كل سعادة ، مظلمة الا من هذا الضياء البعيد الثمين . فكاد يجن جنونه وأخذ يهذى هذيان محموم . وأحس أن الأم التى طالما أحبها فى الماضى هى الآن العقبة الكؤود . فلم يطق . لم يطق النزول على أرادتها وإنكار حبه كما نصحت له . فارتدى معطفه وتناول قبعته وانطلق

دخل البهو وكان غاصا بالمدعوين فتلقته الكونتس بهدوئها العادى وانتبذت به مكاناً قصياً

دار بعينيه باحثاً عن آنيت مرتقباً مجيئها ، مرهفاً أذنيه لوقع خطواتها

ثم جاءت الفتاة فحياها وسمع منها أن زواجها سيتم وأنها هانئة بعروسها وافرة الثقة بالمستقبل . ترجو عيشاً مديداً وراحة ومسرة

وذهبت فأحس أن قلبه يتمزق تمزيقا وعاد إلى الأم يلتمس منها ارجاء الزواج ولكنها قطبت حاجبيها وفى لهجة جادة حازمة نزيهة طلبت اليه ان يكف عن زيارتها ردحاً من الزمن وألا يرجع إلا بعد الزواج فتداعت قواه وارتجف واصطكت مراشفه وكاد يغمى عليه ولكنه ثاب إلى رشده فخشيت الكونتس ان يعاوده ضعفه فأمرته أن يرحل . أن يخرج حالا وإلا ساءت العقبى

وأظلمت الدنيا فى عينيه وشعر بأنه يطرد فخرج مترنحا يتعثر بأثاث الغرف والدم يغشى بصره ودقات قلبه تخنقه وما أن استقبله الشارع حتى انطلق هائما على وجهه لايدرى أنى يسير وإلى أين يذهب تائها شريداً . ينتحب ويبكى بكاء الأطفال ! وفقد الشعور بأنه يمشى وسط الجموع وان الشوارع حافلة بالسابلة وأنه يجب ان ينتبه ويستفيق

وفجأة صرخ أوليفيه صوتا هائلا ومال على نفسه ثم وقع على الارض لايعى على شىء وقد صدمته عربة كبيرة ومرت عليه عجلاتها فأخمدت للفور صرخته وتركته مخضباً بالدماء

اخطرت الكونتس بما وقع فاختبلت واستحوذ عليها الرعب واسرعت اليه

والدموع تترقرق من حدقاتها وما أن وطئت قدماها عتبة الغرفة حتى شاهدت الرجل الذى كانت تعبده مسجى أمامها يلهث ويزفر زفرات الحمى أصفر اللون ضامر التقاطيع غائر الوجنات على ابأس مايمكن أن يكون انسان فهالها مافعلت ونسبت الكارثة اليها . الى ابعاده عن بيتها . الى طرده دون رحمة

وتقلب الجريح على فراشه والتقت أبصاره بأبصار حبيبته القديمة . وتفجرت عيناه بالعبرات فاقتربت منه فأخذ يدها بين يديه وقبلها وأفضى اليها بأنه لم يكن مسؤولا عن عواطفه . وأن الطبيعة وحدها هى الآمرة . وأن القدر الغادر هو لذى أراد ما كان

وكان قد جمع رسائلها الغرامية فاخرجها وناولها إياها ورجاها أن تحرقها هنا . . . فى الموقدة . . . حفظاً لسمعتها . وإلحاداً لحياته كلها !

فاطاعت وألقت بها فى النار والتفتت الى الطبيب فقال هذا انه راحل وأوصى بالمجىء بممرضة فرفضت الكونتس وأجابت أنها ستبقى بجوار صديقها حتى مطلع الفجر

وشاع السكون فى الغرفة ولم يعد يسمع فيها غير أجيج النار فى الموقدة وزفرات الجريح المتقطعة

والتمعت جمرة من الجمرات فاستضاء بغتة محيا أو ليفييه فانحنت الكونتس عليه ومدت ذراعها ولمست كفه المتدلية واذا هى رخوة باردة برودة الثلج . فنهضت والذعر يملأ قلبها وحدقت اليه فابصرت حبيبها ساكنا هامداً مستريحا . يبتسم ابتسامة عذبة صافية كأنما هو سعيد بانه قد عاش وتألم ومات لا من اجلها ولا من اجل ابنتها بل فى سبيل الحب والجمال والفن

فاجعـــة البحيرة

Tragedie sur le lac

لبلاسكو ايبانيز

بلاسكو ايبانيز من اشهر كتاب اسبانيا . يمثل روح بلاده ونفسيتها ابلغ تمثيل . فأسلوبه قوى متدفق . وظلفه بالاسلوب لايصرفه عن دراسة الحياة دراسة صحيحة عميقة . فهو يختار اشخاصه من صميم الاوساط الاسبانية ويرسم لنا اخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم الفطرية القريبة الى الطبيعة البعيدة عن جبن اهل المدن . وابطال القصة التى نلخصها اليوم من القرويين الاقوياء الذين يصارعون الغرائز وتصارعهم فاما ان يفوزوا عليها واما ان ترديهم . وقد قال الناقد الالمانى ارنست روبير كورتيوس ان هذه القصة هى مأساة الخير والشر وانها ابدع مااخرجته قريحة بلاسكو ايبانيز

كان الجد بالوما شيخاً . صلب العود . ابيض الشعر . جليلا ، فى عينيه الواسعتين أنفة وشموخ .وفى حديثه قوة . وفى مشيته عزة وثبات وثقة

عاش فى قرية تدعى بلمار بضواحى فلنسيا وتزوج فرزق غلاماً تزوج هو الآخر ثم توفيت قرينته وخلفت له طفلا رائع الجمال أسماه تونيه

لم تمر بحياة هؤلاء الناس أية حادثة . ولم يشعر أحد منهم لا بالحزن العميق ولا بالألم الشديد ولا بالفرح غير العادى

كانوا يشاركون الطبيعة فى صفائها وهدوئها وعدم احتفالها وسعيها المتواصل فى سبيل تجديد الحياة وكانوا أقوياء مثلها ذوى غرائز حرة وأفكار محدودة ضيقة واحساسات جافة ورزانة وجهامة وصمت ونفور ولم يكن أحب اليهم من العمل المطرد . والجهد الشاق والغذاء الطيب والنوم الهنىء بعد كد النهار المضى . وكانو

محافظين جد المحافظة . مؤمنين أشد الايمان .غيورين على أعراضهم يؤثرون الموت على الفضيحة . وأبلغ ما تتمثل أخلاقهم فى الجد بالوما . فهو حريص على شرف الاسرة كل الحرص . يذود عنها ويرعاها ويدافع عن سمعتها ويقيم من نفسه المثل الصالح فى الاستقامة والشهامة والنبل وكان فخوراً بشرف أسرته . مزهواً بماضيها النقى . يباهى بعاداتها وتقاليدها ولا يغفر الاساءة أبداً

أما ابنه فكان على غراره ماخلا بعض الفتور وشيئاً من التواكل والضعف

ولم تكن للجد وابنه مهنة غير الصيد ، يستفيق الشيخ والفجر المنبثق ثم يوقظ ولده ويذهب الرجلان الى البحيرة المجاورة يصيدان الطيور والاسماك ويحملانها حتى المدينة فيبيعانها هناك

وكان الجد يعبد البحيرة ويرى فيها علة حياته ومصدر وجوده وينبوع أفراحه لايقدس فى العالم بعد الله غيرها ولا يشعر بالعظمة والسرور الا بجوارها

أما سعادته فكانت فى الصيد وفى الصيد وحده . لايعترف بمهنة أسمى من هذه المهنة أو أجدى نفعاً ، وكما احترف أسلافه الصيد كذلك يحترفه هو وكذلك يجب أن تحترفه أفراد الاسرة جميعاً

إلا أن حفيده كان على نقيضه تماما . فقد نشأ تونيه يحتقر الصيد والصيادين يسخر منهم ويهزأ بساعات العمل الطويلة التى يقضونها عند البحيرة صامتين خاشعين

وكان عابثاً مستهتراً كسولا أولع مايكون بالتأمل الطويل . والحلم المستمر . ونوم الضحى والأكل الطيب والانصراف عن كل عمل مادامت بقربه عيون جميلة وجبهة وضاحة وفم مبتسم ...

شب تونيه وفى نفسه إحساس عميق بجماله يدفعه إلى الاستمتاع بالحياة والاعراض عما يورث الألم والتعب والمشقات

وكأنه كان يشعر ان لجماله من الحقوق ماليس للاخرين وأن الطبيعة قد حبته بنعمة خاصة وانه يجب ان يميز عن جده الصارم القاسى وعن أبيه العامل المجد وعن اهل القرية البله المساكين

وانقضت سنو حداثته تارة فى الصيد والفلاحة صحبة جده أو أبيه ، واخرى

فى شوارع القرية يستوقف الغادات العابرات فيحادثهن ويطرى جمالهن ويبهرهن بمليح النكات ويخلب ألبابهن بسحر منطقه وفتنة محياه

وكن جميعاً معجبات به يتسابقن إلى نيل رضاه ويتبارين فى أيهن تفوز منه بنظرة أو ضحكة أوحديث بسيط

وكان يتعالى عليهن . ويتهكم بهن . ولا هم له إلا الشعور بسلطانه على الأفئدة ووقع جماله فى النفوس

ولطالما حدق فى البحيرة فشاهد فى مرآتها وجهه الصبوح المستدير . وعينيه السوداوين الخبيثتين وأنفه المستقيم وفمه الدقيق وشعره المتهدل المجعد يكلل جبينه المشرق العريض . فكان يبتسم فرحاً وغبطة ويروح فى شبه نشوة تشجعه على التمادى فى الكسل والاستهتار

وكان الجد يلحظ عليه هذا فيزجره وينهره ويعيره محتداً ساخطاً مستشيطاً مذكرا اياه بواجباته . مستحثا فيه بواعث الهمة . مصورا له سعادة العمل والجد وكيف أنها فخر الانسان وسلواه . وأن من تذوقها لابد معرض عما سواها إذ المرأة وفتنتها . والشباب ونزقه والجهالة وماتغرى به . كل هذه الاشياء باطلة . أما الأسرة فتبقى . وأما العمل فمقدور لامفر منه . وأما البحيرة وكنوزها فأبدية خالدة !

ولكن تونيه كان يستمع الى حديث جده ثم لايلبث أن يبصر حسناء عابرة حتى ينساه ويعود الى ألاعيبه غير آبه لشىء

وكانت تسكن بجوارهم بائعة سمك وكان لهذه البائعة فتاة تدعى نيليتا . بارعة الحسن على ذكاء خارق . يشوبه المكر والدهاء

هذه الفتاة هى التى استطاعت ان تستولى على قلب تونيه . وتفوز على أترابها وتزهو بمن اصطفاه قلبها حبيباً لها

وكانت فقيرة تشتغل بائعة سمك كأمها . ولكن الطموح وغريزة التطلع الى العلا . وعبادة الترف والولع بالثروة والمال . كل هذه العوامل كانت ترقد فى نفسها وتخلق فيها ضرباً من اللؤم والخسة والجسارة والكبرياء .

وكانت بضاعتها لا تصادف رواجا وتشعر بالجوع يمزق أمعاءها حين تأتى الى منزل تونيه وتقبع فى الزواية مطأطئة ساكنة بائسة فتأخذه الشفقة عليها

فيهرع الى جوف الدار ويأتيها بخبز ولحم يقدمه اليها وهو يبتسم فتختطفه من يده اختطافا وتلتهمه وعيونها الساحرة تحدق فيه تحديق شكر ووله وتقديس!

وكانت أشبه بدمية فاتنة منها بفتاة بائسة، طويلة القامة، ناصعة البشرة، سوداء الشعر ناعسة الاجفان، تسير بخطى مسرعة فيتلوى جسمها الغض فيرتجف تونيه ويعجب ويهلع كأنما هو أمام حية تسعى

ولم يكن أحب الى نيليتا من الخروج الى النزهة صحبة تونيه. تتأبط ذراعه وتسايره ضاحكة عابثة وتتلفت علها ترى امرأة أو فتاة تشهد هذا النصر العظيم

وكم كانت لهما جولات فى الغابة المجاورة. تلفهما الأغصان وتتهدل عليهما أوراق الشجر ونيليتا تقهقه وتونيه يتأمل جمالها فى صمت وحلم

إلا أنه كان قويا يحس سلطان هذه المخلوقة على فؤاده فيغالب نفسه ويتبرم بها وينصرف عن الفتاة بضعة أيام فتنفر وتحتجب يوما ثم تعود اليه متوسلة مسترحمة

وشعر الفتى أنها خطر عليه. وانه قد يضعف فتزل به القدم فحاول ان يقصيها ولكنها تشبثت به ولجت فى حبه وتدلهت، فخشى أن يمنيها بالوعود الكاذبة واعتزم ألا يراها وألا يظل فى البيت لحظة اذا ما وفدت اليه

تعذبت نيليتا وكاشفت الشاب بما يكنه قلبها واستحلفته بكل عزيز عليه أن يقدر احساسها والا يبتليها بالحسرة واليأس والخيبة العميقة المرة. ولكن تونيه لم يأبه لها وكانت غرائز الحرية قد استيقظت فيه وتمكنت من نفسه فأخذ ينظر الى القرية نظرة سأم وضجر والى أهلها نظرة سخرية وازدراء. والى حياته الراكدة نظرة لوعة وبغض

وفى ذات يوم وقد استولت عليه هذه العوامل صارح والده وجده برغبته فى الالتحاق بالجيش فذعرت الفتاة واختبلت وأعولت، ولكن الشاب لم يحفل بها وودعها ثم ودع أسرته أيضا ورحل

رحل تونيه وصورة نيليتا ماتزال ماثلة فى خياله. وحبها الشديد يطارده، وصرخاتها لاتنفك تدوى فى أذنه. وقلبه يحن اليها ويأسف على الماضى العذب الجميـــــل!

* - -

أفاقت الفتاة من غفلتها وأدركت حقيقة الأمر وأيقنت أنها لو كانت غنية

لما صدف تونيه عنها ولما قاست كل هذه الآلام

وعاد اليها احساسها بالطموح ، واستحوذت عليها الرغبة فى الترف والثروة ، وعبثاً كانت تزور الجد كل يوم وتسأله عن أخبار حبيبها . فتونيه لم يذكر اسمها فى رسالة واحدة من رسائله ولم يحمل أى صديق له أية تحية اليها كأن لم يكن بينهما شىء وكأن العذاب الذى احتملته راح هباء

تمردت نيليتا على حياة البؤس . وأنفت بيع السمك ، وأجالت طرفها فى حسان القرية فألفت نفسها أجملهن فعز عليها أن تقضى العمر فقيرة مشردة

وفكرت فى احتراف مهنة أخرى ، وكان بالقرية رجل يدعى الاب باكو كهل موسر مريض وأرمل عصبي نفور ، وصاحب حان مشهور ، فذهبت اليه وعرضت عليه أن تعمل فى حانه فقبل وعينها كصرافة وخادمة

ورأت الفتاة بعين بصيرتها أن مركزها قد يتوطد هنا . وأن المجال فسيح للعمل وأن الكهل أحمق وغبي ، وأنها قد تصبح يوماً صاحبة الأمر والنهى فبذلت قصارى جهدها لمرضاة الزبائن واستجلابهم ، والتلطف معهم ، وأفرغت قواها جميعاً فى استمالة الكهل والتودد اليه ورعايته وحراسة ماله كأنه من حر مالها ، فأعجب بها واطمأن اليها وسلمها مقاليد الحان ، ولما أن شاهد اقبال الزبائن ووفرة الدخل ضاعف مرتبها فانشرح صدرها ووثقت من النجاح فى المستقبل القريب

وكانت تعيش فى جناح خاص من منزل الأب باكو تأكل هناك وتنام ولا تفكر الا فى تحقيق آمالها الكبار

وساعدتها على ذلك شخصية الكهل فقد كان بدينا نهماً أكولا بخيلا وكانت هى تقتصد له وتدخر وتقتر فى النفقات حتى ازداد الدخل وفرح الأب باكو وبات يرى فى نيليتا المرأة العاقلة الرشيدة الحازمة

ولم يكن ليلحظ كل هذا ويفهم الخطة المدبرة سوى مدام سامار وكا . وهى امرأة داهية . واسعة المطامع شديدة الغيرة . قبيحة الصورة . نمامة واشية مافتئت تعلل نفسها بالسيطرة على الاب باكو والاستيلاء على ثروته والاقتران به بعد ان توفيت زوجه التى كانت شقيقتها

ونشب الصراع بين المرأتين . كل منهما تدس للاخرى وتلقى فى روع الـكهل أبشع الافـكار والظنون

فتتهم ساماروكا الفتاة بالخلاعة والتهتك والطمع ، وترميها نيليتا بنفس التهم والرجل حائر بينهما مسلوب الحول فاقد الارادة لايسلم بسوء نية الفتاة بينا وجودها يدر عليه الذهب أنهارا

واستحكمت صلة المودة بين الـكهل ونيليتا وركن اليها برغم الوشـايات ولما أحست أنه وثق بها تمام الثقة أقبلت عليه وافتنت فى أغوائه وراحت تجود عليه ببعض الدعابات . وتتجمل وتتظرف وتبادله النظرات الطويلة السـاحرة والاحاديث المعسولة الفاتنة حتى استيقظ فى الكهل وهم الشباب فشغف بهـــا وعرض عليها الزواج

عرفت ساماروكا بالامر فجن جنونها وذهبت تشيع الخبر فى القرية وتنهش عرض الفتاة

ولـكن نيليتا هزأت بها وتحدت القرية كلها ونصحت الـكهل بالتمهل بضعة أسابيع . ثم على حين فجأة وقد ظن الناس أن القصة محض مهزلة أوعزت الفتاة إلى الاب باكو ان يعلن موعد الزواج ففعل . فوقع النبأ على ساماروكا وقع الصاعقة ، اما فتيان القرية فقد عجبوا لنيليتا كيف استطاعت ان تصرع غريمتها وتفوز بالمال وتحقق جانبا عظيما من أحلامها

وأصبحت مدام باكو ـ وأصبحت ربة المنزل والخان . تجلس أمام الزبائن جلسة سيدة وتأمر فتطاع . ولاأحد يجسر على التعريض بها

وكيف كان يمكن ذلك وهى تعمل وتجد وتسعى غير حافلة بالرجال وكلهم بها معجب مفتون

واشتدت وطأة داء المفاصل على الزوج فكانت تخدمه وتسهر عليه وتتعهده كأنما هى حقاً تخشى عليه الموت وتخاف العزلة والتبتل من بعده

وقرت نفس الشيخ بعواطف الطيبة والرحمة والاخلاص تسكبها فى فؤاده هذه المخلوقة الحسناء الصبية العاملة التى أنسته قرينته الاولى وخففت عنه عبء شيخوخته ولم تأسف على شبابها الناضر يذوب ويضمحل بين جدران بيت موحش تكتنف جنباته الظلمات !

وفى ذات يوم والريح تعصف فى الخارج وابواب البيت ونوافذه ترتج وتتصارب والمطر ينهمر والرعد يدوى دخلت امرأة من نســـاء القرية وأخبرت مدام نيليتا بمقدم تونيه

اضطربت بالرغم منها وعلا محياها الاصفرار وأشاحت بوجهه الحظة ثم صرفت المرأة واعتمدت رأسها بيدها وأخذت تفكر . . .

خامرها احساس عجيب بالفرج . وأحست كأن قلبها الخاوى يمتلىء فجأة وكأن الاحلام القديمة تنبثق من اعماق خاطرها وتمر امام ناظريها وتمتلك عليها مشاعرها وتميلها عذراء كما كانت أيام البؤس والهوى

تقدمت الى المرآة وتطلعت برهة وجعلت تحدق فى تقاطيعها وتصلح من خصلات شعرها وتتأمل ما اذا كانت لاتزال جميلة أم ان هذه الحياة قد أجهزت على البقية الباقية من سحرهـــا

ولكنها شاهدت وجهاً ناضراً . وعيونا فاتنة . وخداً مورداً وبهجة طارئة شائعة فى كيانها كله

فابتسمت ابتسامة فاترة وتعطرت وتجملت وألقت على كتفيها وشاحاً من حرير اسود ونزلت الى الحان تخطر وتتهادى

وما ان وطئت قدماها عتبة الباب حتى تراجعت وشحب لونها وخفق فؤادها خفقاناً شديداً وجمدت بغتة لاتستطيع حراكا

رأت فى وسط الغرفة حبيبها القديم تونيه واقفا ينظر اليها ضاحك السن منبسط اليد وقد انسكب عليه جمال جديد لم تكن لتحلم به أبدا

ألفته وقد ازداد رجولة . وازداد ثباتاً . وازداد عزة وكبرياء وسلطانا فتقدمت اليه على مهل وصافحته ويدها ترتعش وعينها لاتفارق عينيه

جاذبها أطراف الحديث وقص عليها بعض نوادر المعسكر وأشاد ببطولته فى المستعمرات وهى تستمع اليه بأذن مرهفة ونفس ظمأى تنهل عباراته وترتوى منها

وشعر الشاب أنها اكتملت وازدهرت محاسنها فنسى نفسه وظل بقربها ساعة كاملة وساعدهما الحظ فلم يطرق الحان انسان

وفيما هما يتحادثان إذا بالباب يفتح ويدخل الاب باكو

تراجعت نيليتا وصمتت . وأجفل تونيه ولكنه أقبل على الشيخ فحياه أحسن تحية . وأخـــذ بيده فأجلسه فى مقعده . وطارحه النكات . وقدم له كأسا على حسابه . وقص عليـــه هو أيضا أغرب نوادر الجيش . . .

ولما سأله الزوج أية مهنة سيحترف وماذا ينوى أن يعمل . أجابه أنه قد حن إلى الصيد وأنه ماجاء إلى هنا إلا ليتفق معه على العمل سويا . . .

دهش الأب باكو واستوضح الشاب جلية الأمر فقال تونيه أنه مستعد للعمل لو أمده الشيخ بالمال اللازم لابتياع القوارب والشباك . أما الربح فيكون مناصفة بين الاثنين وأما الخسارة فيتحملها الفريقان معا

فكر الزوج لحظة ونظر إلى الشاب نظرةفاحصة وخيل اليه أنه يستطيع القيام بهذا العبء الشاق

وتمثل المشروع الجديد وأرباحه الوفيرة وقوة هذا الشاب الذى سيعرف كيف يستغلها ثم التفت إلى امرأته يسألها رأيها فأيدت الفكرة وامتدحت تونيه وشجعت زوجها فقبل الشيخ وتعهد بدفع المال اللازم لشراء القوارب والشباك

ولم يكد يمضى أسبوع واحد حتى بدا تونيه يباشر مهنته

وفرح بمقدمه أهل القرية واستقبلوه افخم استقبال وهنأوا الأب باكو على حسن اختياره وتنبأوا له بالنجاح العظيم . أما تونيه فالف الذهاب الى الشيخ والتردد على الحان . ومقابلة نيليتا . والسهر هناك وقضاء اوقات الفراغ فى احتساء الخمر من يد محبوبته

كان يغافل الزبائن ويغازل المرأة . ويغافل الزوج ويطارحها الغرام . ويظل يطوف بها مداعبا متوسلا ملحفاً . وهى تروغ منه وتتمنـــع عنه احرص ما تكون على سمعتها تخشى إن هى استسلمت اليه ان يفتضح أمرها فيحرمها الزوج من نصيبها فى اوقافه وتفقد الثروة التى كافحت وتكافح فى سبيل الاستيلاء عليهـــا

ولـكنها كانت تحب تونيه . ولا تطيق فراقه . وتتعذب بالعاملين القويين : عامل الحب وعامل الحرمان

لذلك بذلت كل مافى وسعها للاحتفاظ بالشاب فجعلت تمنيه بحياة المستقبل يوم ان يموت الشيخ المغيض . ويخلو لهما الجو فيتمعتان بالراحة والثروة والحب

ولكي تودع الثقة فى نفس الزوج أخبرته انها نشأت فى منزل تونيه وأنه بمثابة أخ لهـا وألا خوف عليها منه . بل لاخوف على المرأة الفاضلة من أحد ...

ولم يكن ماضيها الزوجي ليساعد الأب باكو على الشك فيها . ولكن المرأة الدساسة الواشية التى طعنت فى صميم كرامتها ـ مدام ساماروكا ـ كانت لاتنفك تفد الى البيت وتخالس الحبيبين النظر الشزر وترود حولها وتختلي بالزوج فتصب فى اذنه سم النميمة والغيرة . فيثور ثائر نيليتا وتستنكر وتسخط وتتأبى ثم تطوق الشيخ بذراعيها الناضرتين وتبتسم له ابتسامة حلوة فينسى

وضجر تونيه من هذا الاسلوب فى الحياة . وبدأ يتألم لاحساسه بأن المرأة التى يهواها قريبة وبعيدة . محبة وغير محبة . قاسية ورحيمة تعلله بالسعادة المنتظرة بينا هو الساعة كاشق مايمكن أن يكون انسان . وكاشفها بدخيلة قلبه وصارحته بما فى نفسها وإذا بها مثله تتألم وتناضل وترجو اليه أن يتمهل ويفهم ويقدر

ومرت الايام وتونيه يزداد عذابا . ونيليتا تشفق عليه وتطيب خاطره . وتعده خيرا . ثم تودعه وتصعد الى حجرتها وتظل تفكر والحسرة تملأ فؤادها والعجز يهتاج أعصابها . والغيظ من حياة زوجها الطويلة يطوح بخواطرها الى مسارح بعيدة ترقص عليها أطياف الجريمة والحب والحرية !

وفى ذات صباح وقد أمضتها العزلة وبرح بها الألم وأنفت نفسها قرب الشيخ المريض وعز عليها كيف تفرض على من تهوى العذاب فرضا استوت على فراشها ونضت عنها ثوب الليل واسرعت فارتدت معطفها وانبأت الزوج أنها ستخرج الى الصيد اليوم صحبة تونيه كى تراقبه وتستوثق بنفسها ما اذا كان أميناً فى معاملاته . مخلصا لهما كما يزعم

والتقت بالشاب فما ان رآها حتى صاح كالمجنون ولكنها وثبت وثبة كبيرة واذا بها فى القارب تقهقه ويدها الرقيقة تعبث بماء البحيرة البارد الشفاف

واحتملهما التيار . وكان الجو صحوا . والنسيم عليلا . وانغام العصافير تتصاعد فى الفضاء . وضحكات المرأة ترن وتتعالى . والقارب يشق عباب الماء . فلم يكن

اليوم يوم عمل بل كان يوم غرام ورجع تونيه الى القرية صفر اليدين الا من سعادته فاعتذرت عنه نيليتا وأقنعت الشيخ أنهما لم يوفقا وان الشاب يرعى مصلحة شريكه حق الرعاية . . .

وكانت نزهة القارب هذه سبيل التهلكة

ضعفت نيليتا وطاوعت الشاب فزلت بها القدم. وما ان علمت مدام ساماروكا بالأمر حتى طافت ببيوت أهل القريه . تقص عليهم الحادثة وتهولها وتضيف عليها من عندياتها بما تشفى به غليل بغضها وانتقامها

ولكن الزوجة لم تعبأ وكأنما أسدلت غشاوة على عينيها . فاهملت العناية بزوجها وانصرفت الى مرضاة نفسها ولم تعد تفكر الا فى عشيقها وفى لقياه وفى الجلوس اليه وفى محادثته وفى الثأر للماضى الطويل الذى تقضى بين لهم والمرض والشيخوخة والشقاء

ونشأ عن ذلك ان استفحل الداء فى جسم الآب بانو فاستدعى الطبيب فنصح له بالانتقال الى قرية أخرى تبعد عن هذه بضعة أميال

حاول ان يصطحب زوجه ولكنها رفضت بحجة ان أقاربه هناك . وانهم يبغضونها لفقرها . وان كرامتها تأبى عليها العيش فى وسط يحتقرها ويعدها دونه حسباً ومالا

ورحل الزوج بمفرده وبقيت نيليتا . وما ان أبصرت نفسها فى البيت وحيدة حتى كادت تجن فارسلت تستقدم اليها تونيه وهى لا تدرى أنها تحفر بكلتا يديها القبر الذى ستلحد فيه غرامها الاول والاخير !

شاعت الفضيحة فى القرية . واضطربت الافكار وأمعنت ساماروكا فى الوشاية وتبعتها كل فتاة عانس صلبة القلب غليظة العاطفة فانعقدت حول المرأة وعشيقها سحب كثيفة من المثالب والمطاعن ومختلف ضروب الاهانات والتحقير

وكان ان أحس الزوج بالمرض يشتد وينذر بالموت القريب وأخبرت ساماروكا أن الشيخ فى خطر فاستقلت القطار للحال وأسرعت اليه تقص عليه ما وقع ولكن صديقة لنيليتا علمت بما كان فابلغتها النبأ فادركت الزوجة أن غريمتها

تواصل مسعاها لتحرمها من حقها فى أوقاف زوجها فهالها الامر وتركت عشيقها يرغى ويزبد وخرجت تحت جنح الظلام والقرية هادئة . والريح تصفر والناس نيام وسافرت الى حيث يقيم زوجها

بلغت المنزل وقد أوشك الليل ان ينتصف فسمعت لغطاً شديدا . وحركة غير عادية وجلبة ومناقشة وضوضاء . فدخلت وما ان توسطت رحبة الدار حتى التقت بساماروكا وجها لوجه فتصاعد الدم الى رأسها وفقدت رشدها وانهالت على عدوتها لطما وركلا وعضا بأسنانها وتمزيقا بأظافرها والمــــرأة تصرخ وتستغيث وتولول

وخرج أهل البيت على الصياح ففرقوا بين المرأتين واقتادوا نيليتا الى فراش زوجها فما ان رأته حتى أجهشت بالبكاء وأقبلت عليه تقبله وتواسيه وتلومه أشد اللوم على انقياده لتلك الفاجرة ونكرانه جميل زوجه وعظيم تضحياتها

وانتصرت نيليتا نصرا أشبه بالهزيمة فلم يحرمها زوجها من نصيبها فى الوقف بل وهبها اياه مشترطا فى وصيته ان يصرف اليها المال مادامت لاتتزوج أما اذا تزوجت فتحرم منه . . .

وفى صباح اليوم التالى توفى الاب باكو فعادت نيليتا الى القرية واتشحت بالسواد وتصنعت الحزن والرصانة واليأس العميق . واعتزمت الا ترى تونيه طوال مدة الحداد ريثما تهدأ العاصفة وتكف الالسنة عن النقد والتشهير

ولكنها لم تستطع . فبعد شهر مضى لم تلق فيه حبيبها أصيبت بشبه خبال فكانت تطوف بغرف البيت تائهة والهة حيرى . تستعيد خيالات الماضى فتحن الى السعادة الضائعة فيثور ثائرها على نفسها والقرية وزواجها الخاسر الملعون

وعاد تونيه اليها وملء قلبه الفرح . فأعماها الحب مرة أخرى عن رؤية الحقيقة وكانت ساماروكا تراقبهما وتقتفى آثار الشاب ليلا فتراه يتسلق جدران البيت فتسرع الى صديقاتها وتخبرهن بما يقع

وفى ذات مساء احست نيليتا والرعب يمزق فؤادها والظلمة تغشى عيونها انها ستصبح أماً

طاش صوابها ولم تدر ماهى فاعلة . وكان عليها أن تنزل يوميا الى الخان تجالس

الزبائن وتحاسب وتأمر وتنظم وتعمل

فكانت لاتلبث أن توصد ابواب الخان حتى تهرع الى مخدعها فتبكى بكاء طويلا وتعض أصابعها غيظاً ولوعة . وتظل ساهرة تفكر حتى الصباح

وأخيراً ساعدها القضاء ووضعت غلاماً فما أن شاهدته حتى أيقنت أن كل مابنته قد يتهدم فى هذه اللحظة . لم تشعر لابالامومة ولا بالرحمة . لم تقبل الطفل قبلة واحدة . بل رفعت بصرها الى حبيبها الشاحب اللون المعذب المتنفض وأمرته أن يأخذ الطفل ويذهب تواً الى البحيرة فيلقى به فيها !

جثا عند أقدامها يسترحم ويتوسل . يذود عن حياة ابنه المعبود ثمرة حبه ورمز هواه ولكنها صاحت به زاجرة مستنكرة . وخيرته بين الطفل وبينها وهددته بالقطيعة التامة ان عاش الغلام ساعة واحدة ايضاً

دهش تونية لفرط ماهى عليه من وحشيه وقسوة . الا نه كان يحبها فامتثل لها واحتمل ولده فقبله قبلة طويلة حارة ثم القى به فى الماء والدمع ينهمر من عينيه !

وعاد اليها ملتهب الاعصاب . محمر العينين . ثائراً ناقما وقد استحال حبه العميق إلى بغض هائل . أدرك فى النهاية أن هذه المرأة لم تحب وان تحب أحدا لا ابنها ولا أى إنسان بل تحب المال ، المال وحده . وتضحى فى سبيله بانبل العواطف واسمى الاحساسات ففر من أمامها . فر والكره يطارده والجريمة تعصف به وتبكيت الضمير يلاحقه وخيال ابنه يتراءى له عن بعد فيجوب الشوارع ويرتمى فى عرض الطرقات ويهذى ويضحك ويبكى كمجنون

وكان عليه ان يذهب إلى البحيرة فى الغد ليصيد الطيور صحبة جده فحاول أن يتخلف ولكن الجد اجبره إذ العمل مقدس ومادام فى المرأ نفس يتردد فعليه أن يعمل دون كلال .

مشى الرجلان الى البحيرة المشؤومة وتونيه يرتجف ويشيح بوجهه ويتعثر والجد يلحظه مفكراً فى أقوال ساماروكا متردداً فى تصديقها ساخطاً على حفيده السخط كله

ولاح طائر فى الهواء فسدد تونيه سلاحه وأطلق النار فسقط الطائر فى جوف الماء وللحال قفز كلب الصيد وهبط البحيرة وبدل ان يخرج بالطائر برز قابضا

بين اسنانه على جثة الطفل منتفخة شوهاء يقطر منها الماء فما ان رآها تونيه حتى تراجع وصاح صيحة هائلة ثم صوب سلاحه وأطلق فاصاب الكلب فسقط فى البحيرة وسقطت معه الجثة وغاب كلاهما عن الابصار

ارتعدت فرائص الجد وذكر ما قالته سماروكا وأدرك بسليقته المتوقدة كل شيء . فاقترب من حفيده وأمسك به وهزه من كتفيه ولكن الشاب تملص منه ودفعه عنه ودنا من حافة البحيرة وصوب السلاح الى صدغه واطلق النار فهوى جسمه فى البحيرة يدوى دوياً مفزعاً

لم يذرف الجد دمعه واحدة . لم يأسف على حفيده . لم يشك ولم يتململ . بل نصح لابنه بالصمت والاحتمال والصلاة . ولم يشأ أن يتهم المرأة ولا أن يثأر منها مخافة أن يشيع الفضيحة بنفسه وأن يلوث بيديه شرف الاسرة التى حافظ عليها جهده

ولكنه ذهب الى نيليتا . دخل عليها أصفر الوجه مشعث الشعر لامع العينين وصرخ فيها أن البحيرة قد انتقمت له وانها التهمت، الوالد والولد !

ثم خرج لايلوى على شيء

صعقت المرأة . وحملقت فى فضاء الغرفة كبلهاء . وانتفضت انتفاضة شديدة

ثم تلفتت حولها واذا بالبيت جميل . والأثاث فاخر . والأثواب ساحرة والمال يتدفق عليها كسيل منهمر

ولكن الآن .. الآن .. ماذا يفيد كل هذ ؟ ...

ماذا تجدى أموال العالم جميعاً بعد أن ضاع كل شيء ! .. مات حبيبها ومات ابنها ومات شبابها ولم يبق الاان يجهز القضاء عليها ايضاً لتستريح !

ولكن القضاء يأبى هذا . يأبى الا ان " يا . يحيا لتذكر وتتألم وتكفر !

السمفونيا الريفية (١)

Symphonie pastorale

لاندريه جيد

نغمة رقيقة عذبة فيها شجو وفيها أنين ...

نور تتخلله ظلمة ندية خفيفة تكسبه فتنة عميقة كفتنة أيام الشتاء الممطرة . مزيج من الاحساس بالرحمة والشعور بسخرية القدر ، خير يولد شراً وشر يبعث فى النفس أروع مظاهر الخير.

كل هذا فى اسلوب سهل بسيط لامع يترقرق فى اتئاد حالم كماء الغدير

تلك هى الالوان التى مثلت امامى وشعرت بها لدى مطالعتى قصة (السمفونيا الريفية) للكاتب الفرنسى الكبير اندريه جيد.

وأنا أن حدثتك عنها أيها القارىء فانما أحدثك عن نفسك ونفسى وعن مبلغ حاجتنا الى الجمال ورغبتنا فى امتلاكه . وعن غدر الطبيعة بنا وعبثها باوضاعنا الاجتماعية وشرائعنا ونظمنا فى سبيل أقرار أحكام الغريزة النزاعة ابداً الى الحرية المطلقة فى العواطف والميول ولو على انقاض الفضيلة وانقاض أحب الناس وأقربهم الينا

فقد يعتنق المرأة فكرة جليلة . أو يخضع لنواميس المجتمع . ويرضى بما تواضع الكل عليه ويقضى أثمن أيام الشباب فى تهذيب عقله . وترقية وجدانه . وصقل روحه . وتطهيرها من مختلف شوائب الدنس ليطاول مثلا خلقياً أعلى نادى به الاخلاقيون وشادت به الكتب المقدسة . فاذا ما أقبل على الكهولة وتمشت فى جثمانه ارادة العدم وشارف لحده الضيق عن بعد خالجه الشك فى آرائه ومبادئه

---

(١) السمفونيا ، قطعة موسيقية موضوعة لمجموعة آلات الاوركسترا

واستفاقت فيه بغتة قوى الحياة المدخرة واحس بالفراغ الرهيب يكتنفه واستشعر الحسرة العميقة على السنين الضائعة فى غيرما لذة أو متعة فراح يدمر الهيكل الذى ابتنى . وراح يسخر باشباح الفضائل التى ضيقت آفاق حياته . وحبسته فى سجن من العواطف واحالته آلة مسخرة لخدمة الآخرين

ومن الغريب أن الطبيعة كى تجتذبه اليها . وتظفر به وترده الى أصله الحيوانى الذى منه انحدر تزين له المروق . وتضفى على نزعاته الشاذة الخطيرة حلة طريفة رائعة وتمثل الشر الذى يكره فى صورة الخير الاسمى . وتلقى فى روعه أن الثورة على الفضيلة نعم الفضيلة والانتقاض على الامثلة العليا نعم القوة ونعم الحياة

وقد يتألم الرجل أفظع تألم ويظل يترجح بين سموه النفسانى القديم ، وطغيان هذه الحياة الجديدة عليه فيود أن يثوب الى رشده ويفكر فى ضعفه ويتراجع الى حيث يستكمل مثله الاعلى ولكن الطبيعة — وهى تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبصرها من قبل — تلوح له بالموت القريب وكأنها تهمس فى اذنه أن لاحياة بعد هذه الحياة وان كل شيء باطل ماخلا اللذة الابدية المتدفقة فى وجوده وفى وجود كل حى تقع عليه عيناه

وهذا ماوقع للقس البروتستانتى بطل رواية اندريه جيد

فقد اختاره الكاتب من رجال الدين ليرسم لنا مبلغ مايصل اليه الانسان من قوة فى كبح شهواته . ومبلغ الصراع الذى سوف ينشب بين هذه القوة وقوى الغريزة الجامحة العمياء

كان القس سعيدا بين زوجه وولده وكانت حياته الريفية تصب فى مجرى هادىء وميوله تتفق وعقيدته وايامه منصرفة لخدمة الاسرة وخدمة الغير حتى دعى ذات صباح لاسعاف مخلوقة تسكن فى طرف قصى من أطراف الجبل المجاورة وتكاد تشرف على الموت

ما ان رآها حتى علت جبينه الوضاح سحابة هم ثقيل ودبت فى قلبه شفقة لم يحس بمثلها لمخلوق

شاهد فتاة ممددة قرب موقد متأجج ، فتاة بائسة هزيلة مصفرة الوجه زائغة العينين مكمشة الاعضاء سريعة اللفتات تجفل لأى ملمس أو صوت نفورا مستوحشة أقرب إلى الحيوان منها الى الانسان

تأملها فاذا بها عمياء فاستفسر الجيران عنها فقيل له انها شريدة لا أهل لهـا ولا مأوى

استفاقت فى نفس الرجل شتى عواطف الرحمة وتنبه فيها احساسه بالاخاء البشرى وكطبيب الجسد الذى تستفزه رؤية المرض فتدفع به سليقته للقيام بواجبه كذلك القس ـ طبيب الروح ـ أراد أن يؤدى واجبه هو أيضا وأن يحارب هـــذه الحيوانية المتمكنة من الفتاة ويبدد عنها ظلمتها ويوقظ جوهر نفسها الساذج على حياة عاقلة جميلة سامية

فاقتادها الى بيته. وأنزلها من قلبه منزلة ابنته . وقام على تربيتها بنفسه . وجعل يحرك فكرها الراقد وينفخ الروح فى جسدها المتوحش ويعلمها كيف تنصت وتفهم وتتحسس وتقارن وتفاضل وتميز بين صوت وصوت وخلق وخلق وجمال وجمال

وأفرغ عصارة جهده فى تعهدها والعناية بها فنجح فى تجربته واستطاعت (جرترود) بعد زمن طويل أن تقرأ فى كتب العميان

فرح سيدها واغتبط وطفق يفسر لهـا عالم الالوان بواسطة عالم الاصوات ويكشف لهـا النقاب عن حقيقة مايحيط بها . ويؤلف فى ذهنها شيئا فشيئا فكرة أقرب ماتكون إلى واقع الحياة

ومضى بها ذات مساء إلى حفلة موسيقية . فما أن استقر بها المقام وهبت عليها عواصف النغم وغمرتها الالحان المتوثبة المنوعة فى اتساقها العجيب حتى اختلجت اختلاجا شديداً وأمسكت بيد منقذها واشرأبت بعنقها الغض نحو هذا العالم الجديد

وكانوا يعزفون (السمفونيا الريفية) لبتهوفن فخيل الى جرترود أن القرية التى أحست بها هادئه وسنانة حالمة تعيش الآن أضعاف حياتها وتضطرب وتموج كغابة من تلك الغابات الكثيفة الشاسعة التى طالما حدثها عنها سيدها . سمعت زفيف الرياح .ودوى الرعود . ولعلعة البروق . وهطل الامطار ومسير الجدول . وهدير الموج . ونعيق البوم . وتناغى الطير وحفيف الشجر . فذهلت وعراها شبه خبال وجعلت تلاحق بفكرها النغم القافز وتذكر أنها سمعت مثله فيما مضى . وتستعين بسيدها على معرفة اسم المظهر الطبيعى الذى يعبر النغم عنه !.

وكانت الموسيقى من العمق والصدق وقوة التعبير ودقته بحيث هزت طبيعة

الفتاه من اعماقها . وحركت هامد عقلهـا .وصبت على الظلمات الطائفة بها سيلا متوهجا من نور !..

أجل وقعت المعجزة . وأيقظت الموسيقابصيرة العمياء ف « أبصرت » !..

أبصرت الدنيا بأفراحها المتهللة وألوانها المتمايزة وعرفت ماهى الغابة وماهى القرية وماهى العاصفة وبانت تفرق بين شجرة وشجرة وزهرة وزهرة وطائر يرف على الجدول وآخر يشق اجواز الفضاء

وكاد يجن القس من فرط الفرح وأدرك انه فاز على الطبيعة العاتية وانتزع من جوفها المدلهم هــــذه الروح الشابة المظلمة وأسلمها الى الله، إلى عالم الحقيقة والجمال والخير ! .

وسرت فيه نشوة الظفر وافقدته اتزانه القديم

وشبت الفتاة على يديه وترعرعت واشرق ذكاؤها واتقد فاضطرب الرجل وألفى نفسة يفتتن لا بانبثاق نور المعرفة فى مخيلة العمياء فحسب بل بتألق أضواء الشباب على بدنها المزهر أيضا ...

لم يعجب بميلاد الروح فحسب بل بميلاد الجسد أيضا !

ولم يستطع — وهو العاقل البصير — ان يميز بين فتنة الجســـد وفتنة الروح !

وغافلته الطبيعة ونزلت به من علياء حلمه وادنته الى الارض ثم ألهبت فى كيانه المضطرب عناصرها الاولى . فاختلطت الحقائق فى نظره وبات لايدرى اين هو الشروأين هوالخير . بل أين يبدأ الشر وأين ينتهى الخير

وكان الذى أرادته المقادير وشغف الرجل بالفتاة شغف الفنان بالملحة التى ابتدعها . وأولعت به الفتاة ولع الخليقة بخالقها .

احبها وتلقت حبه فى هدوء وصفاء .

ولم تكن تدرى عن الشرشيئا لأنها مارأت فى حياتها شيئا ولاسمعت بالشرقط . لامن فم سيدهاولا من أفواه الاخرين

كانت تعيش فى الباطن وكان باطنها نقيا نقاء زنبقة بيضاء

فأحس الرجل ان السعادة أقبلت عليه فى النهاية وان فضيلته الصارمة الضيقة قد حالت بينه وبين الفرح . فرح الحياة مقدس . وان من واجب كل انسان ان ينشد السعادة ويفرح . وان هذا هو الخير بعينه مادامت الطبيعة تبيحه وما دام المخلوق الذى نحبه يجيبنا اليه ويرتضيه

وتمكنت منه العاطفة فهجر زوجه وانصرف بجمعه الى الفتاة . فأحست قرينته بالغيرة تنهش قلبها وأدركت ان هذه الفضيلة النفعية لن تؤدى الى خير أبداً .

وكان ان خلب حسن (جرترود) لب الفتى جاك فأحبها وفطن الى مابينها وبين والده من غرام أثيم لو أتيحت له الفرص لينمو فقد يطوح بكل كرامة ويذهب بكل شرف وقد يحطم بنيان الاسرة تحطيما

ثارت ثائرة الابن على أبيه واستنكر الشاب كيف احل والده لنفسه خيانة معتقده وكيف ضعف وهوى ، فلم يطق الوالد سماع هذا التقريع واستشعر من خلفه الغيرة تغلى فى صدر فتاه فاقصاه عن البيت وحال بينه وبين رؤية جرترود

وخلا للوالد الجو وظن أنه قد ذلل العقبات وفاز مرة أخرى ولكن القدر أبى إلا ان يغدر به ثانيا

وأراد ان يتم صنيعه ويقنع نفسه ان حبه لجرترود ان هو إلا مظهر من مظاهر الطيبة والرحمة فارسل بها الى طبيب فى لوزان أجرى لها عملية استعادت الفتاة بعدها البصر

وما أن عادت إلى القرية ووطئت أقدامها عتبة البيت ورفعت عينيها الضعيفتين المرفرفتين الى سيدها وزوجه حتى شعرت بوجود الشر فى هذه الدنيا . . .

شاهدت الغضون القاسية العميقة تجتاح وجه الزوجة وأحست بالعذاب الخفى يطل من حدقتيها ويرن فى صوتها ويستصرخ ويتوسل

فوجمت الفتاة وأطرقت تفكر وفهمت بغتة جريمة الزنا . . .

وهالها ماوقع بسببها فاختلجت بغتة واستدارت وخرجت لاتلوى على شىء

وعندما بلغت النهر انحنت وتظاهرت باقتطاف الازهار ثم ألقت بنفسها فى فى جوف الماء . فأسرعوا اليها وانتشلوها وحملوها الى البيت وأرقدوها على الفراش

وحاولوا جهدهم انقاذها ولكن الطب لم ينفع فيها ولا الحب . !

وكان سيدها واقفاً بجوار سريرها فتحاملت على نفسها واستوت على ذراعيها وتطلعت اليه وغمغمت تقول :

ـ عندما انفتحت عيناى على النور بدا لى العالم أجمل بكثير مما كنت أتصور ولكنى وا أسفاه أبصرت الهموم مخيمة على جباه الناس جميعا ! . . .

وصمتت لحظة وكأنها تحلم ثم عادت تسر الى سيدها قائلة :

ـ الآن فهمت قلبي . هو ابنك جاك الذى أحب . ما أن رأيته حتى أحببته . أحببته لأنه يشبهك تماما . . . يشبه الوجه الطاهر الذى كنت أتخيله لك ! . .

وخفت صوتها بغتة ورفت أهدابها وشهقت شهقة طويلة واسلمت الروح !

* * *

تلك هى القصة ، قصة رجل أحب الفضيلة حبا خياليا مفرطا خنق فيه قوى العاطفة والغريزة . ثم أحب مخلوقة عزيزة أراد أن يهديها عن طريق الحق والخير والجمال الى الله ولكن حبه وكهولته غدرا به وبعد ان كان يرى الفضيلة فى قتل غرائزه وكبح عواطفه رآها على النقيض فى ارسال تلك العواطف على سجيتها والاعتقاد أن فى تمجيد الحياة وافراحها تمجيدا لله الذى أوجدها

ومما لا ريب فيه أن هذا حق . حق على شريطة ألا ننافق فيه وألا يحدث التمتع به ألما لاحد . . .

ولكن الرجل تألم . والزوجة تألمت . والولد أيضا . أما الفتاة المسكينة فراحت ضحية الجميع !

ونحن أمام هذا الختام الرائع نقف حيارى ! ونتساءل :

انقبل الفضيلة بحدودها الضيقة فننفصل عن الحياة . أم نقبل الحياة بافراحها الغادرة فنحدث الآلم للغير ؟

أين ، أين هى الحقيقة ؟ . . .

أسرة بنوا

LES BENOIT

لادمون هاروكور

ادمون هاروكور بدأ حياته الأدبية كشاعر غنائى فأصدر ديوانه المشهور (الروح العارية) وأردفه بقصة (الأصدقاء) ثم بدرامة مثلت على جميع مسارح أوربا وهى (العذاب) التى يصور فيها آلام عيسى المسيح . أما القصة التى نلخصها هنا فهى أروع وأجود ما كتب . وادمون هاروكور يمتاز من بين الكتاب الفرنسيين بذهن صارم عنيد ، وارادة جبارة ، وملاحظة دقيقة ، واحساس قوى بآمال الغير وآلامهم فهو يجمع الى التحليل النفسانى العميق رحمة انسانية واسعة كبعض كبار كتاب الروس

كانت زوجة والدها تعاملها أسوأ معاملة . تنتهرها أمام الاغراب ، وتفرض عليها العمل يوم الأحد أيضا ، تزدريها وتضربها وتحرمها من الحلوى ولا تجد لذة إلا فى تحقيرها أمام صديقاتها اللواتى كن ينظرن اليها إذذاك بعيون ملؤها التهكم والشماتة والقسوة

ولم تكن تجد فى والدها نفسه ماينزع اليه قلبها من عطف وحنان ، فقد كان عبداً لامرأته يتأثر بأقوالها ، ويستمع لنصائحها ، ويصدق ماتقول عن ابنته ، ويرى فى ذلك مرضاة لها واقراراً للسكينة فى البيت ..

وظلت (بنوات) الصغيرة تقوم بنفسها على شؤون المنزل ، تخرج الى السوق لشراء مختلف الحاجيات ، تحمل السلة الثقيلة على ذراعها الضامرة الزرقاء ، تغسل الآنية وتنظف الارض ، فاذا ماخانتها القوى لحظة وقبعت فى زاوية تستريح

عاجلتها زوجة والدها بركلة أو صفعة تعيد اليها نشاطها المألوف

أمعنا فى إذلالها وماأن بلغت الثانية عشرة حتىارغماها على العمل فى الخارج لتكسب قوتها فاشتغلت كخادم فى أحد البيوت . ولكنها أحبت هناك كلبا صغيراً كانت تغافل أسيادها وتنفرد به وتطعمه قطعاً من السكر ، فظنوا أنها تسرق السكر وترسل به الى أهلها فطردوها فعادت حيث كانت فأوسعتها زوجة أبيها تقريعاً وضرباً ، فلم تطق وتركت البيت هائمة على وجهها وظلت شاردة حتى اجتازت القرية كلها . وبينا هى تمشى على غير هدى أبصرت فتاة طويلة القامة ، رقيقة المحيا ، تحمل فساتين ملونة زاهية لم تحلم قط (بنوات) ان ثمة أمرأة فى الدنيا يمكن أن ترتدى مثلها . . .

أخبرتها الفتاه انها تعمل كخياطة عند سيدة فاضلة وانهايتيمة الابوين وتسكن حجرة لطيفة ضيقة الا ان فيها مع ذلك متسعا لاثنين . . .

شكرتها بنوات من صميم قلبها وعرضت عليها الفتاة ان تعمل معها فقبلت وعلى شفتيها ابتسامة فرح وغبطة واخلاص

وكانت بنوات فتاة طيبة السريره ، صافية النفس ، ساذجة الى أبعد حد ، تمر برذائل الناس وشرورهم دون ان تتأثر بها أو تأبه لها أوتحاول ان تتبين دقائقها ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ناصعة الجبهة ، مثال حى من أمثلة الجمال والشعر

أما صديقتها (جبرييل) فقد كانت ذكية ، ماكرة لعوباً ، تنفذ بصيرتها الى صميم الاشياء ، ثم تطيل التفكير فيها ، وتجد أكبر لذة فى معرفة الحقائق التى تخشى الفتاة عادة انعام النظر فيها

وكانتا تخرجان الى النزهةفتبطىء جبرييل فى السير وتتلكأ ، وتقف بواجهات المخازن تعجب بالاثواب الجديدة ، وتنقدها ، وتلفت نظر بنوات اليها ، وشهوة الترف تلمع فى حدقةعينها ، والفتاة تتطلع وتضحك ولا تفهم تلك الأهمية العظيمة التى تعلقها صديقتها على أمثال هذه الشؤون التافهة . . .

أما الشبان فكانوا يلتفون حول جبرييل ولا يحفلون بالمسكينة بنوات تفتنهم من الأولى خفةروحها ورشاقتها وحلاوة حديثها ، وتصرفهم عن الثانية رصانتها .

وكبرياء نفسها ، وبساطتها الفطرية التي لم يعط لأي منهم ان يحس روعتها ويفهمها !

وكانت تشعر بنوات بسحر جبرييل وترى نجاحها العظيم فى استمالة قلوب الشبان ، واقبالهم عليها ، وعنايتهم بها ، ولكنها لم تكن لتغار منها أو تحسدها أو تحاول أن تستلب منها عشاقها

وهل كانت بنوات فى حاجة إلى ذلك وهى التى ترفرف بروحها بين السماء والارض ، وتحلق فى عالم أثيرى لاتصل اليه آثام الناس ومفاسد المجتمع . لقد كانت تكتفى بسعادة العمل ، ونشوة الحياة ، ومرح الحرية ، وهدوء القلب ، وما تتفجر به ينابيع نفسها من طيبة عميقة ورحمة واسعة

وعاشت برفقة صديقتها سنة كاملة . تعمل فى الصباح معها . وتنام فى الليل بجوارها . أهنأ ماتكون بالفرنك الواحد الذى تتقاضاه من الخياطة كل يوم

وكانت تقدس جبرييل ، وتعجب بها ، وتشعر بفرح عظيم كلما رأتها وحولها سرب من الشباب يمتدحون جمالها أما جبرييل فقد أغراها الاطراء ، وأخذت بلبها مفاتن الحرية ، وأحست بنجاحها فى اجتذاب القلوب فتاقت نفسها الى استكمال محاسنها ، وارواء غلتها من شتى مناعم الترف التى تشاهدها فى الحياة العامة بعينين مشدوهتين

بدأت تهجر رفيقتها ، وتتغيب فى المساء عن موعد النوم ، وتسهر كشاب طليق حر ، وبنوات تنتظرها ، حائرة قلقة مضطربة لايغمض لها جفن

وتمكنت هذه العادة من نفس جبرييل فكانت لاتدخل الحجرة الا بعد منتصف الليل مغبرة الوجه ، مشعثة الشعر ، تعبة ، كليـــلة ترتمى على الفراش كجثة هامدة

وفى ذات ليلة فتح الباب وأبصرت بنوات صديقتها شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فاقبلت عليها مستفسرة فما كان من هذه الا أن طفقت تبكى أحر بكاء وتقول ان شقيا خدعها واغواها ، ومناها بالزواج ثم اعرض عنها ، وها هى منكودة منبوذة ضعيفة ، تحمل فى احشائها ثمرة ذلك الهوى المشؤوم !..

لم تفهم بنولت حق الفهم كلام جبرييل فقصت هذه عليها قصة غرامها ، وشرحت لها الدقائق والتفاصيل ، فشعرت بنوات بخطورة الأمر ولبثت تفكر لحظة . ثم استوت فى مجلسها وحدقت فى رفيقتها وقالت انها ستطلب الى الخياطة عملا إضافيا تضاعف به دخلها اليومى ما استطاعت لتتمكن من الانفاق على صديقتها أيام الوضع فاذا ماانتهت ، رجعت جبرييل الى العمل، واهتمت المرأتان بتربية الطفل

وذهبت الأم الى المستشفى ووضعت طفلها . ولكنها أصيبت عقب الوضع بحمى نفاس شديدة أودت بحياتها .

ذعرت بنوات للخبر ، واسرعت الى المستشفى فشاهدت صديقتها المعبودة جسما لا حراك فيه وابصرت الطفل يلوح بقبضيته الصغيرتين ويبكى فكاد يتمزق فؤادها حسرة فما كان منها إلا أن توسلت واسترحمت بغية ان يعطوها الطفل لتتولى أمر تربيته بدل أمه التعسة فأجابوها الى سؤلها وسلموها إياه فحملته بين ذراعيها وجعلت تقبله وتناغيه وتدهدهه ثم خرجت به وفى نفسها شعور عميق بأن حياتها قد أصبحت ذات معنى ، وان فى وسعها الآن أن تعيش وتكد وتتألم فى سبيل مخلوق ليس له فى العالم غيرها !

وكانت تقترعلى نفسها وتقتصد جهدها لتنفق على تعليمه . وشب الفتى وترعرع وجاز فصول الدراسة الأولى ، واشتهر بين إخوانه بالذكاء الخارق ، والاجتهاد والدأب . فكان لزاما على والدته ان تستأنف تعليمه ، ولكنها لم تستطع تلبية تلك المطالب الجسيمة . والتكاليف الباهظة التى يستلزمها التعليم الثانوى

التمست الى الخياطة ان تقرضها مبلغا على الحساب فرفضت ، توسلت الى مدير المدرسة ان يمهلها شهراً فابى ، راحت تستدين من صديقاتها على غير جدوى: سدت فى وجهها السبل وتنكر لها الجميع فقامت من فورها وارتدت ملابسها . واستقلت القطار الى باريس ظناً منها أنها سوف تجد هناك عند الخياطات الكبيرات عملا ممتازا يعود عليها بالربح الوفير ، خاب أملها وألفت نفسها مرغمة على مضاعفة الجهد لاكتساب نفس المرتب الذى كانت تتقاضاه فى القرية والا زاحمها جيش الفتيات العاطلات وقضى عليها القضاء المبرم

ودفعت بها الحياة الى المهواة مكرهة . ساقها الاعتراف بجميل جبرييل ، والاخلاص لولدها ، الى التضحية بجسمها تضحية كاملة . .

كانت تعمل فى المشغل صباحا وفى الشوارع ليلا ثم ترسل بالنقود الى المدرسة ولاعزاء لها إلا فى مطالعة الخطابات التى كان يبعث بها اليها المدير مثنيا على الفتى أجمل ثناء معللا أمه بالمستقبل الزاهر القريب

وبلغ الشاب التاسعة عشرة من عمره وكانت جبرييل قد دعته (بنوا) تيمنا باسم صديقتها فلما توفيت وشب الغلام وأدرك أنه ابن الهوى المحرم ، ثارت فى نفسه عوامل الـكمد والأسى ، ومال الى العزلة ، واستوحش ، وزاده نفوراً موقف الطلبة من نحوه ، وتعييرهم له . وسخريتهم منه ، وقسوتهم واحتقارهم ، ولـكنه كان برغم هذا يحس أعمق الحب لبنوات ، وأوفى الاحترام ، لايكاد يراها مقبلة عليه فى ردهة المدرسة حتى يتقدم اليها باسطاً ذراعيه باسما والدمع يجول فى عينيه

وبينما كانت بنوات جالسة فى المشغل ذات صباح تخيط فستاناراشعاً لغانية من غوانى باريس سلموها خطابا جديدا من مدير المدرسة ماان قرات منه بضعة أسطر حتى أشرق محياها وتهلل

أخبرها المدير أن بنوا نجح فى الامتحان النهائى نجاحا باهراً وان الحـكومة قد تعهدت بالانفاق عليه حتى يتم علومه

أحست المرأة أن حياتها قد تبدلت بغتة . وان العناية رأفت بها ، وأنقذتها من التهتك الاجبارى الفظيع الذى كان يسمم عظمة تضحيتها

ومرت الأيام وتخرج بنوا وعين أستاذاً فى مدرسة (فرون) واستقدم اليه « أمه » وعاشا معاً فى مسكن صغير وجميل . وابتسم لهما الدهر فترة ،فكانا يخرجان الى النزهة معاً . تتأبط ذراعه وتتوكأ عليه ويحنو عليها ويرعاها ولا يفـكر الا فى العمل من أجلها

ولم يـكن يترك البيت الا الى المدرسة ، لايخالط أحداً ، ولا يهتم بأحد ، تمر به فتيات القرية فلا يأبه لهن وتقام المراقص والأعياد فلا يحفل بها ،

تعترضه الحسان الماكرات ويحدقن فيه ويداعبنه ويسخرن منه فيتطلع اليهن ذاهلا ثم يلوى وجهه ويهز رأسه كحكيم يستخف بكل شيء.

وكان بنوا لفرط ماقاسى فى صباه من اضطهاد الطلبة رفاقه قد شغف بالعلم وأرصد عليه جهوده ولم يعد يجد فى المرأة الفتنة الخطيرة التى تجتذب كل شاب . لم يكن فى حاجة للمرأة وهو الذى يفيض عليه الفكر لذة تفوق كل لذة . ولكن هذا لم يكن ليرضى القرويين فقد كانوا وشاة نمامين خبثاء يدهشهم من هذا الشاب الغريب جموده واتصاله بتلك المرأة الصامتة الوديعة التى يدعوها بوالدته بينا هى صبية فى الخامسة والثلاثين وهو فتى لم يجاوز بعد ربيعه العشرين . . .

حامت حولهما الشكوك ، وأشعلت الفتيات الغيورات نار الفتنة ، واتهم الجميع بنوا انه يعاشر خليلة له ، وان سلوكه لايتفق ومهنته ، وانه يفسد أخلاق تلاميذه ويضرب لهم أسوأ الامثال

وشكا البعض الى مدير المدرسة شذوذ هذه الحال. وأوغروا صدره على الشاب ودافعوا عن أخلاق أبنائهم وسمعة القرية فما كان من المدير الا ان أرسل فى طلب بنوا وهدده بالاقالة ان هو لم يتزوج من خليلته . .

عبثاً قص عليه الشاب قصتها ، عبثاً حاول اقناعه أنها بمثابة ام له وانه يحترمها ويقدسها كأعف وأطهر السيدات

وذهب اليها مغموما حزينا وأخبرها بما كان فاسودت الدنيا فى عين المسكينة وخيل اليها أن القضاء عاد يطاردها ، وأنها بدل أن تسعد ابنها قد تجر عليه الشقاء بل قد تهدم فى لحظة هذه الحياة الغالية التى ازهرت على يديها فى سنين

حارت فى امرها ولكن الشاب تقدم اليها وعرض عليها ان يقترن بها انقاذاً لهما واتقاء وشايات القرويين ضعاف العقول غلاظ الاكباد . يقترن بها فى الظاهر وأمام المجتمع الذى لا يرحم ثم يواصلان العيش كوالدة وولد !

طاش صوابها وهالها منه اصراره وأدركت انها لو طاوعته لدفنت شبابه بكلتا يديها . وتوسلت اليه أن يبحث عن فتاة طيبة تشاركه حياته وأن يتزوج منها ولكنه كان مفكر متشائماً يكره المرأة ويمقت الزواج ولا يود أن ينحدر من صلبه الى محيط هذا العالم مخلوق جديد يتعذب ويشقى . كما تعذب هو وشقى

لم تجد بدأ من اطاعته فرضيت وقبل ان يعقد له عليها كاشفته بماضيها وكيف انها كانت تتهتك لتنفق على تعليمه ، فلم يستنكر ولم يأنف ولم يلم بل انحنى وقبل يدها وطفق يبكي !

وسمت في عينيه وبات ينظر اليها كقديسة شهيدة خليقة بأن يبذل في سبيلها كل شيء

وظن بنوا ان عهد الاضطراب قد انتهى . وانه سيحيا بجوار بنوات حياة رجاء وهدوء ولكن من الذي في وسعه اكتناه سر القضاء ؟ من ذا الذي في مقدوره معرفة مايمكن ان يجيء به الغد ؟ الاعوام تتوالى ، والاعمار تفنى ، ولا يوم يشبه الآخر بل لا ساعة تشبه الاخرى ، كل قوة تنصب في الابدية ، وكل فرح لا بد مقترن بالعدم

رضي الرؤساء عن بنوا وعينوه ناظراً لمدرسة جديدة في قرية نائية . فرحل اليها وتولى مهام منصبه وأحس أنه سيبلغ في مهنة التعليم شأواً كبيراً لو أنه ظل مثابراً على الجد والنشاط

اطمأنت بنوات ولو أن ضميرها كان يبكتها كلما رفعت بصرها وشاهدت ذلك الوجه الأبي الجميل يتقلص شبابه أمام عينيها شيئا فشيئاً . كانت تتألم في وحدتها ، وتبكي حنقاً وحسرة ، ولا تفتر تغمغم انها المسؤلة عن كل ماوقع وانه كان واجباً عليها أن تفر إلى باريس وترجع الى العمل وتدع الشاب يتزوج ويستمتع بشبابه في صفاء وهناء

واكتنفتهما عزلة القرية وعقد الصمت حولهما جوه الثقيل وأحست بنوات ان لا بد من التفريج عن نفس الفتى بارتياد المجتمعات والتعرف الى بعض أسر القرية فكانا يزوران بيت المسيو دورميز ـ مدير ادارة المدرسة الجديدة ـ مرة في الاسبوع وكان للمسيو دورميز فتاة رائعة الحسن تدعى سيسل بسامة الثغر ، طلقة المحيا ، ناضرة الصوت والبدن ، ذات عينين ساحرتين سوداوين وشعر مجعد وشفتين قرمزيتين دقيقتين ،

حادثها الشاب وحادثته ، وكان يعد نفسه قوياً فاعجب بجمالها أعجاب ملاحظة وفكر ولم يحفل به طويلا . . . ولكن تعدد الزيارات والجلسات والاحاديث وعزلة الحياة القروية ، وتشابه مناظرها ، كل ذلك ولد في صدر بنوا شعوراً بالضجر كان لا يحس به على الاطلاق ساعة أن يقع بصره على محيا سيسيل البريء

أما بنوات فقد أدركت بسليقتها أن فؤاد الشاب بدأ يتحرك ويلين . وانه جاف حزين بالقرب منها ، رقيق سعيد بقرب سيسيل . فأحبت أن تزيده منها وأن تدنيه من النعيم بقدر ماأقصته عنه فدعت الوالد وابنته لتمضية شهر من شهور الصيف فى ضاحية جميلة

ورحل الجميع جذلين مغتبطين . وفى ذات صباح بيناهم يتنقلون بين المروج الزاهية الخضراء ، والجو لامع ، والنسيم رقيق ، تقدم بنوا وتبعته سيسيل واتأدت بنوات فى سيرها وجعلت تحادث المسيو دورميز

حاول بنوا أن يكر راجعاً ويهزم التجربة . حاول أن يقاوم . أن يبحث فى خفايا نفسه عن كرهه القديم للمرأة ، ولـكنه لم يجد شيئا . ساقته قدماه على الرغم منه ، وأحس بظل الفتاة يلاحقه فخفق قلبه وارتجف والتفت كالمذهول

رأى سيسيل تمشى متعثرة بين الاعشاب ومحياها الطلق يتلالأ . فمال اليها . وأخذ يدها بين يديه وكاشفها بهواه . تراجعت قليلا ولم تتكلم . بل أشاحت بوجهها ، وغضت من بصرها ، ثم اختلج جسمها كله وأفلتت من الشاب وجعلت تعدو مرسلة اليه على اطراف أناملها سربامن القبلات !.

وعاد إلى البيت فدخلت عليه بنوات فألفته جالسا تجاه صورة الفتاة يبكى . فلم تتردد لحظة وأسرعت الى منزل سيسل وانبأتها أنها قد علمت بكل شىء وانها مستعدة لطلب الطلاق من بنوا والانفصال عنه اذا ما كانت سيسل تحبه حقا وتريد أن تقترن به

ذعرت الفتاة اشد الذعر . والتبس عليها الأمر ، ورفضت خوفا من أبيها الرجل المحافظ المؤمن المتعصب الثرى ، عدو الطلاق والمطلقين ، الذى لن يسمح بزواجها إلا من فتى موسر مستقيم يختاره لها بنفسه

عادت بنوات وملء قلبها الحسرة . وعز على سيسل كيف تخيب فى حبها الاول وبدأت تشحب وتهزل وتستوحش ، ووالدها يراقبها ويراقب بنوا ، ثم يقارن بين حالها وحاله ، حتى أدرك فى النهاية سر الامر فسخط واستنكر وظنها مكيدة دبرها الشاب للظفر بالفتاة الصبية واتخاذها خليلة والتخلص من الزوجة المحرمة فحرم على ابنته الخروج من البيت وفى اليوم التالى اصطحبها ورحل الى القرية

وهو يلعن الساعة التى تعرف فيها إلى اسرة بنوا !

دب اليأس فى نفس الشاب . وازداد طبعه جهامة ونفورا وتلفت حواليه وإذا بحياته قد خوت من كل جميل ورقيق ، لا أمل ولا عزاء ، لا عطف ، ولا هوى ، بل ركود فظيع ، جو مختنق ملبد ، ألم دائم عميق عزلة مفعمة بالهواجس والخيالات ، وهذه المرأة . . . المرأة الطاعنة فى السن المرأة التى أحبته وقتلته ، تتألم هى الأخرى أمام عينيه ، تبكى وتطوف بغرف البيت ملتاثة ، تود أن تنقذه ولا تستطيع ، أن ترحمه ولا رحمة ، فتقبع فى زاوية وتظل تنظر اليه نظرات طويلة وتبكى

وبدأت السنة الدراسية وعادا الى القرية وخيل الى بنوات أن العمل سيصرف الشاب عن الماضى وانه سوف يهدأ فتقر هى أيضاً وتقضى البقية الباقية من عمرها تؤاسية وتخدمه

لكن الذكريات لم تبرح خياله لحظة وأنهماكه فى العمل زاده جفوة ومرارة فبدأت أعراض الضعف العصبى تبدو عليه واضحة مقلقة . فاضطربت المرأة ، وساورتها المخاوف ، وعاودتها لوثتها القديمة ، فكانت تخاطب نفسها فى وحدتها وتهذى ، ثم ترسم لها أفكارها صوراً مخيفة فتصرخ وتستغيث ،

وانها لجالسة بالقرب منه ذات يوم ، واذا بموزع البريد يسلمه خطابا أبيض ناصعاً لم يلبث أن افتضه وألقى عليه نظرة حتى دفع به الى بنوات وصاح متأوهاً بصوت ممزق مخنوق

علمت المسكينة أن سيسيل قد تزوجت ، وان آخر أمل للشاب قد زال ، وانه لولاها ، لولا وجودها ، لولا ضعفها ورضاها بالحياة معه لكان الآن ينعم كالآخرين بالمرأة التى أحب !

استولى هذا الخاطر على ذهنها ، واحتل كيانها ، وبات كعارض جنونى لاغنى لها عنه ، تتشبث به وتتحدث عنه ، وتضعه نصب خيالها وتعذب نفسها به ويقوض جسمها جزءاً فجزءاً ويعجل بها إلى الشيوخة

جاءتهما الانباء أن سيسيل قد رزقت غلاما فبنتا وانها سعيدة وتتمنى لهما كل هناء

ثم يضطرب بنوا ولم يتكلم بل لاذ بصمته وارتمى فى العمل

أما بنوات فقد رزحت تحت هذه الكوارث المتعاقبة وأصيبت بالصمم والشلل فكان يأتى الشاب ويجلس عند سريرها ويقرأ لها فى كتاب أو يغنيها أنشودة . أو يتكلف الابتسام والضحك أو يلوى بوجهه فتنهمر من شؤونه العبرات

وماتت الشهيدة بنوات عشية يوم مقرور ولم يشيع جنازتها أحد فدفنها بنوا ولما أن أهالوا الثرى على التابوت أحس الرجل أن قلبه يتقطع فماد مطرق الرأس ، زائغ العينين ، يتهادى ، ويضرب فى الأرض كمعتوه !

ودع القرية واعتزم الالتحاق بمدرسة أخرى وكان لابد للقطار الذى استقله أن يقف بمدينة (نيم) حيث تسكن المرأة التى أحبها !..

لم يستطع المقاومة ونزل من القطار واتجه صوب المنزل وصعد الدرج ودق الباب ثم فكر بغتة فى الهرب . ولكن الباب فتح وأبصر أمامه الخادم تحمل طفلين أحدهما يشبه حبيبته كل الشبه ، فانحنى وقبلهما وسأل عن صاحبة الدار فجاءت سيسيل تتخطر وتضحك وقد امتلأ بدنها ، وازدهرت قسماتها ، وأضفت عليها الانوثة الكاملة حلة مجد ساحرة

دهش بنوا وتراجع . وانكر أن فتاة الامس التى كان مدلها بها هى نفس أمرأة اليوم

شاهد بعينيه كيف أحالها حب رجل آخر أمرأة أخرى ، قص عليها خبر وفاة بنوات فتظاهرت بالحزن ورمته بنظرة شفقة ساخرة فغلى الدم فى عروقه ، ولكنه تمالك نفسه وقام لفوره فودع سيسيل وانصرف

* * *

رجع إلى القرية ، وظل يمشى على غير هدى . يحملق فى الشوارع كأنما هو يراها للمرة الأولى ، ويتطلع الى المارة كأنما هو يفتقد بينهم عزيزاً كان بقربه الساعة !

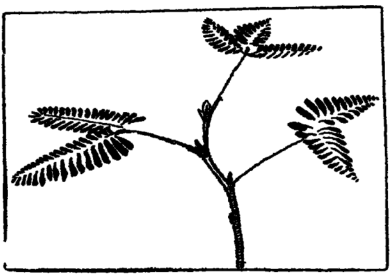
لم ينظر اليه أحد . لم يلتفت اليه انسان . أحس بنفسه وحيداً شريداً لا حياة ولا أمل !

خسر كل شيء . المرأة التي أحبته والمرأة التي أحبها . أجال طرفه في الفضاء فخيل اليه أن الطبيعة لم تخلق لأجله ، وأنه لابد مقضى عليه ، فاتجه صوب منزله ، ودخل الحجرة التي كانت تعيش فيها بثوات ثم وقف لحظة كالمبهوت وتأمل جدرانها وأثاثها ، وجلس على المقعد الصغير يفكر ، وحانت منه التفاتة فأبصر صورة الفقيدة محدقة فيه تبتسم اليه أصفى ابتسامة وأحلاها فصرخ صوتاً فظيعاً . وقام من فوره فخلع ملابسه وتقدم الى الباب فأغلقه وأحكم رتاجه ...

ثم تمدد على الفراش وحاول أن ينام ! .. مرت بضع ساعات لم يسمع فيها أى صوت ولكن عند مادقت ساعة القرية ثلاث دقات سمع شبه عويل غريب ينبعث من جوف الحجرة وصوت شيء يسقط على الارض ويدوى في الظلام دوياً مفزعا

***

وفي الصباح جاء رجال البوليس الى البيت ، وحطموا الباب ودخلوا فأبصروا بثوا مشدوداً من عنقه الى حبل معلق في سقف الغرفة ، وقد جحظت عيناه ، وتدلى لسانه ، واصفر وجهه وفارقته الحياة !



تيريزراكان

Therese Raquin

لاميل زولا

اميل زولا من أكبر قصصى فرنسا وهو زعيم مذهب «الناتورالسم» أى رسم الحياة من ناحية الطبيعة المحضه . ففنه تصوير للغرائز وأطوارها فى جسم الانسان وعقله . وأكثر ما يهتم به أميل زولا درس شهوات الحواس . فالجوع والرغبة الجنسية والعمل الجثمانى وكل مايتعلق بمطالب البدن ونزواته يجد فى هذا القصصى أمهر المصورين وأدقهم فالتحليل النفسانى والبحث فى العواطف المركبة ليس من شأنه . فهو يرسم أعراض الحواس فقط . ومعظم أبطاله من أفراد الشعب الخاضعين لحكم المطرة. فالعقل المثقف المصقول بالمعارف والآداب هو الذى يخلق فى النفس تفاعلات عاطفية معقدة . أما العقل الشعبى العادى البسيط . فمرجعه الغريزة . والغريزة هى مادة العمل الفنى عند زولا . وقصة « تيريز راكان » من أروع قصصه وأبلغها فى الدلالة على نزعته الفكرية والفنية .

أزقة مظلمة ضيقة موحشة . يشعر المرء فيها بضرب من الأسى يستولى عليه ويحتل فكره ويستحوذ على البقية الباقية فيه من روح الطلاقة والمرح

فى تلك الأزقة بيوت متداعية . مغبرة اللون صفراء تضرب الى الحمرة المكمدة . تتناثر منها طبقات الجير رهوة زرقاء ، وتنضح جدرانها بالرطوبة المتغلغلة فى الجسم تشل المفاصل وتضاعف فى النفس ذلك الأسى

وكانت باريس اللاهية العابثة أبعد ماتكون عن هذه الأزقة الخامدة الميتة . فالمجون والاستهتار وشتى ضروب اللهو والغانيات الحسان المتهتكات والحفلات الداوية والمشارب والحانات الكبيرة لم تكن أصداؤها لتبلغ هذه الناحية التي يخيم عليها ليل دائم وتعقد الكآبة فوقها سحبا كثيفة

وكان يخيل الى المتجول فى هذه الاحياء انها قبر فسيح فى فؤاد باريس المتقد يكاد يخمده ويبعث فيه برودة الموت الفاجعة

ولكن باريس لم تكن لتعبأ بما يكتنف جسمها الناصر من جراثيم . وكأن حياتها المصطخبة لاتفتأ تطرد سيل الاوحال كالنهر ينصب قويا هادراً يجرف فى طريقه كل شىء

فى حى من تلك الاحياء كانت تسكن أسرة « راكان » المؤلفة من « كاميل » وزوجه « تيريز » ووالدته مدام راكان

وكانت الوالدة امرأة عجوزا قد كلل الشيب شعرها الخشن اللامع . طيبة رحيمة . ذات عينين هادئتين وجبهة ضيقة وتقاطيع بارزة فيها شىء من الجلال الفاتن الصافى ينسكب على جثمانها فيؤثر فى الناظر ويرسل فى ارجاء البيت نوعا من السكون

وكانت كلفة بالصمت تسير بخطى وئيدة متلصصة وتتحدث الى ابنها وزوجه فى همس . وتنصرف الى شؤون المنزل وقبلتها العمل وحده وسعادتها النفسانية القصوى فى تأدية ماعليها من واجب دون تردد أو كلل

ولم يكن أحب اليها فى الدنيا من ابنها كاميل فقد كانت تختصر لذائذ الحياة فى نظرة واحدة اليه . وكانت تكد وتدأب فى سبيل تمتعه بالراحة والرفاهية وكل ما يمكن ان يجول برأسه من رغبات و آمال

وكان كاميل شابا هزيلا تقضت سنو حداثته فى الاوجاع والامراض وهاجمته مختلف أنواع الحمى والوافدات فكادت تجهز عليه

ولكن والدته لم تدخر وسعا فى سبيل حمايته ودفع غائلة الموت عنه

واستلابه من بين براثنه . الا أن المرض كان قد هد قواه وأنهك اعصابه وحال بين جسمه وبين النمو الطبيعى . فظل نحيلا قصيراً متداخل الاكتاف جاف العود شاحب اللون تطل عليك من وجهه الصغير الوجل عينان كبيرتان تحيط بهما هالة زرقاء ترسل فى النفس ذعراً ممزوجا بشفقة عميقة على الشاب المسكين

وكان كاميل قد أشرف على الثلاثين وحياته الضئيلة الموزعة بين مرض يعالجه وآخر يوشك أن يهبط به جعلت منه مخلوقا فاتر الهمة خائر العزيمة ، أعز مايطمح اليه فترات هدوء يقر فيها من تعب الحركة ، ولحظات حلم وتأمل يسبح فيها ما شاء خياله الأجوف وما وسعت دماؤه الفاترة من اهواء وأحلام

وهذا ما كان يزيد فى عطف والدته عليه ورأفتها به وحبها اياه وافناء جهودها فى اجراء السرور على نفسه وتبديد ذلك الظل المخيف ، ظل الموت الغادر ، من عينيه المحمومتين المذعورتين

ولم يكن له مثل أعلى غير احتراف مهنة كاتب فى مصرف فما زال بها حتى بلغها فكان يعمل سحابة نهاره عملا مضنيا شاقا ولكن المظهر الباهر وحياة المكاتب ووظيفة حساب محترم ، كان ذلك مما ينعش نفسه ويحفز فيه قوى المقاومة والاحتمال ويشعره بانه قد وصل الى ما تصبو اليه نفسه وما يمكنه من أن يحظى بامرأة يرزق منها أولاد تقربهم عيناه

وأقامت له أمه مأدبة حافلة يوم أن عين فى منصبه ودعت اليها رفاقه الموظفين وغامرت بزجاجات النبيذ المعتق وضحت بها عن طيب خاطر وانصرف جميع المدعوين وقد اكتظوا بأشهى الطعام واستمتعوا بلذيذ الشراب ولعبت برءوسهم نشوة الخمر فجعلوا يتمدحون بكرمه وسخائه ودماثه أخلاق والدته ورقة ابنة خاله تيريز التى كانت تقوم على خدمتهم وتسكب لهم الخمر وتسامرهم وتضاحكهم وهى لا تخرج عن حيز الوقار والحشمة ولا تنزل عن إبائها الرصين وتحفظها وهدوئها

وكان والد تيريز قد توفى من زمن بعيد فى حملة من حملات الاستعمار فى افريقيا فعهد بتربيتها الى عمتها والدة كاميل فآوت الفتاة فى بيتها واعتنت بتهذيبها عنايتها بابنها ولم تبخل عليها قط بشىء

ونشأت الصبية بجوار الشاب فى منزل واحد والفت الحياة بقربه وشاهدت عن كثب طلعته الدميمة ولاحظت جثمانه المشوه واعتادته كما اعتادت تلك الحياة الراكدة الآلية تنقضى بين عجوز وادعة صامتة تسعى الى العمل بخطى حذرة . وشاب واهن الأعصاب محطم الجسم متجهم عابس حزين لا يلبث أن يدخل البيت حتى يستلقى ويشكو ألما فى المعدة أو الصدر ويلتمس الى الصبية أن تعالجه بشراب ساخن يوقظ حواسه وينعشها ويلطف من حدة سعاله الخشن

وكان ان بلغ الفتى سن الرشد ولم يكن قد أحس من نحو تيريز بأية عاطفة ولم تستفزه اليها محاسن جسمها النضير ولم يشعر بأية جارحة فيه تستيقظ وتهفو لمرأى ذلك الشباب الحى

وكان هذا البرود الصارخ فى تصرفاته واعراضه التام عنها وتأففه وعجزه وجو الشلل المضايق المرفرف دواما حواليه ، وانكماش العجوز وهمودها يدفع بالفتاة الى كتمان أفكارها ومنازعها والرضاء بعيش الخمول والحسرة وانتظار مايمكن ان يمن به عليها الزمن من نعيم طالما عللت به نفسها وطالما أمضها وأقلقها وغلب الأرق على أجفانها وقلبها فى فراشها حيرى لاتدرى فيم تفكر وما تطلب ولا الى أى لون من ألوان السعاد تصبو

ورأت العجوز أن الحياة تفر منها على مهل وأن وحيدها وسلواها سيصبح عما قريب ولا أنيس ولا معين فاشفقت عليه من عزلة لاقبل له باحتمالها وأضمرت أن تزوجه من تيريز التى كانت تثق بها ثقة عمياء وتظن أنها قد غرست فيها من خلالها الطيبة واخلاصها وحبها العمل مايكفل سعادة ابنها وتأسيس أسرة هانئة لاتقوى عليها صروف الدهر وعاديات الزمن

وخاطبت ولدها فى الامر فلم يمانع وفاتحت به ابنة أخيها فراحت واجمـــة

لا تشعر بأى دافع يدفعها للرفض أو القبول ، للحزن أو الفرح ، كأنما اقترانها بكاميل كان . كارثة مسطورة لها فى لوح المقادير مهما ناضلت وأعولت فعبثا تحاول ردها . وهل أبقت لها حياتها الذليلة أية همة تحفزها الى النضال ؟ وهل دماء شباب متقد تلك التى تسرى فى عروقها ؟ وهل خلجات امرأة فتية تلك التى تحسها ؟ وهل هى امرأة كبقية النساء لها مالهن من عواطف ومشتهيات ؟

لا . ان الحجر الصلد هو صدرها ، والينبوع المجفف قلبها ، والمرمر البارد جسمها والذهول المعذب الحائر مادة حياتها . فليس لها الا ان تخضع وتصمت وتعنو

ومدت المائدة الكبيرة ودعى الموظفون والجيران وفتحت مرة أخرى زجاجات النبيذ والشمبانيا

وأترع المدعوون كؤوسهم فى صحة العروسين . وكانت تيريز جالسة قرب زوجها جامدة مبهوتة تسرح فى الجميع أبصارها فتصادف وجوها مشرقة وشفاها باسمة ثم تستدير قليلا وتتحول الى كاميل وترمقه بنظرة فاحصة فاذا هو مصفر اللون باهته . يضحك ضحكات طويلة بلهاء ويجيب على تمنيات رفاقه بعبارات مزرية تافهة . فتحنى رأسها عياء وتثور فيها مختلف العوامل من غيظ وكمد وأسى فتشيح بوجهها وتأخذ فى مخاطبة احدى المدعوات وتمعن فى القهقهة خشية أن تمد العجوز ببصرها الحاد الى قرارة نفسها

وانصرف المدعوون وقامت العجوز فقبلت ولديها ودعت لهما بطول العمر ورخاء البال وتركتهما فصعد الزوجان الى مخدعهما

. .

وكان لمدام راكان العجوز حانوت خردوات عند مدخل البيت تظل فيه طيلة نهارها تلاطف الزبائن وتستدرجهم وما تزال بالبخلاء منهم يساومونها وتحاورهم حتى تظفر بهم فى النهاية وتبيعهم بضاعتها رغم أنوفهم . وكانت تيريز تنصرف لشؤون البيت والعجوز لحانوتها فلم يكن للمرأة الشابة سمير غير العمر لا ينفتأ يتكرر على مر الايام ولا يخفف من وطأته غير مقدم الزوج عند الظهر وجلوسه

للطعام بين زوجه ووالدته يحدثهما عن نوادر الموظفين وأسرار بيوتهم وما يحلمون به جميعاً من علاوات وترقيات

ولم يكن كاميل ليعرف فى العالم شيئا غيرهذا ولا دار فى خلده ان حديثا آخر قد يكون أفكه من هذا الحديث، ولا أحس لحظة ان مايعود عليه باللذة قد يضجر الغير ويضايقهم الى حد الألم

وكانت والدته أسعد ما تكون بحكاياته. الا أن تيريز كانت تتألم وتزدرد الطعام ازدرادا وقد حلقت أفكارها فى اجواء مترامية بعيدة تبدو فيها الفينة بعد الفينة أطياف عابرة غريبة ...

وبدأت تلحظ فى عناد هنات زوجها وتعدها عليه وتحاسبه بمقتضاها وتزيدها الوحدة اهتياجا وضجرا فتغلو فى نظرتها اليه وحكمها عليه وتذهب فى تأويل أعماله شتى المذاهب وينتهى بها الامر الى ازدرائه واصطناع الادب الجاف فى معاملته وكانت تتبرم باوجاعه ولا طيق منه انه لايكاد يقوى على مصارعة النسيم فى صبيحة يوم ناضر ولايستطيع أن يخطو خارج البيت خطوة واحده اذا ماعصفت الريح بالأشجار ودوى الرعد فى السماء وانهمر المطر وتهاوت قطع الجليد

ولم تكن تيريز على جمال عظيم ولكنها كانت بضة الجسد مليئة التقاطيع عريضة الاكتاف ناهدة الصدر ذات عينين براقتين وفم صغير ناتىء مخضب بحمرة دامية تلمع على الشفاه الغليظة المتدلية فى شره وحدة وغضب مكظوم

ولم يكن كاميل ليبصر من هذه الفتنة شيئا ولا كان فيه من مدخر القوى مايحرك به عواطف زوجه ويضرم جذوة الحب فيها. وأحست المرأة أن دعوتها الحارة لا تصادف منه اذنا صاغية ولا تظفر بنظرة واعية فدب اليأس المروع فى نفسها وخالت البيت سجنا والعجوز حارسا والزوج جلادا

ولم تكن العجوز على ذكائها وخبرتها لتستطيع أن تستشف الواقع بل هى لم تابه لذلك ولا أخطرته على بالها اذ نفوس الخير كانت تتراءى لها طيبة مخلصة كنفسها فالفضيلة التى تسكن قلبها هى التى كانت ترى من خلالها نفوس الآخرين وتقدرهم وتحبهم وتحنو عليهم جميعاً كابنائها

وابتردت شيئا فشيئا حرارة المرأة الصبية وقرت دماؤها وأظلم الكون فى

عينيها وشاع فيها ضرب من التبلد والسهوم فأخذجمالها يذبل وغار خداها وانطفا بريق وجهها واستحالت نضرتها الى شحوب وعصبيتها النشطة إلى تواكل ورخاوه فعادت لاتعنى بزوجها ولا بعمتها ولا بالعالم.

ويا ليت القدر كان قد حبا تيريز المسكينة بطفل تحوطه بعين عنايتها وتفيض عليه بما يحتبس فى صدرها من عواطف لا تجد منصرفا فتجيش وتعلو تكاد تخنقها خنقاً

ولكن هذه المرأة القوية البنية الطامحة للايناع والازدهار لم تكن لتستطيع برغم شقائها وجفافها وظمئها أن تنزل عن حيويتها العميقة المستكنة بين ضلوعها الرابضة فى حدقتيها ، تعد الساعات وتتحين الفرص

وهكذا كانت الحياة فيها اقوى من العدم المنتشر حولها والامل اقوى من اليأس

وكان يخيل لمن يراها أنها مثال الصبر والقناعة ، والعقل الرصين ، والارادة العاملة المتئده ، والصفاء النفسانى يحدوه واجب الاسرة ولا يعكره الفضول

الا انصبرها وسكونها وكر الايام عليها دون ماحادث كبير او صغير ولد فيها شيئاً من الحقد الكمين ، والكبرياء القاسية ، والاستهتار الخطر فهى تعيش بالغريزة ومن اجل الغريزة. نهبا مقسما لتلك العوامل تشربها نفسها وترتاض عليها وتتخذ منها ملجأ لها ساعة الضجر والاشمئزاز

وجعلت تنمى فى فؤادها تلك الغرائز ماشاءت لها العزلة حتّى استولت عليها واحالتها على مر الزمن مخلوقا منافقا غشاشا يصطنع الهدوء وهو يغلى ، يضحك وهو يسخر ، يلاطف وهو يكره ، يقبل وكأنه يريد ان ينفث فيمن يقبله سما زعافا يقضى عليه لساعته

اجل اصبحت تيريز مثال الخبث والمكر والدهاء. كماء راكد ملؤه الجراثيم والحشرات او كقوة هائلة من قوى الشر اعدتها الطبيعة لتدمير نفسها والغير

* * *

وفى ذات ليلة أقبل كاميل فرحا متهللا متأبطا ذراع صديق له يدعى لوران وما

ان توسط البيت والتقى بوالدته حتى صاح فيها والبشر يعلو محياه وذكرها بصاحبه ايام كان غلاما يتردد عليهما فلمعت بغتة عينا الأم وانبسطت اساريرها وتقدمت من لوران باسطة ذراعيها واحتضنته اسعد ماتكون برفيق مخلص محبوب من رفاق ولدها العزيز

وعرف كاميل صديقة لوران بزوجه تيريز وأنباها بما كانت عليه صداقتهما أيام الحداثة من متانة وما تزال عليه

وجلس لوران واسرعت العجوز فجاءت بزجاجة نبيذ وشيء من الجبن واللحم واحتفلت بمقدم الشاب وطفقت تساله عن عشيرته وأهله وصحته ومهنته. فاجابها انه كان قد احترف التصوير ولكن هذه المهنة قد لازمها البؤس فانصرف عنها غير آسف وهو الآن يعمل كموظف فى إحدى المحطات

فما ان طرق مسمع الزوج هذا الحديث حتى ازدهى واقبل على صاحبه يهنئه ويفخر به ويعامله معاملة الانداد ويعده بان يدمجه فى دائرة الموظفين رفاقه الذين كان يعتقد كاميل انهم خلاصة المجتمع وزينة المجالس وصفوة أهل الفكر...

وكانت تيريز جالسة عن بعد تلقى على الزائر الجديد نظرة بسيطة عارضة

وكان يتكلم وهى تنصت ثم تتحول بالرغم منها الى زوجها فتحدق فيه طويلا...

ولم يكن كاميل ليستطيع أن يكف عن هذره ومجونه ولا أن يمتنع عن السعال. ولا أن يغالب نفسه فيلاحظ حركاته المضحكة ولا أن يمتنع عن التمخط والتجشؤ والبصق والقهقهة الفارغة

ولطالما حاولت تيريز أن تنبهه بايماءة خفية ولكنه كان لايفهم أطوع مايكون لنزواته العابرة وانفعالاته الطارئة يستمتع بها فى غير محاسبة أو كلفة أو اهتمام

ورفعت تيريز فجأة عينيها المستسرتين ورفت أهدابها قليلا وتصاعد الدم الى وجنتيها وجعلت تسرح الطرف ملياً فى هذا الشاب الغريب المدعو لوران

وكان لوران يناهز الثلاثين أسمر الوجه، ضيق الجبهة، غزير الحاجبين اسود

العينين ، فى تقاطيعه خشونة ورقة ، مديد القامة صلب العود ينبعث منه ضوء رجولة يأتلق به الجو حوله ويرسل فى النفس احساساً عميقاً بالاحترام والخوف والاطمئنان . وكانت تيريز لاتفتأ تحدق إلى يديه الكبيرتين الغليظتين والى عنقه المكتنز وأشاراته المستقرة الهادئة وفمه العريض المنفرج عن أسنان لامعة

وعلى الرغم منها كانت تنقل طرفها وتحط بأبصارها على زوجها كاميل فترى شلوا كسيحاً يضحك ويلوح بيديه تلويحاً مزعجاً فكأنما شبح الموت والمنجل فى يده يحلق عليـــه ويطوف به ويوشك أن يحصده حصداً فى أقل من طرفة عين

وكانت الحياة الرحبة الطليقة تصطخب فى أحاديث لوران وتترافع موجاتها مرغية مزبدة تكاد تغرق تيريز فى احشائها وهى مائلة برأسها مرهفة اذنيها تتلقى العبارات القوية وتستمع الى الأقاصيص الغريبة والنوادر الفكهة مذهولة كمن يشهد انواراً ملونة ساطعة بعد أن عاش دهراً فى ظلام . وكان لوران حلو الحديث رشيق العبارة حاضر النكتة ولوعا بالحكايات المستملحة يفيض بها على سامعيه فى صوت حار واضح رنان يمتلك على العجوز مشاعرها ويدهش كاميل ويخلبه فيفغر فمه ويظل يضرب ساقيه براحتيه وعيناه تدمعان من فرط الضحك ، والسعال يكاد يهشم صدره . بينا تيريز تحبس أنفاسها وتقاوم كيلا تضحك وتتراجع قليلا لتحدق الى هذا الرجل العجيب الذى ماأن أقبل حتى أقبل معه النشاط والحركة وسحر الرجولة وجنون الحياة

وأحس لوران أنها تستطيب الجلوس اليه وتستعذب سمره وتستمرىء نكاته وتبتسم له ابتساماً هادئاً مغرياً يشجعه على التمادى والاسترسال

وكان كاميل يرحب به أعظم ترحيب والعجوز الطيبة تستريح أيضا الى فكاهاته وتجود عليه بكؤوس الخمر دون حساب . فشعر كأنما أهل البيت فى حاجة اليه وأدرك ببصيرته أنه قد أدخل السرور على قلوبهم وأن الضحكات القريرة لم ترن اصداؤها فى جدران هذا المنزل إلامذ دخله هو

فاعتاد خلطتهم واعتادوا رؤيته فكان يزورهم كل مساء . يلاعب كاميل النرد ويداعب العجوز ويتملقها ويخاطب تيريز فى لهجة رقيقة عذبة ملؤها الاحترام . ثم يأخذ فى قص أقاصيصه وسرد نوادره والجميع يقهقهون ماخلا تيريز

وأحست المرأة بكيانها يستيقظ ويتحرك والتهبت دماؤها واصطبغ خداها بلونهما الوردى القديم

وبدأت تطيل النظر إلى لوران . وتتنهد ، وتطرق ثم تروح فى شبه سبات حالم طويل

ولما كانت تدنو منه كانت تعروها اختلاجات خفيفة مقلقة فتصافحه ويدها ترتعش وصدرها يعلو ويهبط ونظراتها تحوم حول العجوز مخافة أن تلحظ عليها شيئا

وكان وجوده وحده يعذبها أشد عذاب اذ لا تستطيع الارتماء عليه وتقبيله وإسناد رأسها الى كتفه

كل هذه التصورات كانت ترسل فى أوصالها رعدة الحمى وتسمم اللحظات التى تحظى فيها بالجلوس اليه

وأدرك الرجل ذلك فلم يتورع ومالأها على عواطفها

وكانت أشهى ماتكون غضارة يزيد اضطرابها فى سحر محاسنها فتبدو كالغريق يتخبط باحثاً عن حطام

وكان لوران يحسن الرسم بعض الشيء . ففى ذات مساء دخل عليهم حاملا لوحة كبيرة أسندها الى احدى زوايا الغرفة ثم أخطرهم أن فى عزمه رسم صديقه العزيز كاميل

ففرحت الأم وهللت وصاح كاميل يهتف بالشكر

وجعل لوران يدير الطرف فى ارجاء البيت عله يقع على الحجرة ذات النور الصالح لمباشرة عملية الرسم

واستقر رأيه فى النهاية على مخدع النوم فصعد الجميع اليه . وثبت لوران لوحته على القاعدة وأجلس كاميل على مقعد بعيد وتناول قلمه وشرع يرسم فى حيطة واجتهاد وصبر

وكان قلبه يخفق خفقاناً عنيفا ويده ترتجف وترك القلم بغتة على أن يعود الى العمل فى الليلة التالية

وكان كلما أنبثق وجه كاميل من جوف اللوحة ازداد اعجابه وإعجاب والدته وحبهما للوران

وفى الليلة الأخيرة وتيريز متكئة الى الباب تنظر الى ذراع لوران المتمشية على اللوحة بحركات ماهرة تطلعت قليلا بالرغم منها فابصرت محيا زوجها قد غمر اللوحة وبرز منها وجعل يحدق فيها بعينيه الغائرتين تحديقا غريبا . . .

وأدار لوران اللوحة فما إن شوهد الوجه تماما حتى ضجت الغرفة بالهتاف والتصفيق وترافعت أصوات الشكر من كل صوب وارتمى كاميل على صديقه وأوسعه ضما وتقبيلا

واستبقوه للعشاء وذهب كاميل لابتياع زجاجة من الشمبانيا ونزلت العجوز تعد المائدة وظل الرجل واقفا بقرب المرأة الجامدة المبهوتة

ورفعت عينيها ورمته بنظرة عتاب وتقدمت خطوة وهى تتمايل وترتعش . ففتح الشاب ذراعيه وأسرع اليها فتلقاها وطبع على فمها قبلة طويلة محمومة

* * *

وعرفت تيريز لأول مرة حبا جارفا مكتسحا كالإعصار

لم تشعر بسعادة تضارع هذه السعادة فهاهى المقادير التى طالما ناصبتها العداء افترت لها عن ابتسامه حلوة راضية وقدمت اليها الحب خالصا عميقا دون أن تسعى اليه كغيرها من النساء

الآن فقط أحست هذه المرأة بالفارق العظيم بين الصحة والمرض ، بين الرجولة والضعف ، بين الحب المتبادل والحب المفروض ، الآن هى ملك هذا الرجل بل هى قطعة من جسمه وروحه لاسبيل الى انفصالها عنه مهما قدر الزمن . ولم تكن تخشى فى ذلك أى انسان فجنونها بسعادتها الطارئة ذهب بلبها وأنمى فيها حاسة التمرد والاستهتار

وكان لوران على كلفه بها دونها شجاعة وجرأة يحاول ان يلطف من حدتها ويكبح جماحها فتهزأ به وترميه بالجبن وتغريه بالتمثل بها ولا تفتأ تقول له ان العالم كله مؤلف من عبيد حمقى مساكين وانها هي وحدها القوة وهو وحده الجميل وإن غرامهما يجب أن يعبث بكل شيء ويسود كل شيء ولا يعيش الا لينمو ويزدهر برغم المصطلحات والقوانين ورغم عجوز تشرف على القبر وكسيح أجدر به الفناء

وأحست أنها ليست حرة وان ليس فى وسعها الخروج متى شاءت واستقبال خليلها متى عن لها . فهالها الأمر وأيقنت أن أهل البيت مازالوا حراسا عليها وما زالت فيه أسيرة سجينة كسابق عهدها . فامتلأت جوانحها بالبغض الأثيم والنزعة الطاغية للتمرد والهدم . فعاودها الألم وعاودها القلق والاضطراب وذهلت لما ان شاهدت نفسها أتعس حظاً مما كانت عليه وان السعادة لم تجدها نفعا ولم تنقذها بل على النقيض تشعرها الآن أبلغ شعور بأنها ذليلة وخاضعة لا تملك حق العيش وفق هواها صحبة الرجل الذى استكشفت دنيا الغرام على يده

وما ان احتوتها هذه الفكرة حتى خيل اليها أن البيت قدأصبح جحيما وزوجها شيطانا رجيما فلم تطق وأحست تمام الاحساس بأن الزوج هو العدو . وهو المستبد . وهو العقبة الكؤود . فجعلت تفكر . وتخلو بنفسها وتتألم ، ودبت فيها روح الدسيسة والغدر ومرت بذهنها تصورات دامية فاجعة وأخذت تحتقر ذاتها وتسخر من كبريائها وتعجب كيف أنها وهي الأبية الباسلة ترضى بهذا الذل وتسمح لمريض متهالك مصدور ان يحول بينها وبين الحياة !

والتقت بعشيقها فأعرضت عنه وألقت عليه نظرة شزراء . فبهت الرجل وجعل يتفحصها ويتساءل عن السبب . فما كان منها الا ان أقبلت عليه فجأة وصارحته بدخيلة نفسها فانتفض مذعورا وكاد يخر صعقا . فتراجعت وأخذت تعيره وتهزأ

به وتستنهض ميت همته وتزين له الحيـاة حرة من كل قيد . لادخيل ولاغريم ولا واجب غير واجب الهوى

وصورت له عذابها فى أبشع الصور واسترحمته وتضرعت اليه أن ينقذها وجعلت تسرف وتفتن فى هبة نفسها كى تلهبه حتى تراخى الرجل وضاقت فى وجهه السبل وحار كيف يروغ منها وأذعن لها فى النهاية

ولم يبق لتيريز من أمل غير هذا . وصارت لاتفكر الا فى هذا ، وبات خيالها مسرحا رحباً لمعارك مفزعة وخارقة . تنام فتحلم بالخلاص . وتستفيق لترى يوم الخلاص . ولوران وقد استولت عليه الافكار الجديدة التى أودعتها المرأة عقله واحساسه يكد ذهنه ويبحث ويتهيأ ويتحين الفرص للقيام بالمهمة الفاجعة التى عهدت اليه بها

* * *

وكان ان اتفق الجميع على تمضية يوم من أيام الربيع فى نزهة على ضفاف السين فأعد كاميل عدته وارتدت تيريز أجمل ثيابها وخرج الاصدقاء الثلاثة يتضاحكون ويتطارحون النكات ويتهادون

وكان الجو فاتراً وبالسماء بعض السحب تتمزق شيئاً فشيئا وتبددها هبات الهواء . ولوران يسير بقدم ثابتة تتبعه تيريز ساكنة صامتة تحذق اليه آناً بعد آن وترميه بنظرة معنوية وهى تضم شفتيها الحمراوين وتبتسم ابتسامة محرضة ساخرة

وكان النهر منبسطا أزرق هادئاً تبرز منه المويجات ثم تختفى والريح العاتية تقبل عليه فيسمع له شبه هدير أبكم مخنوق

وجلسوا على العشب وتناولوا ماجاءوا به من طعام وظلوا يحتسون الكؤوس تباعا والنسمات تداعب وجوههم

وتلفت لوران وغمز تيريز ومال الى كاميل وعرض عليه القيام بنزهة فى قارب صغير يسبح بهم على سطح النهر الصافى فتألقت عينا الزوج وصفق طربا

وبرقت أسارير الزوجة ثم تجهمت بغتة واستدارت ولم تتكلم . ولم يتمهل لوران فقام لفوره ونادى نوتيا كان هناك ونزل الجميع الى القارب والمرأة ترتعش وتكاد تتعثر

وانساب بهم القارب وهب عليهم نسيم ندى محمل باعطار البحر وجعلت تيريز تضحك ضحكات صفراء وتتحاشى وقع أبصارها على أبصار لوران . وقطب العاشق جبهته ودنا من الزوج رافعا ذراعيه ثم تقهقر وقد علت محياه حمرة مكمدة . وكان النوتى قد ترك القارب لهم فاخذ لوران يجذف بكل مافيه من قوة والقارب يشق الماء ويجرى فى عرض النهر . ولما ابتعدوا عن الرقباء تنفس لوران والقى على تيريز نظرة واذابها جامدة جمود تمثال تحدق اليه تحديقا هادئا وقد التوت زاوية فمها ازدراء وكرها فلم يطق ولمعت عيناه وتضامت شفتاه فتقدم بعض الشيء وتحفز ثم انقض على كاميل فجأة وحاول أن يقذف به فى جوف البحر ولما أن شعر الزوج بما دبر له تجمع كل ما فيه من حب الحياة فامسك بلوران وتشبث به وجعل يصرخ صراخا حاداً مزعجا ويناضل ما استطاع وتمكن من خصمه لحظة فقبض عليه من عنقه الغليظ وعضه فيه عضة شديدة فصرخ لوران واستثيرت أعصابه فاحتمل بكاميل وهو يصيح صيحات هائلة والقاه فى النهر

وعندها استغاثت تيريز واستغاث لوران وملاء الجو زئيرهما الفظيع واقبلت القوارب على صياحهما فعادت بهما إلى الشاطيء وأسرع البحارة باحثين منقبين حتى أبصروا الجثة المنتفخة الشوهاء طافيه على وجه المياه

***

واعتبرت الحادثة حادثة غرق و ا القتلة من عقاب القانون . وماعاد لوران بخليلته إلى البيت وقص على الوالدة الثكلى تفاصيل الواقعة ملفقة زائفة حتى تقلص جسم العجوز وسرت فيه قشعريرة رعب هائلة وتهاوت على نفسها وراحت فى شبه ذهول كذهول المجانين ثم انتفضت انتفاضات متوالية وجعلت تنوح وتبكى بكاء الاطفال

وارتدت تيريز ثوب الحداد وقبعت فى عقر دارها ومثلت دور الارملة المنكوبة وكانت لاتكاد تبصر العجوز حتى تبتئس وتتنهد وتصعد الزفرات وترسل العبرات غزيرة حارة ، وخيم على البيت سكون لايعكره غير انين الأم المسكينة تقف بغتة وتتصور الماضى فتضرب وجهها بقبضتها وقلبها يتمزق والدمع يتفجر من عينيها

ولم تستطع تيريز أن تدعوا لوران لزيارتهم ولا أن تشير على العجوز بدعوته فى مثل تلك الاحوال فانطوت على نفسها وانتظرت ماتجىء به المقادير ولاذت بالعزلة وجعلت من مخدعها ملجأ يقيها شر العيون

ولـكنها كانت عزلة مفعمة بالخبل والذعر ماإن تملـكتها ثانياً حتى حفرت الهوة بينها وبين الراحة والاطمئنان

كانت تضطجع فى فراشها فيخيل اليها أن جسم زوجها ممدد بالقرب منها يضحك ويهذى وعيناه تقدحان الشرر يتوعدها باصبعه الدامية ويلعن اليوم الذى اقترنها فيه

وعندما تجلس على المائدة كانت تراه وقد اخذ مكانه منها يلعق الآنية كعادته ويومىء الى أمه مشيراً إلى زوجه وهو يبتسم

وعندما تنام تهاجمها الا حلام والرؤى ويأتى شبح كاميل فيجثم على صدرها ويهزها بيديه الضامرتين هزاً عنيفاً ويصرخ فتصرخ هى أيضاً وتستفيق مذعورة واذا الظلام يحيط بها والريح تصفر فى الخارج فيهلع لها قلبها

ولم يكن عشيقها أهدأ منها بالا أوأرسخ فى الاجرام قدماً . فالشبح كان يطوف به ويلازمه ملازمة الظل ، لايكاد يخلو بنفسه حتى يشعر بنار محرقة تلهب عنقه فيتحامل حتى المرآه وينظر ، ينظر إلى القرحة المتوهجة التى احدثتها اسنان القتيل الحادة وهو يناضل ويستغيث

وعندما يشتد بلوران الخبال يخرج هائماً على وجهه ويتجه إلى الحانة فيشرب حتى تخور قواه فيرجع الى بيته وقد ظن أنه طرد الشبح واستراح ولـكن القتيل يعود فيتمثل له فى كل مكان . فى زوايا الغرفة ، وبين أكوام الثياب ، فى رأسه

المتأجج ، وعلى فراشه الخشن العميق فيتقلب ويتلوى كمن صرعته الحمى أو كمن به مس

وخيل للعاشقين أن بعد الواحد منهما عن الآخر هو السبب فى هذا الجبن . وظنت تيريز أنها لو استحوذت على حبيبها وعاشت معه فلا بد أن تزول الاوهام ويرجع الى الحياة رونق الماضى وبهاؤه

وأمعنت فى التظاهر بالغم والحزن واحتالت على الامر جهدها فاشفق عليها الاصدقاء ونصحوا العجوز بانقاذها من مخالب الوحدة وتزويجها وعز على الوالدة الثكلى أن يدخل البيت غريب يحل فيه محل ابنها ولكن حبها تيريز اقنعها بضرورة التضحية . فاستمعت لنصح الناس ورضيت بتزويج قرينة الميت ممن كان أعز صديق عنده وأوفى حبيب . . .

وكانت حفلة العرس الثانيه وكان المرح يدوى فى أرجاء البيت والضحكات ترن رنينها فى أذنى الوالدة فيعاودها الحنين وتنوء بها الذكرى فتجهش بالبكاء وهى لاتعى

وانصرف المدعوون وقبل الزوجان جبهة العجوز ودخلا مخدع القتيل

وما أن وطأته أقدامهما حتى افلتت تيريز وأصعدت صوتا أشبه بالعواء وأشارت بيدها المرتجفة الى الزاويه فتطلع الرجل وإذا الشبح هناك يحدد فيهما بصره اللامع ويبسم

فضرب لوران المنضدة بيده حنقاً واستلقى بجوار تيريز وماهى الا هنيهة حتى دبت فيها الرعدة وأجفلت فحملق فيها لوران ومد البصر أمامه وإذا هيكل القتيل مسجى على السرير مبللا باردا حافا . وحانت منه التفاتة الى الحائط فابصر الصورة التى رسمها للزوج سوداء مظلمة تبرق فيها العينان ساخطتين مهددتين . فاستشاط غضبا وارتمى على زوجه يلوكها بين ذراعيه القويتين ويكاد يطحنها طحنا

ولكنها دفعته عنها وقفزت وملء نفسها البغض والاشمئزاز فهاله مارأى وكبر عليه ان المرأة التى فى سبيلها خان وقتل وتعذب تقصيه عنها على هذه الصورة . فجعل يستعطفها وهى تفر منه وتستفظعه وتصرخ . فكاد يجن وايقن

ان احلامه قد اجتثت من اصولها وحياته قد انهدمت من اساسها وحبهما القديم قد ذوى ومات والحد فى القبر الذى دفن ، فيه القتيل

وأخذ لوران يبكى بكاء مراً

ولكنه ما إن شاهد ضوء النهار يغمر الحجرة فجأة حتى صاح صيحات مزعجة وراح يمزق منديله باسنانه ويكاد ينتزع شعره من جذوره وقد خيل اليه ان النور كشف الستر عن جريمته وأرشد الناس اليه وأنه افتضح . فجعل يطوف بالغرفة باحثا عن مخبأ يأوى اليه والشبح يلاحقه والقرحة تلهبه والنافذة المفتوحة ترسل اضواؤها الى مخيلته أطياف عمالقة مربدى الوجوه غلاظ السحن على أكتافهم شارات رجال البوليس يمدون أيديهم وينحنون عليه ويحتاطونه ويجرونه بالرغم منه الى هناك . الى حيث الغرفة الضيقة الباردة المظلمة ذات القضبان الحديدية والفراش القذر والجدران السوداء

ولاحت فى رأسه هذه الصور والتى زوجته تتطلع اليه مستفسرة حائرة . فدنا منها وجثا عند قدميها وجعل ينظر اليها نظرة عابد ويلتمس ان تجود عليه بجملة أو اشارة أو فكرة تخفف لوعته وتعيد السكينة الى فؤاده وتحيى فيه رجولته ولكن عدواه كانت قد سرت اليها فلم يبصر أمامه غير انثى ضعيفة واجمة تحوم حواليه منتظرة قراره وقد غاض فيها معين القوة وانطرحت على السرير تبكى وتئن

راعه من نفسه ومنها ان تبطش بهما الاوهـــام على هذه الصورة ولم يجد ليأسه منصرفا الا فى التنكيل بها فاهانها واستذلها فكشرت عن انيابها وثارت فكأنما غرفة العرس الجميلة الوادعة قد استحالت فضاء خرباً يضج فيه رهط من المجانين

*

وعصف بهما الحقد المتبادل ذات يوم فشجر بينهم عراك عنيف وجعل كل منهما يحمل الآخر تبعة الجريمة ويتهمه بها ويلومه عليها ويصد عنه ويحقره . وكانت الأم قرب الباب وطرقت مسمعها الصرخات واللعنـــات فدخلت على

الزوجين وابصرتهما كوحشين يهم كل منهما بافتراس الآخر فنكصت على عقبيها ولم تصدق نظرها ثم عادت تتفرس فيهما فشاهدت الزوج يشيح بوجهه غيظاً ووجلا والزوجة تشحب وتختلج فادركت وعراها ذهول وترنحت قليلا ثم هوت على مقعد وقد انعقد لسانها ودب فيها الشلل . واذن فقد اغتال الصديق لوران حياة ابنها المحبوب وقد حرضته على ارتكاب الجرم تيريز المخلصة الطيبة وقد كانت عشيقته منذ سنين تخدع الله والناس وتحوك المكيدة صامتة تحت جنح الظلام !..

لم تشعر الوالدة بعسف القدر كما شعرت به الآن وهى مشلولة بكماء لاتستطيع أن تستنزل عليهما اللعنة ولا أن تشكو امرهما الى القضاء.

غير ان حاسة الانتقام طردت من قلبها كل عواطف الرحمة فكانت حدقاتها تبرق حقدا ، وعضلات وجهها تتشنج حسرة وغلا وارتقاب الثأر يمدها بحياة غزيرة تقاوم المرض وتطيل الاجل وتصمد للموت

وأصبحت العجوز فى حاجة إلى من يعولها ويخدمها ويرعاها ليل نهار فكان لوران يجر عربتها الصغيرة ويأتى بها الى مخدعهما ثم يتركها فى الزواية هناك

وكأنما أحساس الزوجين بعجز الام وشللها ، ويقينهما بانها عرفت جلية الأمر ، أراحهما من مهام والخوف والحيطة والحذر . فاستسلما لميولهما كالعادة وجعلا يتذاكران الماضى ويصب كل منهما جام النقمة على الآخر ويتراشقان بهجر القول ويتصايحان . وتيريز تكيل الشتم لزوجها فيهب من مكانه وينقض عليها ويجذبها من شعرها الطويل ويوسعها ضربا ولكما والعجوز تنظر اليهما فى هدوء هانىء قرير

ولم تبق بينهما من رابطة غير رابطة البغض واضحى لوران لايعبأ بامرأته بل أن سعادته كانت فى الفرار منها الى حيث تطرد الخمر خيالاته وتنسيه بعض مايعانيه من ألم

أما هى فقد كانت تتقزز من مرآه كأن به جربا وتخرج من بيتها ترويحا للنفس فتلتقى باصدقائها القدماء من شباب الحى فتعقد معهم الصلات وتنتهك

وتبذل وتجود عليهم بما يرغبون دون ماحياء أوخجل

وانطلقت تجبه كل عرف ومصطلح ، لاناصح لها ولا رادع ، تبحث عن الراحة والنسيان فى بؤر الدعارة كما يبحث عنها الزوج فى الحانات

ألا أنها كانت تعود اليه صاغرة . مقيدة به ، مشدودة اليه ، كأنما الجريمة التى اقترفاها قامت فى قلبيهما مقام الحب وستظل جامعة بينهما الى الأبد

وضاقت بهما السبل وأعيتهما الحيل فلا الخمر ولا التشرد كان فى وسعه أن يحميهما من تبكيت الضمير أو يقصى الطيف عنهما ميقات ليلة واحدة تذوق فيها أجفانهما طعم الرقاد البرىء

ويا لها ساعة رهيبة تلك التى فكرت فيها تيريز أن الجريمة الأولى تعبد الطريق لسلسلة من جرائم أخرى ، وأن لوران بات أضعف من كاميل وأن فى وسعها قتله والتخلص منه كما فى وسعها قتل العجوز البكماء المتشحة بالسواد ، الرابضة فى الزاوية تنذرها بخيبة المسعى وسوء المصير

وكذلك فكر لوران فى ان ينفض عنه عبء هذا الغرام المشؤوم وأن يستاصل من جسمه وروحه شافة الداء العضال . وأن يتحرر بازهاق نفس اخرى نفس تلك المرأة التى يسرى أريج بدنها الحار من عروقه مسرى الدماء ولكن ماان لمح كل منهما فى بصر الاخرنية القتل حتى ازداد حبهما الغريب قوة وشعراً فى صم كيانهما أن الماضى كله يستفيق بغتة ، ويستدعيهما اليه ويبسط ذراعيه لاستقبالهما . ويلوح لهما بالذكريات المعسولة التى طالما رشفا منها رحيق الحب وعصير الحياة فاحس لوران أنه لو قتل تيريز فنفسه يقتل . واحست تيريز أنها لواعتدت على لوران فسترتد اليها الطعنة لامحالة وأدرك الزوجان ان نجاتهما فى الحب وحده ولكن كيف السبيل الى الحب وجثة القتيل بينهماولعنة العجوز تحلق عليهما ، والرعب يهد منهما القوى ، والاشمئزاز الحاقد الدفين مايزال يعذبهما

وجال فى رأسيهما خاطر الانتحار وعمدت تيريز الى سكين كبيرة فشحذتها واخفتها بين أكوام ثيابها ريثما تحين الساعة التى تجد فيها الشجاعة الكافية لاغماد النصل فى احشائها . وانطلق لوران هائما على وجهه يوسع الخطى كحيوان مطارد مخبول حتى استقر به المطاف فى منزل أحد الصيادلة اصدقائه ولما رجع الى البيت

فى المساء كان قد سرق زجاجة صغيرة فيها سائل غريب يومض فى النور ومضات مخيفة

وجلس لوران ومال برأسه التعب الى كتفه ونظر الى زوجه الحبيبة للبغيضة الى المرأة الجميلة الدميمة ، الى المحرمة الفاتنة المنكودة ، نظرة أسف ولوعة ووداع ثم طلب قدحا من الماء فجاءته به على مهل فامسك به وفتح الزجاجة وصب السائل ورفع القدح وأدناه من شفتيه وشرب وعندها صاحت الزوجة صيحة منكره وارتمت عليه واختطفت القدح من يده وجرعت ما تبقى فيه حتى آخره

وفى أقل من لمع البرق سقطت الجثتان كأنما أنقضت عليهما صاعقة واستقامت تيريز لحظة ثم هوت على عنق حبيبها وقد الصق فمها الشره بالقرحة الدامية التى خلفتها اسنان القتيل

وكان ضوء المصباح الضئيل يلقى عليهما ظلا أحمر مرتعشاً خفيفا

وظلت الجثتان على الارض طوال الليل والعجوز المشلولة جامدة العضلات متألقة الاسارير تحدق اليهما وتروى عينيها منهما ، وتسحقهما بنظراتها الطويلة المتشفية

أكاذيب

Mensonges

لبول بورجيه ـ عضو المجمع الأدبى الفرنسى

يمتاز الأدب الفرنسي عن الآداب الأوربية جمعاء بغريزة التحليل النفساني وفضائل الوضوح والمنطق والتناسب والاتزان التي نلمحها في آثار أكبر ممثليه منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا

وأن بول بورجيه لتتجلى في قصصه هذه الروح التقليدية العنصرية في أشد مظاهرها ، فهو لا يهمه أن يسرد لك الوقائع التي تمر بأبطاله قدر ما يحاول أن يميط اللثام عن أسرار نفوسهم وحركاتها وتقلباتها ومنازعها ناظراً اليها كما ينظر العالم النباتي الى أزهاره نظرة تلحق الفن بالعلم وتجعل من الأديب باحثاً نفسيا ومصلحا اجتماعيا

وهو فى قصته « أكاذيب » يجتهد فى أن يكشف عن خلق المرأة العصرية الولوع بالترف وعيشة البذخ وكيف أنها تبذل كل غال فى سبيل أن تحتفظ بنعيمها المادى ولو على انقاض عواطفها

* * *

« رينيه فانسى » شاب فى مقتبل العمر تملأ نفسه حرارة الصبا وتفيض مشاعره برغبات الطموح . أديب ناشىء لايزال به بعض الغرور ولكنه غرور يساعده على تحقيق أحلامه فهو قد نجح فى رواية كتبها للسرح واشتهر بها شهرة عظيمة فتحت له صالونات باريس

لم يكن هذا الشاب بالرجل الذى عرك الحياة وكانت روحه ماتزال تحتفظ بتلك السذاجة والبراءة الصبيانية الفاتنة التى لم تقوضها بعد عوامل الخيبة ولم تؤثر

فى جوهرها التى لاالالام النفسانية ولا حقائق الواقع المزرية . وهو فى أول عهده بالشهرة كان كالضرير يبهره النور الذى انتشر فجأة حواليه فلم يكن يستطيع أن يتبين مدى أعماله ولا ان يحكم عقله على قلبه

وكان يعطف على فتاة ساذجة مثله وديعة فى صفاء وصمت تحبه الحب كله وترقب بعين ملؤها العبادة والاعجاب تلك الهالة الرائعة التى تحيط بحبيبها وتغرى به النساء

وكان مزمعا الاقتران بها والعيش معها عيشة هادئة موزعة بين الحب السعيد المطمئن وارادة العمل الفنى المقدس . غير أن « روزالى » لم تكن بالفتاة البلهاء . وكانت على الرغم منها تستشعر فى صميم نفسها أن حبيبها قد تبدل بعض الشيء وأن الشهرة وذيوع الصيت والمجد الطارىء المخيف وتهافت الناس على التعرف إلى نابغ جديد كل هذه العوامل ربما أفسدت عليها أحلامها واستلبت منها قلب حبيبها

وكأن القضاء الساخر قد أعدها لتكون فريسة له وكأنها أحست فى نفسها ذلك فلم تتمكن البتة من الاحتفاظ بالرجل الذى وهبته كل حياتها

وهبط به ذات يوم صديق له من الكتاب المشهورين يدعى « كلود لارشيه » ودعاه الى حفلة عند سيدة سرية من صاحبات الصالونات الكبيرة وأخبره باعجابها الشديد به . وأنها جاءت خصيصا فى قصرها بفرقة من الممثلين لتمثيل روايته التى طبقت شهرتها باريس . وأصبحت حديث الأندية المتأدبة كلها

تردد الشاب أول الأمر ولكنه أذعن فى النهاية لنصح صديقه وذهب الاثنان الى قصر مدام موريس واستقبل رينيه بجميع مظاهر الحفاوة واحتاطت به النسوة متفحصات هامسات معجبات بهذا الشاب الصاعد إلى قمة المجد بخطى جبار

وكان رينيه خجولا نفورا لا يحسن آداب المجتمعات الكبيرة ولا يدرى كيف وبماذا يجيب أولئك النسوة على كل مايبدينه من أفانين المديح

والاطراء . وكانت هذه السذاجة نفسها سر نجاحه الكبير من حيث لايدرى ، بل كانت فتنتها تفوق سحرا وجاذبية فتنة الشهرة نفسها

ولاح لصاحبة القصر مدام مورين أن هذا الفتى مخلوق غريب وأنه ليس على شاكلة الرجال الآخرين الذين يؤمون دارها . فأخذت تلحظه بنظر متفرس ثاقب وترمقه فى الآونة بعد الأخرى بعين ملؤها العطف والابتسام والتشجيع . وزادها تعلقا به أن رأت النساء جميعا يخطبن وده ويحاولن استمالته بكل ماأوتين من دعابة ورقة ودهاء

وكان هو كالمبهوت يخيل اليه أن عالما جديداً قد فتح أمامه وأن حياة زاخرة بالمال والجمال قد تفجرت بغتة حواليه تكاد تغمره وتنسيه بيئته وحبه وعشيرته كلها

وفى ختام الحفلة بعد أن صادفت روايته من المدعوين كل اطراء تقدمت اليه مدام مورين ودعته لزيارة خاصة فى ساعة محدودة ويوم محدود

وخرج من لدنها مسلوب الحول طائر اللب مشدوها بما سمع ورأى ، تبدو له صورة تلك المرأة من خلال أحلامه وميوله كأشعة الشمس الساطعه تحرك مولدات الأرض الخصبة البكر وتينع أزاهيرها وثمارها

وكانت مدام مورين امرأة ذات جمال رائع ، شخصية عميقة فيها من مفاتن الانوثة مايغوى رجلا كاملا فكيف بهذا الشاب الذى لم يعرف الحياة إلا عن الكتب وأخيلة الشعراء . لم يستطع أن يفهم أى النساء هى ولا ماتكنه نفسها من غرائز دفينة تجتهدبكل ماأوتيت من مهارة وخبث فى اخفاء حقيقتها عن الجميع

كانت امرأة ولوعا بالترف خبيثة ماكرة هادئة فى لؤم محترس رصين تظهر فى المجتمع بمظهر السيدة الفاضلة وتأتى فى الخفاء كل محرم فى سبيل أن تحتفظ بمقامها بين أترابها وفى سبيل أن تنعم بالملبس الفاخر والجاه العريض مضحية بعرضها غيرآبهة لأىوازع نفسى أو محتفلة بأى تبكيت ضمير مادام الكل يحترمها وما دام صالونها مايزال ملتقى علية القوم وسراتهم . لم تأنف من أن تتخذ لها عشيقاً هو البارونديمورج ، رجل فى الخمسين من عمره ، متمول عاطل ينقدها

ماتشاء عن سعة ويتمتع بجسمها الغض فى الآونة بعد الأخرى كلما راق له ذلك دون ان يعبأ على الاطلاق بحياتها الخاصة ، ودون أن يفرض عليها الأمانة له عالمـاً حق العـــلم ان أمرأة كهذه محال أن تخلص لشيخ مثله ، ومحال أن تعطيه إلا على قدر مايدفع لها

وكان زوجها فقيراً بالنسبة لعشيقها لاقبل له بتحمل نفقاتها يحبها حباً جماً ولـكن خلقه الطائش وطيبة قلبه ومظهر قرينته المتحفظ المهيب كان يمنعه من أن يخطر على باله لحظة أى شك فى سلوكها

ولكنها كانت امرأة كبقية النساء يجتمع فى قلبها حب المصلحة بحب الحيـاة وتتنازع نفسها عوامل شتى من الرغبة فى التمتع بعواطفها والشعور بنفسها محبة محبوبة كيما تستكمل سعادتها من ناحية المـادة وناحية الروح . وخيل اليها أن الفتى رينيه يمكنه أن يملأ ذلك الفراغ من نفسها وأن يشبع احساسها النسوى بذلك العطف الوجدانى والاستمتاع الجنسى الذى لاتستطيع المرأة الا أن تطلبه مهما ابتسمت لها الدنيا عن زخرف ونعيم

ولـكى تقع فى نفس الشاب موقع الحب استخدمت كل ماتـكنه طبيعتها من مواهب فى الـكذب نادرة . فاحذت تتحدث اليه ببساطة وبراءة وتبدو امامه فى حلة من الطهر والنقاء كعذراء ماتزال فى أول عهدها بالرجل والحب . تروغ منه وتشجعه على التمادى . تمنيه ثم تخيب أمله . أقدر ما تـكون على التلاعب بقلب الفتى والتمـكن منه بالاحساس الذى يحبه ، أى العفة والسذاجة والهوى المخلص العميق

ووقع رينيه فى حبائلها وظنها مثال الـكمال والطهر ، آية شعرية يستلهم منها وحيـــه

وشيئاً فشيئاً بعد أن عذبته وتمنعت عليه وطبعت فى نفسه تلك الصورة الرائعة الجليلة من شخصها هوت ذات يوم بين احضانه كأنما هى تهوى تحت سلطان حب جارف . فانتشى رينيه وخيل اليه أن رجولته وعبقريته وجماله

ورقة حديثه هي التي ألهمت المرأة هذا الحب وهي التي حققت له في النهاية السعادة القصوى التي طالما كان يحلم بها ...

* * *

تجاه شخصية هذا الفتى الساذج تقوم شخصية صديقه الكاتب كلودلارشيه وهو رجل صادق النظرة إلى الحياة الا أنه حاد المزاج ملتهب الميول شهوى النزعات ضعيف الارادة يعشق الممثلة كوليت ويدرك تمام الادراك انها تخونه في كل لحظة ولكن خيانتها المطردة هذه كانت تثير فيه عاطفة الحب وتؤجج شهوته فلا يلبث أن يقاطعها حتى تخدعة فتستفز غيرته فلا يستطيع أن يطفىء نار تلك الغيرة الا بالعودة الى عشيقته وافناء حقده وغله في محاسن جسمها

وكان كلود عبد المرأة تفعل به ماتشاء ، وكان لذلك يفهم المرأة ويعلم حقيقة مايجرى بين صديقه ومدام مورين، غير انه لم يحاول البتة أن يحول بين رينيه وبينها لاعتقاده الراسخ ان ألاديب أو المفكر أو الفنان يجب أن يدرس الحياة عن كثب ولايخشاها ولايفر منها ، بل على النقيض ، عليه أن يرتمى بجمعه في غمارها فان تغلب عليها فاز وان دمرته خرج منها على الاقل وقد عاش واختبر وتألم

* * *

وازدهرت الدنيا في عيني رينيه . واضطرم في شرايينه دم الصبا . وشارفت نفسه كل ماتكنه الانوثة المكتملة من خفايا الاسرار الجنسية ومايشيع فيها من حنان غريب تمتزج فيه الشهوة بالأمومة والحنو بالرقه المعبودة الساحرة

وكان كالشبان السذج جميعاً يضفى على حبيبته مايجول بخياله من فضائل وما تنزع اليه روحه من سمو. فكان لايرى المرأة بقدر مايرى شخصه ممثلا فيها ولكنه كان سعيدا بها سعيدا بهبتها الكاملة ، سعيداً باخلاصها الطاهر ، سعيدا بكبريائه ونصره مؤمنا بحبيبته كايمانه بصلاح النفس البشرية للفضيلة والخير . واتخذ لها وكراً صغيرا في إحدى نواحي باريس وكانا يلتقيان فيه بمأمن من العيون ويتبادلان هواهما بعيدا عن ضجة المدينه في هدأة الأصيل والشمس ترسل

حتى فراشهما آخر اشعاتها كأنما هى تودعهما الى حين

وكانا يلتقيان فى المدينة ايضاً ، يتسايران فى الشوارع المنعزلة أو يدخلان متحف اللوفر متنقلين بين الاثار الرائعة التى لاتحدثهما الا عن المجد والحب والجمال

وكانت حين تقابله تتصنع الفرح القرير والنشوة المتأملة والحلم الرائق المستفيض وكأنها تخلص الى ذراعيه من آلام مبرحة تعانيها حيث تعيش .. وبينا هما يتحادثان ويتناجيان كانت لاتفتأ تلحظ حركاتها وسكناتها وتراقب كل كلمة تخرج من فمها . وتعد على نفسها السكنات مخافة أن تبدر منها بادرة تكشف له عن دخيلة أمرها . وكانت لذة الكذب والرياء هذه أفعل فى احساسها وأشد وقعا وأبعد تأثيراً من لذة الحب نفسه . بل هى فى الداخل لم تكن قد نزعت الى الحب إلا لتستمرىء فيه لذة الخديعة التى طبعت عليها وسرت فى عروقها مسرى الدم ، فهى تكذب وتغش وتخون وترائى كأنما هى تؤدى وظيفة عضوية فى بساطة وعدم احتفال رهيب . ولم يكن ليخطر على بالها أنه قد يتألم يوما بسببها بل لم تكن تفكر البتة أنه يمكن أن يكون للألم وجود فى نفسه مادامت تهبه جسمها وتسعده بهذه الهبة ساعات ... وكانت هى تكره الألم وتحاربه وتخشى منه على جمالها وسلطانها متاهبة على الدوام لخنق فؤادها دون رحمة يوم تشعر أن الحب صنو الألم وأن القبلة الحلوة قد تحفر الطريق أمامها نحو الشيخوخة . هذا الاحساس كان بمنزلة درع تتقى به صدمات العاطفة وتسيطر عليها اذ غرامها بالمظهر الفاتن كان أعلق باحساسها من ولعها بالحب نفسه ...

وعاش رينيه هذه العيشة بضعة أشهر كأنه يحلق فى سماء أبدا زاهية مصحية لايكلف نفسه عناء النظر الى حقيقة من يحب . تملأ جوانحه الثقة كما يملأ فيض السعادة قلبه وحواسه

ولكنه على مر الزمن وتوالى الصلة بدأ يلمح فى حبيبته شيئاً من الانكماش وبعض التكتم ورغبة حذرة خفية فى اجتناب الصراحة والاحتفاظ و من الغموض والظلمة لم يكن ليتمكن من تمزيقه والنفاذ الى قرارته

وكذبت عليه عدة مرات فى أشياء كان يعلم حقيقتها حق العلم فأوجس خيفة وانجابت عن ذهنه بعض السحب وبدأ عقله الراقد يفـــكر فلم يتردد وأخذ يراقبها ...

احتواه شك هائل وداخلته الريب الفظيعة وسلطت عليه الغيرة جميع ضروب القلق والحسرة والمهانة والغيظ ، فابصر بنفسه كالضائع يفتقد الحقيقة فلايجدها خشناً مع رفاقه غليظاً مستبداً فى بيته ساخطاً متبرما بالعالم ، يود أن يستقر على أمر واضح ولا يستطيع .

ولـكن اتقان مدام مورين الدور الذى كانت تمثله وصـورة العذراء النقية التى حفرتها فى ذهنه منها وظرفها ودلالها ورقيق عطفها ـ كل ذلك كان يبدد شـــكوكه تارة ويثيرها فى صدره تارة أخرى . ولم يـكن ليقدر البتة على التحرر من الاطار الذهبى الفاتن الذى اعتاد أن يرى فيه رسم حبيبته ولم يكن ليستطيع أن يتخيل هنيهة أن هذا الملك الـكريم قد يكون فى الواقع أفتك من شيطان رجيم

الى أن حدث أن سمع بعضهم يغتابها وابصرها عن غير قصـد ذات ليلة فى مقصورتها فى المسرح صحبة زوجها والبارون ديفورج ...

تحققت ظنونه فجأة وهاله ما رأى فترك المسرح لفوره خائر الحول محطم الأعصاب مهدود القوى وراح يجوب الشوارع هاذيا باكيا يفكر فى الماضى ويقيسه الى الحاضر ويذكر ما كانت عليه معه وما هى عليه فى الحقيقة فيكاد يجن جنوناً . وكان يستفز سخطه واستنـكاره أنها لعبت به وجعلت منه أداة للتسلية وقتل الوقت وأن حبها كان مجرد أكاذيب واخلاصها أيضا وحديثها وصوتها وكل شىء فيها ...

وصار رينيه لا يؤمن بالحياة ولا بالخير ولا بالفضائل بل عاد لا يؤمن بمواهبه كأنما انهيار مثله الأعلى قد حطم فى الوقت نفسه عقله وقلبه على السواء . وشاع فى صدره البغض وعز عليه كيف يخيب فى حبه الأول . إلا أنه كان مايزال يعشق تلك المرأة فانقلب بغضه بدافع الحب إلى يأس مرير ، ولم يفـــكر البتة فى الانتقام منها بل ذهب اليها وصارحها بالواقع واستحلفها بكل غال من الساعات

التى قضياها معاً أن تهجر بيتها وعشيقها وحياة الترف المزرية التى تعيشها ، وأن تفر معه الى حيث الحب والحرية

هزأت منه فى صميم نفسها وعبثت بسذاجته التى لا يريد الاقلاع عنها ورفضت اجابته الى سؤله فخرج من لدنها مستشيطاً حانقاً يلعن اللحظة التى عرفها فيها ويجتهد فى أن يتمالك رشده ويتنسى . ولكن الطعنة كانت فى الشغاف والامل كان رحباً جميلا والخير كان ممثلا فيها والحب كله كان يترقرق من عينيها نظرات وابتسامات . لا . لم يستطع رينيه احتمال هذا ودب فى نفسه القنوط وحاطه العدم من كل صوب ، فطأطأ هامته عياء وعاد لا يفكر فى شىء واتجه بخطى ثابتة إلى منزله ثم دخل حجرته وهناك تناول مسدسه وأطلقه على صدره فخر لفوره صريعاً مضرجاً بدمه

* * *

وما كاد يبلغ أمه الخبر حتى عراها شىء من الصعق والذهول وسارعت اليه وقد طارت نفسها شعاعا ، غير متصورة أن ابنها الوحيد المعبود الذى بذلت فى سبيله جهد حياتها وحمته من كل غائلة ، وصاغته على مثال نفسها النبيلة الطاهرة . لا يجد من نفسه قوى يقاوم بها التجربة فيصبح الفريسة العاجزة المسكينة لعبث المرأة وغدرها . . .

وأفجع من هذا كانت حال روزالى حبيبته الأولى فان اليأس استحكم من قلبها وابتلتها مرارة الخيبة بضرب من الاسى الممض وانخفاض القوى والحسرة والذبول ، وكما خيب القدر حبيبها فى حبه الاول كذلك صنع بها فهما متباعدان متقاربان يلتقيان فى المأساة ويفترقان فى الهوى ، تجمع بينهما رابطة الالم وتقصيهما عن السعادة سخرية القضاء .

واجتمع الكل عند فراش رينيه ، والدته المنكودة وحبيبته التعسة وصديقه الذى علمه الحياة . وظلوا بجواره يرعونه بعين عنايتهم ويسهرون عليه ويرسلون الى صدره المكلوم ماوعته صدورهم من حب وافتداء . الى أن تغلبت عزيمتهم على الخطر الداهم فانقذوا الفتى وانتزعوا جسمه سليما من بين براثن العدم

الا أن قلبه كان مايزال فى عداد الاموات ...

واستفاق رينيه من سباته وخرج من الفاجعة كالخارج من القبر . يرنو الى الطبيعة بعين جديدة . ويستقبل الدنيا فى حذر واحتراس . ويستكشف الحياة كالطفل فى كل خطوة

والتقى ذات يوم بصديقه كلود لارشيه فنظر اليه هذا نظرة منفرسة عميقة ثم هز رأسه وتنهد وقال فى تؤدة وايمان : « الآن فقط . الآن يا صديقى يمكنك أن تخلق العمل الفنى الانسانى الصحيح . لقد خبرت الحياة وتألمت . لا يجب أن تأسف على ما وقع ! ... »

فأشاح رينيه بوجهه قليلا وقطب حاجبيه وغض بصره ولم يحر جوابا

وفى هذه الاثناء كان البارون ديفورج ـ عشيق مدام مورين ـ أسعد الجميع يحتسى كأس خمر معتقة ويعرض بالنسوة الجملات وهو يبتسم ! ...

العـــــذاب

Le Calvaire

لاوكتاف ميربو

أوكتاف ميربو روائى فرنسى شهير يصور العادات والاخلاق والتقاليد فى أسلوب حاد عنيف. تقرأه فكأنك تسبح على ظهر بحر متلاطم أو كأنك تستمع لفيض من الأنغام الداوية المذهلة. وهو كاتب مسرحى وقصصى وناقد فنى لاذع هجام. والقصة التى نلخصها له أبدع قصصه على الاطلاق ولموضوعها مساس بجزء من حياتنا الاجتماعية المصرية وهى فوق ذلك تتصل بالحياة الانسانية العامة فى كل بيئة وكل زمن

نشأ فى قرية من قرى فرنسا بعيدا عن ضوضاء المدن وسط الطبيعة الجميلة الهادئة. إلا أنه لم يشعر بالراحة أبداً.

كان رقيق العاطفة، حاد المزاج، سريع التأثر، لاتكاد تفرحه نكتة لطيفة أو ابتسامة عذبة حتى ينقلب بغتة فتبدو على وجهه الناحل آثار الهم والشجن. فيفر من المجتمعات الى حيث يخلو بقلبه يناجيه ويتلمس الى الله ان يملأ فراغه ببعض السعادة

وكانت أمه على شاكلته امرأة مريضة منخلعة الأعصاب كثيرة الوساوس. مصابة بشبه خوف من الناس والحياة.

ولم تكن لتفارق ذهنها فكرة الانتحار وكانت لاتنفك ترى أمام عينها شبح والدتها المسكينة التى انتحرت ذات يوم بأن شنقت نفسها بحبل غليظ ربطته الى الثريا الكبيرة التى كانت معلقة فى سقف غرفة الاستقبال

وعبثا حاول الزوج ان يطرد عن مخيلة زوجه هذا الخاطر الفاجع . فصورة المنتحرة كانت تتمثل لها على الدوام فتسرى القشعريرة الباردة فى جسمها وتخشى أن تنتهى هى أيضا كما انتهت أمها فتبكى والرعب يملأ نفسها وتتجه الى ابنهـــا الوحيد ولا غاية لها إلا انقاذه من المرض الذى تعانيه

كانت تراه حزينا مثلها . حساساً . عصبيا . تأكله الهموم المخيلة . ويذهب به الضجر الى أبعد مذاهب اليأس . يشحب لونه ويهزل بدنه ويستدق شعوره الى حد الألم فتوقن الأم ان العلة وراثية فيه . وان الضعف العام انحدر من أفراد أسرتها اليه . وانه لو بقى فى الريف وظل يستمرئ حلاوة العيش الرضى ورخاوة الحلم المعسول . وبهجة الطبيعة الهادئة فلا بد أن يتسمم وجدانه ، ويألف الكسل والتواكل والراحة والاستخذاء . ومن يدرى ؟ فقد تنتابه جاذبية الانتحار وقد تكتنفه الهواجس وقد يعتزم الخلاص فيقدم على ما أقدمت عليه جدته وهكذا يموت ضحية الجرثومة الفاتكة التى نقلتاليه عدواها هى أمه . . أقرب الناس اليه وأشدهم حباً له !

عارض الوالد فى ذلك وأراد أن يشرف بنفسه على تربية ولده فجاءه بمعلم خاص . وجعل يراقبه ويرشده ويحوطه بعين عنايته ويسهر عليه والفتى يترعرع . نفور الخلق ، طائشا ، متبرماً ، مستهترا ، يتنقل فى لحظة وبدون مسوغ من الفرح الى الكآبة ومن الهزل الى الجد . من التفكير الى العبث ومن الضحك الى البكاء

توفيت أمه فازداد شعوره بالوحدة . وخيل اليه انه فقد قوة كبيرة طالما استند اليها وأحس بنفسه مخلوقا ناقصا محيرا . يهيم على وجهه فى طلب شىء يجهله . ولا سبيل لحياة الريف المتشابهة ان تبل ظمأه النفسى أبدا

اعلنت الحرب السبعينية فانخرط فى سلك الجيش وأدى للوطن واجبه ثم عاد الى قريته ولم يكد يدخلها حتى جاءه نعى أبيه فمضى الى البيت الذى ولد فيه فألفاه ساكنا هامدا خاويا لم يعد يضم بين جدرانه غير الخادم الكهل والخادمةالعجوز يبكيان سيدهما ويذكران الماضى ، ويقبلان على الفتى ، يحاول كل منهما تخفيف لوعته بعبارات العزاء الريفية البسيطة التى تزيد المرء ألماً على ألم . .

لم يستطيع جان فرانسوا مارى البقاء فى القرية لحظة واحدة . كان لا يكاد يخطو فى غرف البيت حتى يتمثل شبح أمه ويستقيم أمام ناظريه هيكل أبيه وتتأجج فى أنحاء ضلوعه مختلف عوامل الشجن فيظل ساهداً يفكر فى حياته وفيما فاعل فى الغد وفى باريس الفاتنة التى شاهدها عن كثب هو وأغرم بها واحتلت فؤاده وليس فى وسعه أن يعيش بعيداً عنها

وهكذا ودع جان قريته الصغيرة مسقط رأسه وموطن صباه وقبل الخادمين العجوزين وتزود من الطبيعة بنظرة أخيرة واستقل القطار ورحل الى باريس

* * *

كان قد أولع بالأدب لفرط دقة إحساسه . فلم يكن يصادف كتاباً جديداً إلا ويقرأه . ولم يكن يلقى أديباً ناشئاً إلا ويجلس اليه ويستمع لحديثه ويشاركه آلامه وآماله . وما كان أحلى تلك الساعات التى أنفقها فى مطالعة دواوين الشعراء . يلتمس فيها ملجأ لنفسه . وسلوى لقلبه . وغذاء لوجدانه . ومعنى سامياً للحياة

وأراد أن ينفس عن صدره فشرع فى تأليف قصة يودعها خلاصة أفكاره وصفوة عواطفه وما يظن أنه قد عرفه عن شؤون الدنيا وألوان الجمال وأسرار القلب البشرى

واستهوته حياة الفنانين ، ومافيها من لهو ومجانة وعبث وتشرد . وضاعف حبه لها أنه كان حزينا وهى ضاحكة . وانه كان رصيناً وهى هازئة . وانه كان يحمل هموم السنين وهى لاتريد أن تحمل هم يوم واحد !

وتعرف إلى مصور شاب . حلو الحديث . لطيف المعشر . يعمل فى اجتهاد ونشاط لبلوغ ذروة الشهرة وتحقيق آمال الصبا

توثقت بينهما عرى الصداقة وتوسم جان فى المصور النبوغ والتوقد . فاطمأن اليه واستراح لخلطته وأنزله من نفسه منزلة الصديق المفضل .

وكان يذهب اليه فى هدأة الليل فيجلس الصديقان وأمامهما أكواب الشاى وحولهما صور النسوة الجميلات وبين أصابعهما السجائر يدخنان ويشربان

ويتبادلان الحديث العذب الطويل . ويقص المصور على صديقه وقائعه الغرامية ويفضى اليه جان بكل مايعتلج فى صدره من اسى والمصور يحاول أن يكبح عواطف الشاب ويلطف من سورته ولكن جان كان يسترسل فى التحدث عن الحياة وعن مصائبها وغدرها وتفاهتها وغشومة القدر الذى ينزل الكوارث بالناس فى غيرما عدل أو روية كقوة عمياء تبطش ولاترى . أو كجبار فاسد شرير يلاعب جمعا من الاطفال لايلبثون أن يسأنسوا به ويركنوا اليه حتى يمكر بهم فيغافلهم ويصرع الكل واحداً بعد الآخر

هذه النزعة المتشائمة هى التى كانت مستولية على جان . وهى التى كان يبصر من خلالها الوان الحياة . إلا أنه بالرغم من هذا كان طيباً . وكان خيالياً . يصدر على الحياة العامة احكاماً سوداء ولا يستطيع أن يفهم حق الفهم شخصية إنسانية واحدة من مختلف الشخصيات التى تمر به يومياً ولا يعنى بدراستها وتحليلها وتكوين فكرة واضحة عنها

كانت نظرته إلى العالم نظرة فيلسوف يقرر الآراء سلفاً ويفترض الافتراضات ويجمع على حقيقة واحدة أما الحقائق المتباينة فلم تكن لتستوقفه لحظة .

كان يفتقر الى قوة الملاحظة التى تنفذ الى بواطن الاشياء والأشخاص فتستشف جوهرها الدفين الذى تحاول العادات والاوضاع والتقاليد أن تلاشيه أوتذود عنه وتحجبه عن الابصار

وفى يوم من أيام الشتاء وجان جالس إلى صديقه يتحاوران ويتجادلان والريح تعصف فى الخارج وشآبيب المطر تتساقط على الواح النوافذ . والحجرة دافئة . والشاى المعطر ينبه الاعصاب والافكار ، سمع طرق على الباب وخيل لجان أن حفيف ثوب فضفاض قد اختلط الساعة بصفير الريح . فقام المصور وفتح الباب وتنحى قليلا وإذا امرأة بارعة الجمال عليها معطف من الفراء البهى البديع تدخل بقدم ثابته وتحيي المصور ثم تلقى بنفسها على المقعد تعبة لاهثة ضاحكة

هى امرأة صبية ذات شعر أسود غزير تسترسل ضفائره على خديها وجبهة مشرقة عريضة ووجه مستدير . وفم صغير وشفتان مكتنزتان ولون غريب يترقرق على محياها ويسطع سطوعا عجيبا يمتزج فيه البياض الناصع بضرب من الصفرة الخفيفة

تزيده بهاء وفتنة . اما عيناها فسوداوان لوزيتان عميقتان يتراءى فيهما الصفاء أول وهلة وتنبعث منهما شتى الاحساسات الكبيرة كالنزاهة والصراحة والمودة . إلى أنها كانت تقطب حاجبيها وتشيح بوجهها فتلتمع فى حدقتيها بغتة بوارق خفية يهلع لها الناظر ويكاد ينكر ما أحس به الساعه امامها من غبطة واحترام وتقدير

عرفها المصور الى صديقه فنظرت المراة الى جان نظرة فاحصة واقبلت عليـــه تحادثه كأنها تعرفه من زمن بعيد ثم دعته لزيارتها وجعلت تلوم المصور على جفائه وتقول له إن صديقها شارل غاضب عليـــه ويود أن يراه وأنها ماجاءت إلا للاستفسار عن صحته والاستعلام عن سبب تغيبه ودعوته الى منزلها فى الغد

ومكثت هنيهة ثم استأذنت بالانصراف . ولما أغلق الباب وعاد المصور الى رفيقه خيل لجان أن الغرفة قد اختفى منهـا الضياء وأظلت فجأة وانتشر فى جنباتها السكون . . .

احس ان شيئاً ثميناً قد سلب منه . وأن قوة محيية قد انتزعت من صدره . وأنه مطرق واجم مشدوه

طلب الى صديقه ان يحدثه عنها . فما كان من المصور إلا أن حمل عليها حملة هائلة . صاح بجان والكراهية تملأ نفسه والحقد يدوى فى صوته . وعـــلائم الازدراء والاشمئزاز مرتسمه على وجهه . وأخذ يشرح له حقيقة تلك المخلوقة وما تستر تحت مظهر الفضيلة من رذيلة وخبث ونفاق

اخبره أنها أمرأة لعوب طائشة هوجاء متقلبة العواطف . متلونة الاحساس . اولع ماتكون بتعذيب الرجال وابتزاز أموالهم وإذلال كبريائهم والتلذذ بما تحدثه لهم من متاعب وآلام

وقص المصور على صاحبه كيف أن شارل عشيقها كان يجىء إلى هنا فاراً منها ، ساخطا عليها ، ناقماً على الساعة التى أحبها فيها . فيجلس على هـذا المقعد ويصرخ ويتوسل ويبكى شارحاً عذابه . مستفيضاً فى شكواه . يبحث عن طريقة للخلاص منها ولكن على غير جدوى

واسهب المصور فى تعليقاته وتحاليله وجان يستمع له باذن مرهفة . ولما أن فرغ تطلع اليه الشاب وابتسم وجعل يهز كتفيه هز من لايصدق ويتهم الآخر لمبالغة والتحامل .

اجل . لم يكن فى وسع جان وقد شاهد تلك الجبهة اللامعة وتينك العينين الصافيتين وذلك المظهر المحتشم الرصين أن يصدق ان هذا الاطار الكامل لايعبر عن خلق طيب سمح . حاول المصور اقناعه ولكن المرأة كانت قد طبعت فى خياله منها صورة ثابتة للخير . كما تطبع صور المعابد فى نفس المؤمن رموز الصلاح والتقوى

خرج من لدن صديقه وفكره محتل بها . يراها حيثما سار وأنى ذهب . تتمثل له تارة فى عرض الطريق . وطوراً فى ظلمة وحدته . لايفتح كتابا إلا ويبصر عينيها الصافيتين من خلال سطوره . لايكتب عن المرأة حرفا الا ويذكر هذه المرأة . لايتحدث عن النساء إلا ويتخذ منها القدوة الصالحة لهن جميعاً

فتن بها وراح يجوب باريس باحثاً عنها . يرتاد الأندية والمسارح وملاعب الرياضة ودور السينما . عل عينه الشاردة تقع فجأة عليها

واستعبد لخياله وضاعفت دقة احساسه هذا الاستعباد فلم يستطع المقاومة . واعتزم فى النهاية الذهاب اليها . وطرق بابها . ولو أنه لم يرها غير مرة واحدة

واتجه حيث تسكن وصعد الدرج وقلبه يخفق وأسنانه تصطك وتقدير الخيبة يحز فى صدره . ودق الجرس فخرجت اليه الخادم واقتادته إلى البهو الكبير وذهبت تنبىء سيدتها بمقدمه

دخلت عليه تخف لتحيتها مضطرب الاشارات جم اللفتات ممتقع اللون . يتلعثم ويروغ بعينيه ويتنفس تنفسا ثقيلا متداركا كتلميذ فى أول موقف حب . وكان يتبع جولييت كلبها الأبيض الصغير المدلل المحبوب . يقفز حواليها . ويمرغ رأسه فى أطراف ثوبها ويعوى عواء متقطعاً وهى تداعبه وتأخذه بين يديها فتقبله ثم تلقى به بعيداً وتضحك .. وكانت مرتدية ثوباً بنفسجيا بديعا يظهر

تقاطيع جسمها المتسقة المليئة وينحدر حتى قدميها الصغيرتين اللتين تشف جواربهما عن بشرة نقية ساطعة . استقبلت جان أحسن استقبال ورحبت به وسألته عن صاحبه . وشجعته على المجيء لرؤيتها . وقالت أنها سعيدة بمعرفتها إياه وانه راق لها . وانه نابغة وظريف . ثم تحدثت عن كلبها وعن شـــغفها العظيم به وعن ألاعيبه ونوادره وانحنت فاخذته بين يديها ثانيـا وجعلت تهدهده وتناغيه كما تفعل أم برضيعها

واستهوت الشاب منها هذه البساطة والرقة ولم يـكن لينتظر مثل هذه الحفاوة فاطال الجلوس وشرع يتكلم عن حياته ومؤلفه ومستقبله وحاجته الى مخلوق ممتاز يفهمه ويعطف عليه

وقام ليرحل فابتسمت له ابتسامة ساحرة وأمالت راسها قليلا وقدمت يدها تصافحه فتناولها وأبقاها بين أصابعه لحظة ثم حدق الى المرأة تحديقا شديداً وقبل يدها قبلة حارة . فابتسمت أيضا وشيعته حتى الباب وطلبت اليه فى لهجة عذبة أن يعود لزيارتها متى شاء وقالت انها تـكون سعيدة للغاية لو استطاعت ان تجعل منه صديقها المنشود..

كاد الشاب يجن من الفرح . وما ان هبط الشارع حتى أخـذ يغنى ويصفر ويلوح فى الهواء بعصاه ويركض بدل ان يمشى وطيف جولييت يلازمه ويستحث خطاه ويمنيه بالهناء والحب

وابتسمت له الدنيا وفارقت الـكآبة محياه وهجر التشاؤم والحزن والضجر وبات يظن ان انسانا جديداً قد استفاق فيه وان قوى خارقة قد اضطرمت فى صدره وانه يعيش فى النهاية . يعيش كما يجب أن يعيش جميع الناس ...

وهدأت أعصابه . واستقر بعض الشيء . وألف رؤية جولييت واعتـــاد الذهاب اليها فى المواعيد التى كانت تحددها له

وبدأ يزورها فى الشهر مرتين ثم تدرج الى عدة مرات فى الأسبوع وانتهى بزيارتها كل يوم

وكانت لاتلبث ان تراه حتى تتهلل لمقدمه وتسرع اليه باشة مغتبطة

تفضى اليه بهمومها وتشكو قسوة شارل . وتسترشد بنصحه . وتستبقيه للعشاء ثم ترخى ابصارها وتتنهد فى حياء مباغت لطيف كحياء العذارى

واستولت على قلب جان دون ان يبدو عليها أنها قامت بأى مجهود . وكان الشاب يزداد اشتعالا يوما بعد يوم . يفكر فى المجاهرة باحساسه ولا يجسر

وبعد ان كانت نفسه قد بدأت تستريح عاوده اضطرابه القديم . والتهب مزاجه . وأصبح بين ألمين . ألم الحب . وألم العجز والجبن . وما ينشأ عنه من حسرة ذليلة . ويأس من بلوغ الغاية التى يراها كل يوم أمام عينيه . فى متناول يده ، ولا يستطيع ان يضمها اليه ويظفر بها

وفى ذات يوم وقد ضاق صدره وعيل صبره وشعر ان لابد له من الاقدام اذا شاء ان يهدأ ذهب اليها وبينما هما يتحادثان جذبها اليه وأمسك بذراعيها وأسر اليها لوعته

تراخى جسمها ومثلت دور المرأة الصعيفة هاجمها الرجل للقوى فخضعت بعد كفاح طويل . .

وما ان أحس جان أنها أصبحت له حتى كاد يفقد صوابه من فرط الفرح فجثا عند قدميها وعرض عليها كل شىء : حياته وقلبه وشبابه والثروة التى خلفها له والده وكل ما ملكت يداه

سرت المرأة من نجاحها فى الخطوة الأولى وجعلت تستدرجه بشتى الحيل تجفوه ثم تقبل عليه ثم تتمنع ثم تستسلم كأنما هى أيضا تذعن لحب شديد لاقبل لها بالتغلب عليه

وأمهلته أياماً ثم أظهرت له رغبة عارضة فى النقود فأسرع وأمدها بمبلغ جسيم . فأنفقته لفورها فى شراء معطف وثوب وطلبت اليه مبلغاً آخر فأعطاها إياه عن طيب خاطر فابتاعت به أثواباً جديدة وقبعات وجوارب وأحذية وقصانا وأقراطاً وأساور وكل ما تشتهيه المرأة من أفانين الترف والنعيم

كان المال ينساب بين أصابعها كالماء . وكانت تنفق عن سعة وبلا حساب

تنفق على نفسها وعلى صديقاتها مختالة مزهوة مفاخرة لا تلبث أن تحصل من الشاب على نقود حتى تبددها وتلح فى طلب غيرها وتغضب وتنفر وتعرض حتى تنال ما تريد فتبدده أيضا وتعود إلى ما كانت عليه غير آبهة لما قد يحل بصديقها من خراب

والتهبت عاطفة الغيرة فى نفس جان واتقد حبه وود أن يحظى بالمرأة وحده فرغب اليها أن تترك صديقها الأول وأصر على ذلك وتوسل واسترحم واستجدى فامتثلت لرغبته وطردت شارل

أرادت أن تبدل مسكنها وتقطن مع حبيبها فى حى فخم جميل فأجابها الى سؤالها وأمدها بالمال اللازم فابتاعت أجمل الأثاث . وأغلى الطنافس وأبدع الأستار . وأروع التماثيل . واتصلت بالخياطات الشهيرات وجعلت تفصل أثوابها على أحدث طرار وتمتن فى الظهور بمظهر الاميرة التى دانت لها وسائل النعمة وعرف جمالها كيف يفوز بأوفر قسط من متاع الحياة

وانصرفت إلى معيشة الترف . وجمعت حولها رهطا من الأصدقاء والمعجبين . وأرادت أن تبز أترابها . فكانت تبدو فى الملاهى وعليها أجمل زينة . وتغشى الحفلات صحبة الأغنياء والمموليين تحادث هذا وتبسم لذاك وتمنى الآخر والكل متيم بها يتبعها كظلها ويرود حولها كما يرود الفراش حول النار !

وكان جان يشهد بعينى رأسه كيف تبتلع هذه المرأة ثروته الطائلة وكان يتعذب . يتعذب لامن أجل المال الضائع بل ليقينه أنها انما تتزين لغيره . وتحيا لغيره . وتؤثر الظهور فى المجتمعات على البقاء فى المنزل معه . تضجر من صحبته الطويلة . وتريد أن يراها الآخرون ويعجبوا بها ويتملقوها . لا لذة لها الا فى ان تكون قبلة الرغبات وهدف الشهوات ومحط البصر وملك الناس جميعا ! وكيف كان يستطيع جان أن يسمح بهذا وهو يحبها حبا يكاد يبلغ الجنون . يحاول أن يحتفظ بها لنفسه . أن يحرص عليها كحدقة عينه الغالية . أن يفر بها من باريس الملعونة . أن ينقذها من هذا الجو الفظيع الذى كاد يسممها ويقضى عليه

كاشفها بذلك فغضبت وتبرمت فجعل يتوسل اليها أن تظل فى البيت برفقته ليلة واحدة فقط . ولكن كان لابد لها أن تخرج . أن ترى أصدقاءها

وتستمع لاطرائهم . و تعيش وسط ضجيجهم . وتلتذ بفتنتها وسلطانها عليهم .
أما جان فله أن يصطحبها أو يظل فى البيت . يتلوى حنقا ويستشيط غيظا ويتنقل والشكوك تأكله والغيرة تمزقه والحيرة تكتنفه ولا أنيس له غير الكلب الابيض الممقوت الذى ترعاه جوليت أكثر منه وتحبه كما لم تحب أى انسان . . .

هاله ماأنفقه عليها وشعر والرعب يملأ نفسه انه لم يبق معه غير مبلغ ضئيل لايكفيهما مدى ثلاثة أشهر . فاختبل ولم يدر ماهو صانع وراح يستعطفها ويلتمس اليها ان تكف عن الاسراف والتبذير . ولكن قلبها القاسى لم يكن ليعرف الرحمة وما ان استوثقت من أنه لايزال يحبها وانه مغلول بضعفه اليها . وانه طوع أمرها كما كان حتى طلبت اليه أن يبتاع لها العقد الثمين الذى شاهداه سويا فى واجهة أحد المخازن

اضطرب جان واسودت الدنيا فى عينيه وكان على وشك ان يعترف لها بالحقيقة غير أنها ابتسمت وقبلته فأطاع لفوره وابتاع لها العقد . ولكنه بعد بضعة أيام لم يستطع إلا ان يصارحها بالواقع ويخبرها والدمع يجول فى عينيه أنه يسير بخطى حثيثة نحو الخراب وان آخر ماتبقى من نقوده مبلغ ألفى فرنك

نصح لها بالاقتصاد فهزأت به وأعرضت عنه وأخذت تعيره وتزدريه وهى تقهقهه قهقهة مزعجة ملؤها الغلظة والاثرة والوحشية

لم تعبأ به واستطردت حياتها ترتدى أجمل الثياب . وأغلى الجواهر . وتنفق كعادتها بلا حساب والفتى يرى ولا يفهم . . يفهم ويراجع نفسه ويود ألا يفهم ونوبات الجنون تعتريه . والافكار الشائنة تطوف بذهنه . والذل يهتاج أعصابه . والغيرة تعض قلبه كحيوان رابض فى موطن الحياة والحب منه ، وفى ذات ليلة أبصر جان على أرض البهو بطاقة فتناولها وما ان وقعت عليها عيناه وطالع اسم صاحبتها المتهتكة حتى فقد صوابه وأحس ان الحجرة تميد به فاستند الى الحائط وتمالك نفسه وجعل يصرخ مناديا جوليت فجاءت الخادمة وأخبرته أنها خرجت . وللحال استضاء عقله بنور ساطع غريب وخيل اليه أنه يرى بغتة كل شىء . فأسرع وارتدى معطفه ونزل الى الشارع جاحظ العينين مكفهر السحنة واستأجر عربة فانطلقت به الى هناك . . الى بيت البغى صاحبة البطاقة . . . وصل قبل جوليت

ولم تكد تمر بضع دقائق حتى أبصرها قادمة فتنحى قليلا وتحفز ثم هجم عليها وسد فمها بكفه واحتملها بالرغم منها وألقى بها فى جوف العربة وهى تتملص وتقاوم وتصيح وما إن احتواها المنزل حتى أمسك بها وطرحها على الارض وجعل يضربها ويضربها ثم انسابت اصابعه المرتعشه إلى عنقها البض فطاش صوابه وأخذ يضغط عليه حتى رفت العيون واندلع اللسان وتمشت فى الوجه صفرة الموت فتركها وذهب ينادى الخادمة والجيران وهو يصرخ كالمجنون: أذهبو اليها لقد ماتت! لقد ماتت!

واتجه الى منزل صديقه المصور وأخذ يبكى. وظن أنه قتلها واستراح ولكنهم أنبأوه بنجاتها فلم يستطع البقاء ورجع اليها

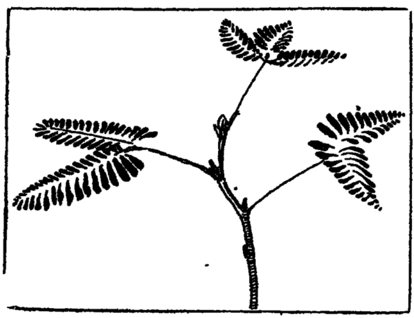
أجل عاد ثانيا. عاد أضعف مايكون بعد أن شارف البطولة لحظة.. عاد خاضعاً ذليلا تتصدق عليه بالمال وتمنحه فضلات القبل!

عز على صديقه المصور أن يراه على هذه الحال. فألهب فيه عاطفة الكبرياء ونصح له بالسفر وأرسله على نفقته الخاصة إلى بيت له فى احدى ضواحى باريس ولكن البعد زاده حبا ولوعة فجعل يراسل جولييت ويرجو منها أن تزوره فى وحدته ولو مرة. أجابته إلى طلبه وأتت فى عصر يوم وضاء جميل ومعها كلبها الابيض ولكن القرية لم تعجبها ولم تر فيها أى أثر للترف. ولا أى مجتمع يمكن أن يضم جمعا من المعجبين فتضجرت وندمت وخلفت الفتى وحيدا ورجعت الى باريس. أدرك جان أن لاسبيل لامتلاك هذه المرأة إلا بالمال. المال أيضا ودائما المال. فلم يتردد وباع آخر مايملك وهو منزل آبائه الذى بقى له فى الريف. ورحل الى العاصمه ومعه النقود فما ان رأته وعلمت بما كان حتى اكرمت وفادته واستولت على المال وبدأت تبتاع الملابس الفاخرة. والاثاث الرائع والحلى الثمينة حتى فرغ المال وأدركت أنه امسى فقيرا معدما فانصرفت عنه وعادت الى حياتها المستهترة فكان يضربها ويبكى ويخضع ثم يثور ثم يستغفر ثم يعو. وفى ذات ليلة وهو راجع من المدينة بعد منتصف الليل طرق الباب فأطلت الخادم وما ان رأته حتى صاحت فى وجهه وانتهرته وتوعدته باخطار البوليس فأدرك أن جوليت أمرت بطرده فهاله الأمر وظنها داخل المنزل

مع عشيق فدفع الخادمة وسار حتى مخدع النوم وتلفت فلم يبصر أحداً وحانت منه نظرة فرأى الكلب الابيض جاثما فى الزواية يحـــدق اليه فثار حقده فجأة واستنكر كيف أن هذا الحيوان يصيب من السعادة والحب مالن يكون من حظه أبدا فانحنى عليه وفى حسد وبغض وجنون أمسك برقبته وضرب به الارض فتفجر دمه فقهقه جان واحتمله وألقى به على السرير .. سريرها الذى استحال الى بحيرة صغيرة من الدم يسبح فيها جسم الحيوان البائس المسكين !

وهبط الدرج واستقبل الشارع وفيما هو حائر يتطلع اتسعت حدقتاه بغتة وارتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . لأنه شاهد ... شاهد المصور ... صديقه الحميم راجعا مع جوليت فى عربة يقبلها ويضحك ! ....

لم يتقدم جان . ولم يصح . بل لم يتكلم . أحس أن العذاب قد انتهى فعاد أدراجه يترنح ويهذى كسكير . وفى الصباح ابتاع قبعة صغيرة وثوبا أزرق . وحذاء غليظا وعول أن يشتغل ... أن يشتغل بيديه كعامل بسيط !



بين الثلوج

La Neige sur Les pas

لهنري بوردو

هنري بوردو مؤلف هذه القصة روائي فرنسي شهير وعضو في المجمع الادبي . بدأ حياته الادبية بنشر سلسلة مقالات وبحوث تناولت بالنقد كبار كتاب عصره . ثم تتلمذ على القصصي (بول بورجيه) واعتنق مذهبه في التحليل النفساني ووصف خلجات الحس والضمير ولكنه ينزع نزعة خاصـــة فهو يمزج التحليل بالحوادث الشائقة القوية ، يختار حادثه عنيفة تمتلك على القارىء مشاعره ثم يجتهد في رسم العواطف والميول بالقدر الذى تسمح به الحادثة . فالحادثة عنده في المرتبة الاولى ويجيء بعدها التحليل والوصف . والقصة التي نلخصها هنا هي أقوى رواياته على الاطلاق . وقدأعجب بها الناقد أميل فاجيه واستقبلها عنـد ظهورها بعبارات التشجيع والثناء

صبية في ريعان الشباب ونضرة العمر . ملء نفسها الامل والاخلاص تود أن تبذل نفسها عن طيب خاطر في سبيل شخص ممتاز أو عاطفة كبيرة ، شديدة الاحساس الى حد الغلو ، أبيه النفس موفورة العزة . تحلم بالحب العظ كمعظم النساء ولاتفكر في الزواج إلا وتجول بخاطرها صور المرح والتفاهم والعطف والثقة المتبادلة

هي جميلة وعارفة بجمالها . ترى مايحدثه قوامها الممشوق وعيناها الساحرتان وفتنة صباها من أثر بعيد في الرجال ، فتبهت ويحار فكرها في تعليل تلك القوه

التى حبتها بها الطبيعة عفواً كما يخلع الربيع ضياءه على الوردة اليانعه

هى فقيرة ، حال الفقر بينها وبين الظفر بالشاب الذى تصبو اليه أحلامها فاقترنت بكهل واسع الثروه . وانصرفت لحياتها البيتية ساكنة مطمئنة قانعة راضية . . .

تلك هى تيريز زوجة المهندس الثرى مارك رومييه أحبها الرجل حباً يقرب من العبادة . حباً صامتاً ملحاً عميقاً . يلهبه تفاوت السن . وتكسبه الرجولة الناضجة نوعاً من القوة والحدة والصرامة والاستئثار

كان زوجها طيب القلب « حنوناً » لايدخر وسعاً فى سبيل مرضاتها وإدخال السرور على فؤادها القلق الفتى . ولكنه كان شديد الكبرياء . على شىء كبير من الغطرسة والشموخ . يحب مهنته فوق مايحب زوجه . يقدس العمل أضعاف تقديسه لمطالب المرأة واحتياجاتها . لايعنى كثيراً بما تشتمل عليه نفسها من عواطف بل يهتم بالمظهر ، مظهر البذخ والترف والنعيم يلقيه عند قدميها ويظن أنه مالك به ذلك المخلوق المتقلب الظامىء الطموح

مرت ثمانية أعوام ورزقت تيريز فتاة رائعة الحسن دعتها جوليت . وسرت الحياه فى مجراها العادى . لاحادث غريب . ولا احساس خارق . ولاميول ملتهبة . ولا رابطة روحية وثيقة تؤلف بين قلبين . بل ركود . وصرامة . وعبادة للعمل تشغل الزوج عن العواطف . وتعود بعدها الحياة وقد لفها الظلام واحتوتها الكآبة المرة

لم يكن لتيريز غير فتاتها الصغيرة تقف عليها جهد يومها ، وتودعها خلاصة حبها

ولكن قلبها كان مايزال خاوياً لاينفك يبحث عن الجديد وهى لاتكاد تشعر أو ترى

على أنها كانت تقدر نبل زوجها ووفاءه لها ، واستقامته وشرفه وبذله كل مرتخص وغال فى سبيلها . غير أن الطبيعة لاتقاوم ، وتفاوت السن لابد يجلب الشقاء

وكان لتيريز صديقة قديمة ، وكان للصديقة زوج يدعى أندريه . فتى فى لونه شحوب . وفى حديثه رقة . كلف بالعواطف مثلها . محب للخيال كحبها . مضطرم الوجدان ، سريع التأثر ، يبحث هو الآخر عن الروح الشقيقة التى لاراحة للخياليين إلا بقربها

توثقت عرى الصداقة بين الاسرتين واعتادت تيريز رؤية أندريه والافضاء اليه بما يكنه قلبها من هموم

وأنس اليها وشاهد عظيم الفارق بين زوجه الجامدة وبينها ، فانساق لحكم العاطفة وطارحهـــا الهوى

قاومت أول الامر ، وعز عليها أن تبادل زوجها إخلاصاً بخيانة ، ونعمة بجحود . ولكن أنى لها الشجاعة ومارك منصرف عنها الى العمل ، ونفسها خاوية من الحب . وكبرياء قرينها ورزانته تحفر الهوة بينها وبين التفاهم الروحى الذى تنشده كل امرأة ؟

زلت قدمها واستسلمت لغواية الشباب ، ومنحت عشيقها منها ما اشتهى وتبودلت بينهما رسائل الغرام ولم يعكر على تيريز صفو حلمها إلا يقينها بأنها مذنبة وأن زوجها يحبها أعمق الحب .

لم يفطن مارك لما حدث فى شخصية زوجه من انقلاب . ولكن امرأة اندريه احست بما وقع فثار ثائرها واشتعلت فيها غرائز الانتقام ، ووطنت العزم على إصابة زوجها وعشيقته فى الصميم . فذهبت من فورهـا إلى مارك وقصت عليـه حقيقة ماجرى

هاله الأمر ، ولم يصدق ، بل أخـذ يبحث بنفسه ويتحرى ويراقب والشك يأكل قلبه . والغيرة تصليه مر العذاب . حتى عثر ذات يوم على رسائل اندريه لزوجه فتمثل الواقع الفظيع ورجع بذاكرته الى الماضى وعرض الحوادث البعيدة واحدة . فواحدة . وعندها أيقن بالجريمة ، فطاش صوابه وأحس البغض والاشمئزاز لزوجه فاستقدمها اليه . وفى اباء واستكبار وسخط واحتقار طردها من البيت شر طرد واخطرها بعزمه على طلب الطلاق !

لم يكتف بهذا ، وكان من الذين يخشون بأس المجتمع ، ويقيمون كبير وزن لأقاويل الناس ، ولايطيقون من الغير أن يمس أسمهم وسمعتهم بلفظة تعريض جارحة . فماكان منه الا أن تحرش بخصمه ودعاه للبارزة ثأراً لشرفه ومغامرة بحياته فى سبيل ذلك الحب وهذا الشرف

ذهلت تيريز من عواقب فعلتها وأدركت أن حياة زوجها وحياة حبيبها مهددتان ، وأن ابنتها ستفصل عنها فارسلت الى زوجها تستعطفه وتلتمس اليه أن يقلع عن عزمه ويصفح . ولكنه أبى الاستماع اليها وأغلق بابه دونها ، وحرمها رؤية طفلتها . وذهب فى اليوم المحدد للبارزة فنازل عشيقها وجرحه . . .

حينئذ فقدت المرأة رشدها وكل ماكانت قد بدأت تحسه من عوامل الندم استحال فى نفسها الى تمرد وعبث وتعلق بحبيبها وخوف عليه من الموت بسببها ولأجلها . . .

نسيت جميل الزوج وواجب الأم وحكم المجتمع . ولم تعد غير انثى طعنت فى غرامها وكاد مخلوق مستبد ظالم يودى بحياة حبيبها

نقمت على سلطة المال التى القت بها بين أحضان رجل لاتهواه . نقمت على التقاليد التى تفرض عليها الوفاء فرضاً . نقمت على الشرائع التى تستلب منها طفلتها دون رحمة ، نقمت على كل شىء واتجهت بعقلها وغريزتها نحو ذلك الشاب الذى شاهدت بعينى رأسها الدماء تسيل منه وهو مسجى على الفراش أصفر اللون مكفهر السحنة تاعسا مسكينا ينظر اليها من خلال جفنية الكليلين نظرة ملؤها التشبث والعبادة والالم

وعاشت بضعة أسابيع وحيدة شريدة . لابيت صديقة تأوى اليه ولا أمل فى عفو أهلها القرويين المحافظين عنها . ولاسبيل الى مجتمع يقبلها فى عداده ويغفر زلتها . ولا وسيـلة تستطيع بها رؤية ابنتها ومخاطبتها وتقبيلها ولو مرة واحدة . . !

تنقلت من فندق الى فندق ومن حى الىحى والحيرة تطاردها والقلق مستحوذ عليها والرغبه فى انقاذ خليلها تفوق فى نفسها كل رغبة

أما البؤس فلم تكن لتحفل به فقد ألفته أيام كانت فتاة مرحة طروبا لاتعرف الزواج ولا الهوى أيام كانت تقضى طوال نهارها فى تلك القرية البعيدة تتعهد الماشية وتسهر على البيت وتجمع الثمار الناضجة المتساقطة وتقطف العناقيد من الكروم وتنثر أوراق الازاهير البيضاء وتعدها متسائلة عما يخبى لها المستقبل من سعادة أو شقاء

أما كان التبتل أجدر بها من حياة كهذه ؟ أما كان الزوج الريفى البسيط الجميل أصلح من زوج كهذا ؟ أما كانت القناعة أولى بها من مغريات الخيال ومفاتن النعيم الحضرى ؟

ولكن أية فائدة من العود الى الماضى وهى قد تزوجت فشقيت ، واستولدت فولدت للغير . وأحبت فكادوا يقتلون حبيبها ؟ . .

كلا . ان تيريز لن تخضع . لن تبيع نصيبها فى السعادة . لن تتخلى عن عشيقها لن تتركه فريسة الضعف والمرض . هو الآن الانسان الوحيد الذى تستطيع أن تهبه كل مايجيش به قلبها من عطف ورحمة وتوق الى الحنان وفعل الخير

هذا ماطاف برأسها واعتزمت الأخذ به

وعلم أندريه بما كادته له امرأته . فازدراها كراهية لها وعاد لايطيق عشرتها وكبر عليه ان تنبذ حبيبته من المجتمع وتشرد فى الطرقات وتعامل معاملة مريض موبوء . فاضطرم حبه وضاعفته الحسرة والشفقة تأججا واضطراما

وعيل صبر تيريز وشعرت باستحالة الحياة بعيدا عن أندريه . وكان فؤادها يذوب لوعة وأسى كلما تصورته طريح الفراش يئن من فرط الألم ويذكرها ولا قبل لها بالمكوث بجواره والذود عنه والتفانى فى خدمته وحمل بعض الألم الذى يعانيه

وفى ذات يوم وقد لج بها الضنى ، وأمضها الشوق والحنين، ذهبت اليه وعرضت عليه ان تصحبه الى مكان قصى . . . مكان رائع وجليل ، بعيد عن باريس وذكرياتها ، بعيد عن المأساة وآثارها ، فى هدأة الطبيعة وجمالها فى بلاد سويسرا بين جبالها ووديانها . حيث المصحات متوافرة والهواء نقى والشفاء ميسور

ورفع اليها طرفه الساجى ، وتأملها لحظة ، وأبصر هالة الارق الزرقاء تحدق بعينيها ، وشاهد فى غورهما السحيق مختلف عوامل الطيبة واليأس والفداء تضطرب وتماوج ، فأطرق برأسه راضيا ، وابتسم لها ابتسامة شكر واخلاص

وفى اليوم التالى كانت تيريز جالسة وحبيبها الجريح بالقرب منها متكىء الى صدرها تحنو عليه وتؤاسيه وتضمد جراحه والقطار ينهب بهما الأرض نهباً الى سويسرا بلاد الامن والجمال والحرية !

* * *

وما كان أمتعها حياة تلك التى قضياها هناك ، تسر اليه همومها ويبثها نجواه ، تقبع فى زاوية بجواره وتقوم على شئونه ، وهو يلثم يديها ولا يعرف بأى العبارات يشكرها والدمع ينهمر من عينيه . والطبيعة والمرأة تجددان نشاطه وتصبان فى عروقه دم الحياة !

كانا يسيران جنبا الى جنب يمتعان النظر بالاشجار الزاهرة الباسقة،والغدران الصافية المتلألئة ، والاودية العميقة . والسحب القلقة الرخوة تتخـــذ أفتن الاشكال وأعجبها

وكان الهواء العاطر يستقبل أندريه ويحتضنه كاحتضان حبيبته ، مفعما صدره ، مالئا رئتيه ،مستحثا همته باعثا فيه مستكن القوة ومدخر الشباب

ولم يكن ليعكر صفو هذه اللحظات غير ذكرى الطفلة المعبودة(جولييت) تطوف بمخيلة المرأة فتشيع الكآبة فى محياها وتتمدد على جبهتها الغضون وتروح فى شبه غيبوبة طارئة ثم تبكى !

فكأن القدر يأبى الا أن ينكل بكل حب ، ويدس السم فى الكأس الطافحة . والهلاك فى الثمرة الناضجة ، وكأن اللعنة ، لعنة الزوج والولد ، لاتنفك تحلق فوق العاشقين وتتبعهما وتسوق خطاهما الى حيث يريد القضاء

* * *

الشتاء وكان فى مستهله والهواء يوشك أن يبترد . فى صبيحة يوم فكر العاشقان

فى الخروج الى النزهة . فاعدت تيريز سلة كبيرة ملأتها بالخبز واللحم المقدد وزجاجات الماء . وانطلقت بخليلها يضربان فى انحاء المدينة وينتقلان فى ضواحيها بعيداً عن العيون والارصاد

وكان يرافقهما الدليل يهديهما السبيل بين الآكام والوهاد . ولكنهما آثرا الانفراد بنفسيهما فصرفا الرجل وامعنا فى السير بين الجبال

وخطر لهما مايخطرلمعظم العشاق . وهو أن يرتقياما استطاعا ويهجرا الارض الى فسحات السما. . فاعتزما الصعود الى قمة الجبل ، جبل فولان الشاهق حيث الثلوج المتراكمة ساطعة كالعهن المنفوش

نهاهما الدليل عن الصعود قبل أن يرحل . ولكنهما استخفا به ولم يكترثا له

وأسرعت تيريز فجاءت بحبل شدته الى خصرها واوثقت بطرفه الآخر اندريه وتقدم الحبيبان بخطى ثابتة وجعلا يتسلقان الجبل شيئاً فشيئا . .

كانا يندافعان ويصعدان والريح الباردة تصفر فتلفح وجهيهما وتدميهما ، والشاب يستجمع قواه ويبتسم ويخفى لهثاته ويعبث . والمرأة تضحك مل. شدقيها اسعد ما تكون بمصارعة العناصر بعد أن صارعت الاسرة والقوانين والناس

وأوغلا فى السير بين الثلوج واحاطت بهما اكوامها من كل جانب والتفتا واذا الطريق تنكرت عليهما فجأة واتسعت وتشعبت مسالكها وتضاربت واستطالت لاتستطيع العين أن تقع منها على أى مخرج أو منتهى

ابصرا نفسيهما وحيدين بين تلال من الثلوج : الجو مكفهر ملبد فوق رأسيهما والريح العاتيـــة تعصف بجسميهما . والبرد القـارس يسوط منهما الجلد ويفرى العظام

حدقت تيريز فى عشيقها وعلا محياها الاصفرار ونظر اليها مبهوتاً وأشاح بوجهه مضطربا ، فاستولى عليها الذعر وقلبت طرفها الحائر فى الافق الرحيب علها تجد فرجة تهرع اليها . ولكنها لم تشهد غير قطع الجليد والثلج تملأ الجبل وتسد منافذ الطريق

لم تيأس وأقبلت وصاحبها يغدوان ويروحان باحثين عن الناحية التى صعدا منها ينادبان ولا من مجيب . يبحثان على غير جدوى . يسيران على غير هدى الى أن أيقنا فى النهاية بأن الخلاص محال وانهما ضلا الطريق وتاها بين الثلوج !

اظلمت الدنيا فى عينى تيريز واشتد خفقان قلبها وتطلعت الى الشاب مرتجفة والهة أخوف ماتكون عليه . وبغتة ، وهو مايزال يمشى وهى تتبعه ، واقدامهما تنغرس فى الجليد ، والريح تدفعهما ، والامل العنيد يمنيهما بالفوز والنجاة ، توقفت تيريز لحظة وجحظت عيناها وطاش صوابها وجعلت تجذب الحبل مااستطاعت ولكن اندريه كان قد وصل الى رأس منحدر سحيق وهو لا يشعر فاستطرد المسير برغمه . وعلى حين فجأة تمايل وعراه شبه دوار وتكسرت اكوام الثلج تحت قدميه وانبسطت ملساء ناعمة رخوة . فانحنى على نفسه وحاول أن يكر راجعاً ولكن المنحدر جذبه اليه فانزلق وهوى

صاحت تيريز صيحة هائلة بددتها الرياح وهوت اثر حبيبها

وظلا يتدحرجان وقطع الثلج تصفعهما . والجليد المتناثر يكاد يعمى أبصارهما والحصى تتساقط كالمطر عليهما والصخور الناشزة كالسهام تمزق عضلاتهما وتهشم رأسيهما

وكانت تيريز تصرخ صرخات جنونية ، لاتكاد تتعلق بشىء حتى يغور بين أصابعها ويتفتت .. أما أندريه فقد فقد رشده واستسلم لمقدوره والثلوج تنهال عليه وتتقاذفه وهو لا يعى . . .

واستقر بهما الانحدار على لوح من الثلج متماسك ضخم فدنت تيريز من عشيقها وإذا به مشعث الشعر غائر العينين أصفر اللون مهشم التقاطيع . تسيل منه الدماء !

صرخت مستنجدة فلم يجبها سوى الصمت الرهيب

وكانت قد ربطت إلى ظهرها سلة الطعام ففتحتها وسقته جرعة ماء ومزقت طرف ثوبها وبللته وجعلت تمسح به جبين الشاب

ضمدت جراحه وأطعمته القليل من الزاد وراحت تفتش عن مأوى . ولكن أى مأوى يمكن أن يعثر عليه انسان تائه فى جبل من جليد معلق بين الارض والسماء ؟

وأقبل الليل

لم تنم تيريز لحظة واحدة . كانت تقاوم النوم جهدها . وتحفز عشيقها لمقاومة النوم مثلها مخافة إن هما اغفيا ولو فترة قصيرة أن تغمرهما الثلوج الهابطة فى اطراد من أعلى الجبل

وانبلج نور الصباح فقامت تيريز وجعلت تنفض أكوام الجليد المتراكمة حولهما . وأطعمت أندريه وكشفت عن جراحه وعادت فضمدتها من جديد

وعبثاً كانت ترسل الصيحة تلو الصيحة وتضرب فى عرض الجبل باحثة عن موئل أو مجير

خيل اليها إن القدر يريد إلا أن يدفنها وعشيقها بين هذه الثلوج

رجعت اليه فألفته مسلوب الحول ذاهب اللب ممدداً يئن ويزفر من ألم الجراح ومضاضة التعب وعذاب الأرق الطويل

جلست بقربه وشاع فيها اليأس واسلمت أمرها للقضاء ، يشكو أندريه فتؤاسيه . ينام فتوقظه . وهو لفرط مغالبة النعاس وفرط الألم قد حال هيكلا عظميا ترف فيه اللحظة بعد الاخرى أنفاس قصيرة متقطعة

وظلا هكذا ثلاثة أيام بلياليها . وفى صبيحة اليوم الرابع خارت قوى أندريه وطغت على عقله الحمى فجعل يهذى ويصيح . ثم انقضت عضلات وجهه وشحب لونه شحوبا أغبر مخيفا . وسرت رعدة هائلة فى جسده البالى فدب الرعب فى نفس تيريز وأخذت بحبيبها تهزه وتستنهضه وتخاطبه وتقويه فتحرك قليلا ورفع اليها بصره الذاهل وناشدها — وخفقان فؤاده يكاد يخنق الالفاظ على شفتيه — ان تعود الى زوجها . الى ابنتها إلى أسرتها . أن تعيش لهم بعد اذ يكون الموت قد أجهز عليه

صاحت مستنكرة وقالت انها باقية هنا . لن ترحل . لن تتخلى عنه واذا أصابه

الموت فستموت معه وفيما هى تتكلم أصعد الشاب زفرة كليلة طويلةواجتاح محياه الاصفرار واستوى بعض الشيء واندلعت عيناه ثم تداعى وقضى !

احتضنت جثته وأخذت تصرخ وتبكي وتستغيث مذعورة مأخوذةمختبلة . ولما لم يجدها الصراخ نفعا سكنت فجأة واقتربت من الجثة وحدقت اليها وجلست بجوارها كعادتها ثم مدت أصابعها الضامرة المرتعشة فأغمضت العينين الجاحظتين وانحنت فقبلت الجبهة الباردة وظلت مكانها هادئة صامتة ذاهلة حتى الصباح !

* * *

وكان فى أعلى الجبل شبه مصح أو مستشفى يطلق عليه اسم مصح سان برنار فلما انصرمت تلك الايام الاربعة ولم ير الدليل أى أثر للعاشقين فى المدينة ذهب وأبلغ الامر رئيس المستشفى

أسرع الرئيس برفقة الدليل وكلبين كبيرين أطلقهما بين الجليد فجاسا خلال الجبل وشما رائحة الجثة وجعلا يعويان عواء شديدا وما ان طرقت الاصوات مسمع تيريز حتى أجابت عليها بأنين ممزق طويل أرشد الرئيس الى مكان الحادثة

تعلق بحبل وهبط اليها فرأى امرأة ملطخة الجسم بالدماء ممزقة الثوب نصف عارية قد التصق شعرها المموج الغزير بالدم الباهت المتجمد على وجهها ويديها وشاهد الجثة بقربها تنبعث منها رائحة كريهة وتسبح هى أيضا فى بحيرة من الدم المتجمد الحالك السواد

وأبصر الثلج يكاد يغمر الجثة ويخفى المرأة حتى ساقيهافأوثقها بالحبل وأصعدها وكذلك فعل برفيقها وما ان نقلت تيريز الى المستشفى حتى غابت عن صوابها واحتواها اغماء عميق

أول ماخطر لها بعد ان استفاقت ورأت الممرضة بجوارها والطبيب يتنقل فى أ ا‌ء الغرفة بخطى حذرة . وشبح الميت يلوح من خلال الأستار أن ماوقع لم يكن غير قصاص أنزله بها الله جزاء لها على هجرها ابنتها وايثارها لذتها على خدمة الطفلة البريئة التى لم تقترف أى ذنب

تمثلت لها الفتاة وحيدة فريدة لاأم تحنو عليها ولا عطف ولا عناية ولا حب فتبدل احساسها وندمت أحر الندم على مافرط منها . وجعلت تسائل نفسها ألم

يكن أولى بها اخماد لواعج قلبها وتوديع خيالات الغرام والرضى بحب زوجها الصارم المتغطرس فى سبيل تربية ابنتها المعبودة لجوليت

وذكرت ماطلبه اليها اندريه وهو يلفظ النفس الاخير . فسالت عبراتها حسرة على عشيقها وزوجها وابنتها وما انتهت اليه

أدركت ان كل هذه الآلام لن تؤتى ثمارها الطيبة الا بالعودة العاجلة الى حظيرة الاسرة مهما كلفها ذلك من عبودية واستبداد وذل

وخشيت أن تموت قبل أن ترى ابنتها وان يقف زوجها على ماوقع فى نفسها من تبدل عظيم

بل لقد سمت عواطفها الى حدانها اعتزمت طلب الصفح من قرينها كى تتجه الى العالم الآخر مطهرة القلب من كل شائبة

وتسلم الزوج من رئيس المستشفى برقية اخطره فيها بأن زوجه تموت وأنها تلتمس منه المغفرة وتناشده اخلاصه ونزاهته الا ماجاء اليها ومعه الفتاة

اضطرب الرجل واستجاشت فيه الخيانة عوامل الثأر والقسوة والكراهيه وكاد يمزق البرقية ويدعها بلا جواب ، ولكنه كان ما يزال يحب تيريز . لم تستطع خديعتها أن تمحو من فؤاده ذلك الهوى الدفين . لم تستطع الايام أن تعدم تلك الصورة الفاتنة التى مابرحت تلازمه فى احلامه وتملأ فراغ لياليه

ولد الحب فى قلبه الشفقة . فقام الى امتعته لحزمها واعد حقائبه واصطحب الفتاة وولى وجهه شطر تلك البلاد التى شاهدت مصرع خصمه وتكاد تودى الآن بحياة من يحب

ما ان ترك القطار ووطئت قدماه أرض سويسرا حتى استرعاه مشهد جنازة تسير فسأل من الذى قضى فاجابوه انه العاشق الشاب الذى تاه فى جبل الجليد ومات هنا بين أحضان عشيقته

ثار بغضه القديم ثانيا وكاد ينكص على عقبيه ، ولكن الرحمة تغلبت ، فجذب الفتاة واندفع من فوره نحو المستشفى

دخل الحجرة فألفى زوجه الجميلة مسجاة على الفراش صفراء هزيلة بائسة

مقصوصة الشعر تلف وجهها الأربطة وترسل عيناها المحمومتان نظرات حائرة متوسلة

جثا عند حافة السرير وتناول يدها الناحلة وجعل يلثمها فامرت أصابعها على رأسه وفاضت عيناها بالدموع . وفتح الباب فجأة ودخلت جولييت فما ان رأتها الأم حتى صاحت من أعماق قلبها صيحة فرح عظيمة واعتنقت الفتاة وجعلت تقبلها قبلات منتشية تائهة

* * *

وكان لابد للزوج من مواصلة اعماله فعاد الى باريس صحبة الفتاة

ومرت ثلاثة أشهر وتيريز ماتزال فى سويسرا تعالج فى المستشفى وتتقدم بخطى حثيثه نحو الشفاء

وحالما خرجت الى المدينة واستطاعت أن تشهد نور الشمس وتستعيد صباها وقوتها أرسلت تستقدم زوجها فاجابها ان فى وسعها الرجوع الى باريس والمكوث فى البيت مع ابنتها ووالدته العجوز . فاصرت على مجيئه . ورغبة منها فى الهاب حبه القديم لها واستعادة قلبه اليها مخلصا طيبا رحيما كما كان ، ذهبت الى بيتها فى ضاحية من ضواحى سويسرا حيث يقطن أهلها ولبثت فى انتظار زوجها هناك . وفى ذات يوم وتيريز خارجة من المعبد تهرول مسرعة الى البيت رفعت رأسها بغتة واذا زوجها أمامها وجها لوجه ولما ان أبصر الأزهار والرياحين والكروم وتوسط الحديقه الغناء التى كانت تمرح فيها تيريز أيام ان عرفها فتاة طاهرة ساحرة لعوبا ، استيقظ فيه غرامه الاول وادرك ماترمى اليه وايقن من صحة توبتها فانحنى عليها وضمها بين ذراعيه وقبلها فى فمها قبلة الحب والرحمة والغفران !

تم

اقرأوا كتاب

الادب الحى

للمؤلف

للمؤلف

(تحت الطبع)

١ ـ دراسات وصور

٢ ـ نحو النور (درامة فى ثلاثة فصول)

مطبعة المجلة الجديدة لصاحبها سلامة موسى بشارع الملكة نازلى ١٤٩ بالقاهرة
مستعدة لطبع جميع الكتب والمجلات أجود طبع